

سلام إبراهيم



جثة ميتة

رواية

الأعمال الكاملة 2



حياة ثقيلة

المؤلف: سلام إبراهيم

الكتاب: حياة ثقيلة (رواية) - الأعمال الكاملة 2

صدرت النسخة الرقمية: أيار/ مايو 2025

- الطبعة الأولى - دار الأدهم - القاهرة - مصر، 2015

- الطبعة الثانية - مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع - بابل - العراق، 2022

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



-
- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

الأعمال الكاملة 2

سلام إبراهيم

حياة ثقيلة

رواية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إلى:

عبد الحسين داخل (أبو أمير)

وناهده جابر جاسم القزمرى

المحتويات

9	 لبناء عالم جديد
75	 وينك يا بلدي؟
163	 أليبيبيبيبي... خلصتْ

لبناءِ عالمِ جدید

أجلسُ على حافةِ الستين. خلفَ النافذة، الليل أبيض. خلف النافذة تهبط الأضواء وندف الثلج من سماء بيضاء. تهبط بروية وهدوء وكأنها تنسج مأساة وحدتي، أسترخي على كرسيّ الهزاز وسط الصالة أمام نوافذها الزجاجية الثلاث العالية المشرفة على امتداد الشوارع البيضاء ونفسي منقبضة فرط البياض، يقال إن المحتضر يرى قبيل رحيله، في اللحظات الأخيرة شلالاً من الضوء الأبيض الذي تعشي له العيون. هذا ما أفضى به من توقف عن الحياة للحظات وعاد بتدخل طبي. الشوارع خالية. زوجتي تنام في الغرفة الأخرى. صرت قليل الكلام بعد أن كنت لا أملُ منه.

وحدي. وحدي. وحدي والستون تفرش أيامي، تحتل لحظتي، تحيط بي، تحاصرني في سهري، في سكوني، في حركتي، في أنفاسي، في نومي، في يقظتي. أحملق في جدران الصالة التي امتلأت بصورهم. حشدٌ من الأحباب. حشدٌ من الوجوه المنيرة الضاحكة. حشدٌ غادر الواحد تلو الآخر هناك بعيداً في الرحم الدامي.

كنت أظن قبل سقوط الدكتاتور بأن همومي كلها ستزول بزواله فأتتمكن من زيارة الأهل والأحباب، أرى أمكنتي الأولى وأشم هواء وتراب مدينتي وأكون خالي البال وأنا أراهم أحراراً والأفق أمامهم مفتوح. فكنت أحلم بذلك اليوم سائراً أو قائماً أو جالسا أو نائماً. وكنت أمارس طقوس أشواق السرية دون بوح،

فكنت أتخيلني وأنا أرمي نفسي في حوض السباحة كأنني أقفز إلى نهر الديوانية وأعط فيه، فأرى وأشم وأمس بقلبي وأنا في غمرة الماء بيوت "حي رفعت" وحدائق المعسكر في الجهة المقابلة ناسياً ما حولي من نساءٍ مثل جنيات القصص بلباس السباحة يعومن ويقفزن ويخرجن من حوض الماء الناصع الزرقة.

أنفصلُ مع كل قفزةٍ عن وجودي الغريب، مستمتعاً بالأخيلة التي تنهضُ من عمقِ السنين حيةً في الماء. لكن حتى هذه اللُعبُ السرية فقدتها عقب الاحتلال وزياراتي السنوية الطويلة للرحم الملتهب. فقدتها وأنا أفقد الحبيب تلو الحبيب ليتحولوا من جديد إلى خواطر وصور فوتوغرافية معلقة بالحائط تطلُّ من سكونها على وحدتي أنا وزوجتي الحزينة، هاهم يحيطون بيّ بعيونهم البارقة وبسماتهم الحارقة مخففين من وطأة الوحشة وثقل البياض خلف النوافذ وسكون الصالة وقفر الشوارع المغطاة بالثلج.

متع الأشواق الصغيرة الطائرة فقدتها، فأصبحتُ كلما رميت جسدي في حوض المسبح أراهم يغوصون جوارى بأجسادهم العارية وعيونهم المفتوحة. كل غطة أرى أحدهم حياً يجاورني في عمق الماء، صامتاً، مفتوح العينين، وشعر رأسه يتمدد في الماء خلفه، تمتد اللحظة الحية حتى ظهوري إلى السطح وضجيج السابحات والسابحين الذين يقابلوني ببسمة وتحية كلما التقت نظرانا.

- أي جحيم يلاحقني يا إلهي!

أدمنت الحوض، ووجوههم رسخت في نفسي طاردةً أشواقي

المجردة القديمة المتعلقة بظل أو شجرة أو جدار بيت أو لذة مساء في شارع أو بستان إذ بردت بتكرار الزيارة مفسحة المكان لذوات حية حميمة وآخرها حبيب قريب كنتُ ألمسه وأصحابه وأحدثه ويحدثني طوال اليوم في بيته والبارات والحدائق والزحام في تجوالنا ببغداد.

ليس في الماء فحسب، بل بثُّ أراها بوجوه المارة مكتشفاً لعبة جديدة من لعب الأشواق الطائفة تتلخص في الجلوس على مصطبة في شارع المشاة وسط كوبنهاجن ومتابعة الوجوه الخاطفة فأرى شيئاً من ملامحهم في قسَمات المارة، وعندما أجد وجهاً يشبه أحد الأحباب، أقوم بالسير في أثره كي أشبع عيني من ملامحهم الحية في وجهه. لعبة متعبة فشلت في الكف عنها فأورثتني مزيداً من الأشواق المستحيلة.

أقوم من كرسي مغموراً بالبياض المتدفق من النوافذ لأملأ كأسِي بالعرق الخالص، فبدون السائل الأبيض السحري لا نوم ولا راحة ولو لساعات من زحمة الوجوه الحبيبة الباسمة المحدقة بوحدي والتي عاشرت أعوامي الغضة.

ما زال الفقد جارياً مثل نهرٍ والستون تلوح دائية أكاد ألمسها بأصابعي.

طفح بيّ الكيل. أكاد أفيض بهم. فهيا معي يا من تلاحق حروفي علَّ البوح يخفف شيئاً من ضنّى أشواقِي المبرحة.

استيقظتُ قبل أذان الفجر كما خططت. السكون يعم كل شيء، الفراش والجدران والبيت، ومن النافذة العريضة بانَتْ النجوم تلهث بضوئها في صفحة السماء الصافية، نجوم طفولتي البعيدة نفسها التي كنت أتتبع جريانها في عمق السواد، لم أترك

نفسى لأشجان الطفولة وسمائها فذلك يثني من عزمي. تسالتُ
إلى الحمام على أطراف أصابعي كي لا أوقظ أخي وزوجته،
وأديتُ طقوسَ استقبالِ الفجر، ارتديتُ ملابسِي، ودلفتُ من
الباب إلى الحديقة، سحرتني السماء الساكنة الفريدة، التي لم
أعثر على مثيلٍ لِسحرها في بلدانِ المنافى. كسكران ترنحت
وأصداً تمتمةً أُمي تصلي الفجر في الصلاة، على بعد ثلاثة
أمتار من وقفتي أسمعها مثل حفيف ثوب في سكون. تسكرني
رائحتها الطيبة وهي تعانقني فجراً بعد كل إجازة كلما توجهت
إلى جبهة الحرب مع إيران، قارئاً أدعية تحفظني من كل
مكروه. كدتُ أعود إدراجي، فأصدقائي نصحوني بلزوم البيت
إلى أن يهدأ الوضع وأعود من حيث أتيت. الوضع خطير في
المدينة. والمليشيات الدينية تسيطر على النصف الجنوبي من
المدينة، بينما تسيطر الحكومة على قسمها الشمالي والمركز.
ومحلتنا "حي العصري" تقع على خط التماس.

انتزعتُ حالي بعناء من الشجن وهاجس الخوف مخاطباً
نفسى:

- قد لا تراه إلى الأبد!

وخطوت باتجاه باب البيت.

في منتصف المسافة، صدحت أصوات المؤذنون منتشرة في
عتمة أول الفجر.

"الله أكبر.

لا إله إلا الله".

تَخَافَتَ خطوي. تخافتَ حتى سَكَنَ في عمقِ السحر. وقفتُ

مثل مسكين على باب الزمن شاماً رائحة أمي، وحفيف ثوب صلاتها الأبيض وهي تعد نفسها لمواجهة ربها، وقتها كنتُ أسهر في غرفتي أقرأ حتى مطلع الفجر.

دوى في صمتي السؤال موجعاً:

- ماذا فعلَ بك المنفى؟

بتناقلٍ، عاودتُ الخطو مقترباً من الباب، أصبحتُ جوار شجرة أبي، تتدلى من أغصانها كرات النارج البرتقالية في الفضة المنهمرة من السماء. زرعها شتلة وقال لي ضاحكاً:

- ثمرها أحسن مزة!

هبت عليّ رائحته. مزيجٌ من نشارة الخشب وعرق المسيح فترنحتُ قليلاً وأنا أمد يدي لأزيح لسان الباب. تماسكتُ وسحبته. عبرت العتبة مجاهداً للخروج من سحر الماضي ووطأته حتى لا يوهن عزمي. إذ قررت ذلك برغم كل شيء، شبه الحرب الأهلية الطائفية، احتمالات خطفي أو قتلي، لكن بعد ثوانٍ هجمتُ عليّ أطياف طفولتي من أركان البيوت وزوايا الشارع والرصيف. كورتُ نفسي تفادياً لذلك الهبوب المعذب، كاد يصيبني الوهن. رمحت بقامتي وخاطبت نفسي:

- ماذا بك؟ ماذا؟! ركبتُ أشد الأخطار. كدت تموت غريباً. فلم تخشاه وأنتَ وسط الأحباب والأهل؟

أطبقتُ بابَ البيتِ الحديدي بهدوء فضاع صوت الإطباق في ضجيج المؤذنين. توقفت هنيئة جوار السياج يهزني شعورٌ قديمٌ رافقتني منذ ليل الزنزانة الأولى؛ رغبةً واهنةً تنتابني لحظة الاستيقاظ فجر كل يوم؛ رغبة في معانقة الكل، المرأة والشجرة،

العدو والصديق، الضوء والظلام، الماء والنار، التراب والعشب، الله والحشرة، حلمٌ صغيرٌ بحب جميع ما في الكون. حلمٌ أشتعل في ليلٍ قبو ضيقٍ عفنٍ وأنا شبه عارٍ أنزف وأرتجف من شدة البرد والذعر، حلمٌ ظلّ متوهجاً في خنادق الحرب، وبين الثوار في جبال العراق حيث نزعت فكرة قيام مدينة فاضلة بالقوة، الإحساس المبهم نفسه، إحساسٌ مجردٌ يُسقط الأسباب، الذرائع، المعنى. ينتابني الآن وأنا أتوجه نحو بغداد التي عادت مجهولة على محبيها. إحساس استولى على كياني قبل أكثر من أربعين عاماً وهم يدفعونني على درج ينزل إلى فسحة بالكاد تسع الجسد بعد حفلة تعذيب في بناية وجدتها مهجورة وسط الديوانية جوار الجسر الرابط بين شارع السراي وشارع سينما الثورة... في خضم هذا الشعور القديم الجديد أتساءل:

- لم يحدث كل هذا؟

- ولم لا يحب الإنسان أخاه الإنسان؟

سيعاشرني السؤال طوال العمر وفي مختلف الأمكنة، سياترني في لحظات الشرود، الشعور بالعجز، والخسارة في تجربة، أو مآزق، وفي الفواجع التي لا عدَّ لها. هاهو ذا ينبعث صارخاً مع خفوت أصوات المؤذنين والأدعية، وخطواتي باتجاه مركز المدينة المشتعلة منذ أشهر بقتالٍ لا معنى له، فالمتقاتلون من الطائفة نفسها، اللون نفسه. حثثت خطوي في الشارع العريض المظلم مخاطباً خياله:

- سأراك. سأراك برغم كل شيء!

عند مدخل شارعنا، من خلف جدار مسجد جامع واجهني

ضوء شديد السطوع أعمى بصري وصوت خشن:

- أرفع إيديك!

انصعت للأمر والمثلثون أحاطوا بيّ بارزين من جهتي
الشارع وهم يوجهون فوهات بنادقهم صوبي.

شردتُ بعيداً عنهم أفكر بالمشهد مخذولاً، هأنذا في شارع
طفولتي قرب بيتي أرفع ذراعيّ مستسلماً لمجهولين يحتلون
تراباً وهواءً وفضاءً سنواتي الأولى التي كنتُ أظن بعودتي
سوف أسترجع نكهتها. لبثتُ ساكناً في حزمة الضوء المسلطة
على وجهي أنتظرُ الفرج. تعالى لغطّ قطعه صوتُ شاب يافع
موجه لي:

- العفو عمي!

أنزلتُ ذراعيّ. حدثتُ إلى وجه محدثي الذي أضاءته حزم
ضوء البطاريات اليدوية. لم أتعرف عليه، لكن ملامحه ليست
غريبة. همس معرفاً بنفسه:

- أني ابن "حسن" عمي!

ابن جارنا، رفيق قديم كنا معا نخوض نضالاً ضد الدكتاتور
حالمين بمجتمع لا غني فيه ولا فقير.

اعتذر لائماً خروجي بهذا الوقت، وأخبرني بأنه يحمل نفس
رسالتنا أنا ووالده فهو خرج من أجل إقرار الحق في زمن غير
زمننا. ثم أقترّب مني حتى كاد يلاصقتي وهمس قرب أذني:

- مثلكم عمي أحنه نريد العدالة والمساواة ومجتمع ما به فقير!

قبل رأسي وفسح لي طريقاً. فقدرتُ أنه أمر المجموعة.

انتابتنى رغبةً بالضحك حال ابتعادي. كدتُ. لكن السحر
والجو المريب جعلاني أكتمها. فرحت أتأمل مفكراً في هؤلاء
الذين زاحموا حلمنا القديم؛ حلم المساواة الذي جعلني أخوض
الأهوال وأتغرب أكثر من عشرين عاماً، ذلك الحلم ترفع رايته
هذه الميليشيات القاسية، قبل أيام وقفت شاهداً على حفلة جلد
علنية لزملاء أحبهم وسط المدينة، كبسوا شقتهم في شارع
الصيدليات، وذنبهم أنهم يشربون سراً ويتسامرون. سيقوا نصف
عراة صباح اليوم التالي إلى وسط المدينة. قرب المحافظة
القديمة مقابل سوق التجار عند مدخل شارع المكتبات، جُلدوا
حتى الإغماء. عذبوا وقتلوا حلاقات المدينة، باعة الخمر، أسروا
عشرين جندياً مسكيناً وأعدموهم أمام أنظار الناس في الساحة
الفاصلة بين حي العصري وحي النهضة، شخصيات برزت
عفوا بعد الاحتلال، -جمال سيد نور - المعلم الذي أصبح عقب
الإحتلال بفترة وجيزة محافظ المدينة، قتلوه وهو يتناول فطوره
في مطعم وسط سوق العروبة بعد إصراره على الترشح في
الانتخابات التالية، ابتزوا تجار السوق وأثرياء المدينة، وقتلوا
من لم يدفع.

أغراب، حفاة، رثي الملبس، ملتحين، قذري الوجوه، يرمقون
الناس بحقد، واستعلاء قابضين على بنادقهم من وسطها،
متأهبين للقتال. لم ألتفت. كنت أقارن بين هؤلاء وبيننا حينما كنا
في ثمانينيات القرن الماضي نرفع السلاح بوجه الدكتاتور في
الجبال. لم نقتل جندياً أسيراً، بل كنا نطلق سراحه ونخيره بين
البقاء في صفوفنا، أو العودة إلى أهله، أو اللجوء إلى إيران. لم
نبتز أحداً، نعالج مرضى القرى. وكنا نشارك العائلة غرفتها

الوحيدة في القرى التي ليس فيها جوامع، فنقضي ليلتنا نائمين جوارهم.

- ويقول لي. إنهم مثلنا يحلمون بالمساواة.

حشنت خطاي متشوقاً للقاء "أحمد" متخيلاً شكله بعد أكثر من عشرين عاماً:

- ماذا فعل به العراق في غيابي؟!

تساءلت مع نفسي مستعيداً طرفاً من تلك الأيام فحينما تعرفتُ عليه، كنت في محنةٍ مركبةٍ، محتدماً بالثقافة والحوار والكتب، مزدحماً بالأفكار التي أود اختبارها مع الآخرين. خففت علاقاتي برفاق المحلة لاختلاف الأفكار والاهتمامات، فما حملته من معارف القراءة والكتب عاد لا يناسب رفاق طفولتي فتطلعت لعلاقات برجال يكبرونني سناً يفهمون ما أتحدث به وأتطلع إليه، ومن هنا بدأ المأزق. فكوني جميلاً، شكلي فيه لمسة أنوثة أستطيع تشخيصها كلما تصفحت صوراً من تلك الأيام تعرضتُ إلى محاولات اعتداء ممن كان يتصنع الاهتمام بالثقافة والفكر، مما هزّ ثقتي بالمحيط بشكل عام وخلق في نفسي شيئاً من الريب بالآخرين. تعرضتُ إلى تشويه السمعة، وكنت أدرك وقتها طبيعة اللغط الذي يدور حولي، لكنني لم أهتم، ولم أنكمش بل تماديتُ في علاقاتي وتمردتي. في تلك الأيام تعرفت عليه. جمعتنا إعدادية زراعية الديوانية، كنا في المرحلة الأولى وفي الصف نفسه كان يجلس إلى يساري ولا يكف عن التحديق بين الفينة والفينة نحوي بوجه مبتسم طوال المحاضرة. كان يكبرني بسنواتٍ أربع لتأخره في مراحل دراسته الابتدائية والمتوسطة هذا ما سيخبرني به لاحقاً حينما تتداخل علاقتنا ونعود لا يستطع

الواحد منا الكف عن الآخر في ما يشبه الإدمان. في الاستراحة قدم نحوي بينما كنت أهرج وأضحك مع زملائي الجدد، أستطيع في هذه اللحظة رؤيته على الرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً، بقامته الفارعة، ووجهه المدور، وعينيه الواسعتين، ووجنتيه النابتتين، وأنفه المتناغم مع قوة وضخامة القسمات، وشفتيه الغليظتين الشبيهتين بشفتي أفريقي، شكل هو مزيج من مغولي وأفريقي ببشرة بيضاء ناصعة، نضرة. اقترب بمشيته المتأنية وفي قامته تحذب طفيف، كان أنيق الملبس برغم فقر عائلته التي سأتعرف عليها لاحقاً وأصير واحداً منها. وقف على بعد أمتار وأشار نحوي. قطعْتُ الحديث وتوجهتُ إليه. قال:

- نتمشى!

- نعم!

تسكعنا طوال فترة الاستراحة بعيداً عن الطلاب، بين حقول الورد وسياج المدرسة، منغمرين في حديث لا أتذكر تفاصيله، لكنه يدور حول الكتب والثقافة والحياة وكل ما سيكون مشتركاً بيننا في الأيام التالية. صرنا نتغيب عن المحاضرات ونهيم بين حقول الإعدادية الشاسعة الواقعة على ضفة النهر جنوب المدينة. كان رقيقاً، ذا نبرة خافتة، لا يتكلم إلا عند الضرورة. بالمقابل كنتُ ثرثاراً محتشداً بالحوار والأسئلة والماركسية وقيم الثورة والمساواة. كان ينصت طوال الوقت وفي وجهه دهشة من كلامي. أخبرني بأنه يسكن قريباً من شارعنا، تفصل بيننا ساحة كرة قدم ستتحول إلى مقر لميليشيات البعث لاحقاً، فمركز وحدة عسكرية يجاوره جامع بناه "الصرخيون" (وهم مجموعة شيعية ظهرت بعد الاحتلال الأمريكي 2003 يدعي صاحبها أية الله الحسنی الصرخي أنه يلتقي المهدي المنتظر في الخفاء

ويتداول معه شؤون الدنيا ويدعي أنه زوج ابنته للمنتظر الغائب) تجاوزاً في الركن القريب من استدارة مدرسة الفردوس بعد الاحتلال الأمريكي. عدنا نتصاحب في طريقنا إلى البيت من المدرسة، نقطع الكيلومترات الستة مشياً وسط حقول مهجورة، نطفر السواقي الصغيرة، نسير جوار سياج بساتين نخيل "الجلبي" حتى نصل الشارع المؤدي إلى منطقتهم.

تعلقتُ به بشدة، هو كذلك، سنكتشف بوجدنا الفائق لاحقاً بعد توطد العلاقة وصفائها من الشوائب، كنتُ فرحاً به فيها أنذا أعثر أخيراً على صديقٍ لا ينوي بيّ سوءاً، لكن في ظهيرة حارة وبعد أن قطعنا مسافةً في حقول الحلفاء المصفرة. استوقفني جوار ساقية صغيرة. حلق في وجهي بارتباك وبلع ريقه مرات قبل أن يقول:

- أطلب منك فد شي؟!.

هالني اضطراب وجهه واحتقان قسماته، وتردده.

قلت:

- أطلب يا صديقي!

لَبَثَ صامتاً، فتعالى ضجيج الساقية القريبة وخفق أجنحة طيور وعصافير تحلق في سماء الظهيرة. أخذ ينضح بغزارة كمن تورط. حدقتُ إلى عينيه مباشرة. هربَ ناظراً نحو البساتين وامتداد الحقول وبيوت الإسكان القريبة. عاودَ النظر إلى عيني، ثم خفض رأسه ناظراً إلى ما بين قدميه وقال بسرعة:

- أنسوي (بذلي)!

تجمدتُ مصعوقاً كأن أحدهم ضربني وأنا ساهٍ على أم رأسي

ضربةً ماحقةً، فـ (البدلي) باللهجة العراقية تعني أن نتبادل المضاجعة بالتناوب.

ها هو المشهد يرتسم أمامي من جديد وكأنه البارحة وأنا أخوض في فضة الفجر ميمماً صوبه، ها أنذا أرى وجهه المضطرب في الصمت ينضج بغزاره، من جبهته ووجنتيه، فيمسحه بظاهر كفيه منتظراً جوابي بفضول، جعلت أغلي واحتدم في مشاعر مضطربة متناقضة، فقد كنت في أعماق أعماقي أسفاً على خسارته. كم من الوقت قضيناه نحدق بعيني بعض؟! لا أدري، لكنني أتذكر كيف اشتعلت وصرخت به:

- أنت تافه ومُحَط!

كنتُ ألّهت. استدرتُ ومشيت مسرعاً، فأخذ يهرول إلى جانبي:

- أرجوك. بس اسمعني. أرجوك. أرجوك!

لم أبادله كلمةً واحدةً، لم ألتفت نحوه مرةً واحدةً إلى أن وصلتُ بابَ بيتنا التي وجدته نصف موارباً. دلفتُ والتفتُ نحوه كان يقف وفي عينيه توسل ماداً كفيه مردداً:

- اسمعني. اسمعني!

صفعتُ البابَ خلفي كابتاً رغبةً شديدةً في البصاق على وجهه.

فشلتُ كل مساعيه لتوضيح الأمر. جربَ مختلف الوسائل. حاولَ التحدث مباشرةً معي فنقلتُ مقعدي في الصف بعيداً عنه. كتبَ عشرات الوريقات الصغيرة، والرسائل المطولة التي أجدها على كتبي. كنتُ أمزقها على الفور وألقى بها في سلة المزبلة

على مرأى منه. بعثَ بالعديد من الوسطاء الذين لا يعرفون ما جرى بيننا، فلا أنا ولا هو يستطيع البوح بالأمر لذا كان الوسيط يلح مستغرباً قطيعتنا.

لكن ذلك الحال لم يدم طويلاً، فبعدَ أيامٍ خطفني رجال الأمن من مدخل شارعنا بسيارتهم "الفوكس واكن" الوحيدة التي يمتلكونها في ذلك الوقت قبل تأمين النفط. فرملتُ إلى جانبي. نزلَ ثلاثة رجال ضخام الأجساد. أحاطوا بيّ. ودفعوني بقسوةٍ إلى باطنها. قضيتُ ليلتي مرعوباً، لا من الضرب، ولا الشتم، فهذا ما عودتنا عليه العائلة والمدرسة والشارع، لكن من فكرة تجسدتُ وأنا أتأملها في ذلك السن المبكر، في عفنِ غرفةٍ عرضها متر ونصف وطولها متر ونصف جدرانها محفورة بخطوط أسماء وتواريخ، وبقع دم يابس تنتشر في زوايا جدرانها وأرضها. فكرة تجسدت من فعل الخطف من الشارع ووجودي الغريب الذليل في قبو ضيق رأسي متورم، يوجعني جسدي من كل ناحية، مرعوباً ينتظرني المجهول ومزيد من الضرب والتعذيب والإهانة، كل ذلك وأنا وسط مدينتي، والفكرة هي أن من حق الغرباء خطفك من شارع وإيداعك زنزانية ضيقة، وضربك دون أن يستطيع أحدٌ من العائلة، ولا من الجيران، ولا من الأهل، ولا من المدينة أن يخلصك.

مرة واحدة أنزلوني إلى ناصية الشارع لمقابلة أبي الذي راح يكيل اللوم على تورطي بالسياسة التي لا فائدة منها في مشهد أحسسته يمثل، فهو الآخر تورط فيها في مطلع شبابه، أطلقوا سراحي في صبيحة يومٍ شتوي باردٍ، خطوتُ في الشارع المقفر مرتعداً لا من البرد بل من هول فكرة الزنزانة التي ستعاشرني كل العمر في أحلامي وكوابيسي حتى في المنفى. كان ذلك في

شتاء عام 1971. خرجت مهزوزاً من الحياة نفسها، فبينما كنتُ قبل الاعتقال أقاومُ المحيط ومؤامرات الرجال الذين يحاولون اغتصابي متباهياً في نجاحي وصلابتي، وجدت أن في استطاعة رجال الأمن فعل كل شيء في جسدي الموثوق في غرفهم الموحشة والمخيفة. أهتزُّ كياني من الجذور فبتُّ غير واثقٍ من شيء وأنا لم أبلغ السابعة عشرة، دافعاً ثمن تعلقي الشديد بالكتب والقراءات التي ألهمتني وجعلتني أبشر بفكرة العدالة والمساواة وحقوق الفقراء، لزمْتُ البيتَ ليومين خجلاً من نفسي، من أحلامي، وخيال الكتب والروايات، لا أعرف كيف سأواجه الحياة والمحيط، واللحظة تلح عليّ، لحظة ضعفي حينما واجهني وجهاً لوجه من كان مسؤولي الحزبي معترفاً عليّ فصدقتُ مرعوباً أقواله، لم أرَ الشارع طوال أسبوعٍ سجنْتُ فيه نفسي حائراً أبحثُ عن يخفف عني الشعور الموحش شديد الغموض وقتها، لكن حينما ظهرتُ إلى الشارع والمدرسة والمقهى أدهشني الانقلاب الجذري في المدينة، فالجميع عادَ ينظر نحوي باحترامٍ لمستته في الوجوه والنظرات وطبيعة الحديث وكأنني فعلتُ شيئاً جليلاً، حتى أشقياء المدينة المشهورون بشذوذهم وعنفهم وسطوتهم في تلك الأيام التي لم تحكم فيها سلطة "البعث" قبضتها على المجتمع تحولوا إلى سدٍ وقر لي حمايةً كنتُ في أمس الحاجة إليها في وضعي ذاك.

التحول هذا جعلني أستعيد ثقتي بنفسي قليلاً.. قليلاً ليدفعني لاحقاً إلى المغامرة بحياتي، قَبِلْتُ اعتذار أحمد الذي أَقْبَلَ نحوي أول يوم أعاد الدوام فيه، كنتُ على وشك دخول قاعة الدرس حينما عانقتني وأجهشَ باكياً وكأنني غبتُ عنه سنوات، وقتها كان الأمر غامضاً، لكن الآن وأنا على حافة الستين أمسُ مدى

عمق رعب العراقي الذي صنع من لحظة إذلالى الأولى بطولةً وكأنني المنقذ المنتظر. منذ تلك اللحظة أدركت صعوبة فكرة تغيير المحيط ناهيك عن حلم تغيير العالم، لكن ذاك الإدراك كان حساً فقط، هاجساً من الصعب البوح به، حساً خطراً ويخطر نادراً في سني ذاك، ثانوياً برغم عمقه، لكنه لم يتبلور كفكرة ناضجة، لذا كنت أترجح بين الحماس واليأس وأميل إلى الأخير طوال القصة متوقفاً الأسوأ الذي حلّ في هذه الأيام وأنا أخوض في فضة الفجر الذي تسرّبت خيوطه خافتة متغلّلة في جسد الظلام ومرتع طفولتي وصباي وشبابي تتقاتل فيه مليشيات دينية متطرفة. كنت أعبّر جسر المدينة الموصول شارع "السراي" بشارع "سينما الثورة" ماسكاً هويتي بيدي لكثرة نقاط التفتيش في المناطق التي تسيطر عليها الحكومة. في كل نقطة تتكرر النصيحة:

- أستاذ. وين رايح؟ بغداد محترّكة. خطف وتفجيرات ما تخاف على حياتك؟!

لا يعرفون كم مرة مسّني الموت مساً ونجوت، فعدت واثقاً من النجاة مثل مؤمنٍ ببرجِه. أبتسم قائلاً:

- شغله ضرورية!

وخيال أحمد يطوف حولي مع سؤال:

- كيف يبدو الآن؟ وماذا فعلَ به الزمان؟!

أتذكر كيف رجعنا أصدقاء. ليس أصدقاء فحسب، بل أصبحنا لا نكاد نفترق. أحلّ في بيته وقتاً ما أشاء، ويحلّ في بيتي وقتاً ما يشاء. تعرفت على أمه الطيبة التي عاملتني بحنو كحنو أمي. صرت أقضي يوم العطلة جواره وسط سوق الخضار حيث كان

يقف مكان أبيه يبيع الخضرة أيام العطل. في نفس مكان سوق
الخضر القائم الآن في فرع جانبي عريض جوار سوق السمك
القديم. أجلسُ على طبلَةٍ خشبيةٍ ناصيةٍ. أراقبُ حشودَ المتسوقين؛
نسوة بعباءات سود رثة، شابات يتسوقن الحب، رجال متعبين
يبحثون عن الأرخص. كنت أستمتع بالفرجة. سوق الخضار
منفذ النسوة الوحيد لرؤية الشارع والمدينة والتحدث مع الغرباء.
أتلصص عليه وهو يعتمد الإطباق على يدِ الشارية وهو يناولها
البضاعة، وعندما يستلم مبلغها، فتبرق عيناها شهوةً. سألتُهُ كيف
يتجرأ على اللمس، قال: خبرة سوق، من العيون والوجه
والحركة أميز بين الراغبة وغير الراغبة.

- اللمسُ عابِرٌ يشعل ولا يروي!

قلتها فصيحةً، فرد:

- أحسن من أضعف الإيمان!

ويطلق ضحكةً مجلجلةً فقد كان شديدَ الإلحاد، فأعود أمارس
من مقعدي بصمتٍ أضعف الإيمان مكتفياً بمضاجعة العيون؛
عيون تبرق، أخرى تلتهم، أصابع ترتجف تفلت طرفي العباءة
لحظة الاستلام فتضئ النهود بغتة، فنطلُّ على جنة الجسد
المخبوء، على سرِّ أسرارنا، نحلم ونتخيل عريه، ونقضي نصف
الكلام بقية اليوم عنه والنصف الآخر عن السياسة، نطالع كتب
الماركسية ونحلم بيوم الثورة التي ستنتصف كل فقير ومظلوم
وتحقق (وطن حر وشعب سعيد). لم أكن أعرف عن نشاطه
السياسي شيئاً، فقد كان قليلَ البوح كتوماً، فتصورته متصوفاً
متأملاً يفكر في قضيةٍ كبيرة. تفارقنا بعد سنة بسبب رسوبه في
السنة الأولى، ففصل لتجاوز عمره الثامنة عشرة دون إكمال

الإعدادية، وسيق جندياً إجبارياً. قبل أن يسافر إلى الثكنات أوقفني ونحن في مدخل زقاق جامع المدينة الكبير من جهة شارع علاوي الحنطة، وأشار نحو صبية سمراء تحمل كتبها وتمسك طرفي العباءة وتنظر بعينين قلقتين إلى الشارع والناس قائلاً:

- دير بالك عليها! لمن أشوفها يوگع كلبى!

أحطتها عند غيابه في المعسكرات البعيدة بعنايتي الفائقة، بحيث عدتُ أجلس ظهيرة كل يوم في مقهى "الضويري" بالجديدة في انتظار أوبتها من المدرسة. وشيئاً فشيئاً راققت لي الصبية، فتوهمت نفسي عاشقاً، وجهدتُ كي أكلّمها. كانت طالبة في الصف الرابع الثانوي، من عائلة فقيرة. تعيش لدى أختها الكبيرة المتزوجة من تاجر قماش، بيتهم جوار مبنى التجنيد القديم. لاحقتها في كل مكان. تجدني كل صباح عند ذهابها إلى المدرسة وفي الظهيرة عند عودتها، لازمتُ مدخل زقاقهم، ملأتُ دفترأ من مئة صفحة، بتفاصيل مؤرخة بالساعة واليوم والشهر عن لحظات الانتظار مع وصف لمشاعري ووصف جمالها. كان بابها موصداً. وفي مساء يوم كانت تزور أختاً أخرى لها، متزوجة في شارع "حسين عطشه" في محلة الجديدة. وفي زقاق ضيق لا مخرج له يؤدي إلى بيت أختها حصرتها في الظلام وسلمتها الدفتر عنوة. أمسكته بأصابع غضة مرتجفة من اقتحامي المباغت، ابتعدت منتشياً، وأنا أتخيلها مبحرة في يومياتي، كنتُ أعول على دفترى مقدراً بأنه سيجعلها تنتبه لي! إذ كانت ذات سحر وجاذبية خاصة جعلتها محط أنظار الشباب، أثمر مسعاي، في أول إجازة له سألني عنها، كدتُ أنفجر ضاحكاً، لكنني تماكنت نفسي بعناء مكثفاً ببسمة لا

أستطيع أن أغلبها متوجساً من رد فعله وهو يلح قائلاً:

- أكو شيء.

فأطلقت ضحكة قصيرة جعلته يتوسل:

- الله يخليك. الله يخليك حبيب خل أعرّف القصة!

كنا نتمشى على ضفة النهر من جهة صوب الشامية متجهين نحو جسرهما المعلق. دسست يدي اليمنى في جيب بنطالي وناولته رسالتها الأولى قائلاً:

- وهذي رسالة منها!

تسمّر جامداً. لمعت عيناه، أحسست بكيانه يهتز من الدهشة وخاطر أن الورقة التي يمسكها بين أصابعه منها. تمالك نفسه وسألني:

- لي. لي!

كان يغرز سبابة كفه الأيمن في صدره غير مصدق، مردفاً:

- أنت صديق عظيم!

كنت أحبس ضحكاً مجنوناً يصل ويجول هازاً جسدي، مردداً:

- افتحها. افتحها!

أتذكر تفاصيل تلك اللحظة بوضوح، أصابعه الطويلة المرتجة تباعد حافتي الورقة المدرسية المخططة، خلفه بستان نخيل كان وقتها يحاذي روضة الأطفال الوحيدة في المدينة التي حولها الحرس القومي المليشيا الأولى لحزب البعث إلى معتقل تعذيب في 8 شباط 1963، قرص الشمس الأحمر يهبّ ملامساً

هامات النخيل. الرسالة مكثفة بنصف صفحة تنتهي بأبيات أبودية عن لوعة الحب والبعد. كانت عيناه الواسعتان تزدادان توقداً واتساعاً كلما نزلتا مع الأسطر. قرأ الرسالة مرات غير مصدق، ثم رفع وجهه الذي شَحَبَ بغتة وبدأ يتصبب عرقاً. فالأسطر تتغزل بي وتنتهي برجاء أن لا نلتقي في شارع بل في مكان أمين، غرفة في بيت بعيدا عن الرقباء كي نمد الوصال على حد تعبيرها. لم يستمر الأمر إلا دقيقة، ثم انفجر ضاحكاً، تهالكتنا على الرصيف من نوبة ضحكٍ عاصفة. وعندما تمالكنا أنفسنا، نهضنا. أقترَبَ مني بوجهٍ فيه دهشة وحب وعانقتني بشدة كما فعل حينما تصالحنا مررداً:

- ولك أنت أجمل صديق وقي بالدنيا... خرب عرضك! ...
خرب عرضك... يا أجمل سافل!

ستصبح قصة الصبية نادرة علاقتنا، فكلما يثار موضوع حول وفاء الصديق في جلسة مقهى أو جلسة شرب في نادي الموظفين يعيد تفاصيلها ساخراً من شدة وفائي. سيتتبع علاقتي بها طوال خدمته العسكرية، لم أبخل عليه بتفاصيل القبل والعناق واللمس معها في غرف بيوت أقرباء تكون فارغة بالمصادفات التي لا نفوتها بتاتاً، العلاقة التي ندمتُ عليها، ولم أزل أشعر بالإثم، لأن الصبية تعلقَت بي وظلتُ بينما هربت منها مكتشفاً وهمية مشاعري.

أيقظني ضوء سيارة قادمة من طرف الشارع، فانتبهتُ إلى الفجر وهو يُعْري الأبنية القديمة، فاضحاً أكوامَ القمامة المكدسة على الأرصفة وعرض الشارع، قطعان الكلاب تنبش فيها، رجال الشرطة متأهبين في تقاطعات الطرق، عبرت سينما "الثورة" خلف الشارع إلى يميني بفرعين بيت أخت الصبية

السمراء التي أشم الآن رائحة بشرتها الحارة مصحوباً بأنفاسها
اللاهثة وهي شبه عارية على صدري في غرفة معتمة:

- أين هي الآن؟!.

انبثق السؤال من أعماقي. وودت لو أجدها وأعانقها من جديد
لأمسح حزنها والشجن الذي سببته لها. حادثني السيارة ومدّ
السائق رأسه قائلاً:

- استاد... تكسي!

- إلى كراج بغداد!

جلستُ إلى جانبه، حذرتني من السفر، وعلق:

- استاد يبين أنت جاي من الخارج!

- لا!

نظر نحوي بريية فأضفت

- خوية أني من ملحان حي العصري!

قلتها بثقة نافياً أثر نصيحة أخوتي بأن لا أقول لأحد أبداً بأنني
أعيش في الخارج كي لا يطمعون بي. خف الريب في نظراته
قليلاً ثم بدأ يشكو من غياب سلطة الدولة وعبث الميلشيات
والفساد وتغير أحوال العراقيين راوياً قصص النهب والسلب
والحرق واختلاط الحابل بالنابل، ثم خاطبني قبل أن أترجّل:

- أستاذ وداعتك احنه العراقيين لو عبيد نخع ونجسس على
بعضنا لو همج. ننهج ونسلب! أي أكو شعب ييوگ رحلات
المدارس ويحرگ الدوائر بالانتفاضة بالواحد والتسعين وبعد
السقوط بالـ 2003!

- !....

أردف بينما كنت أقتلُ جسدي خارج السيارة:
- والنوبة طلعت قصة الميليشيات. وداعتك أستاذ لا إسلام ولا
صدر ولا بطيخ هاذي عصابات قتل وسلب!

* * *

قلت له بالفصحى:

- أتريد أن تضاجع امرأة؟!.

كنا نجلس عصراً في مقهى على ضفةِ النهر. حلقَ نحوي
بعينين اتسعتا دهشةً. قَرَّبَ رأسه ناحيتي، وأدنى أذنه حتى كادت
تلاصق شفتيّ وهمسَ طالباً تكرر سؤالي. أعدتُ السؤالَ باللهجة
العراقية الفجة. تلعنم، قبل أن ينهال بالأسئلة؛ كيف؟ ... أين؟
متى؟ كم السعر؟ وما بين أدوات الاستفهام يردد بذهول ونشوة:

- يعني صدگ!

كان ذلك حتماً شبه مستحيل طالما تخيلناه، لم نكن نعرف
أماكن بغاء في المدينة، ولم نذهب إلى مضارب الغجر في
"الفوار" على طريق عفك حيث يباع الجنس والطرب وجلسات
اللهو لسببين الأول حرصنا على سمعتنا كيساريين، والثاني لم
يكن لدينا مالاً، فانحصرت أحلامنا بطالبات الثانوية والرسائل
وتراسل العيون في الشارع، إلى أن أوقعتُ صبيته السمرء في
شباكي. في اللحظة التي قدّمتُ فيها دعوتي لم أكن قد التقيتُ بها
على أفراد في غرفة.

- يعني صدگ. راح أضوگه!

- أي. باجر الظهر!

- سولف لي القصة، من دلاك؟!

- لا تسأل؟!

قلتها بحزمٍ وخبت موحياً بأن لدي قدرات لا يعرفها، بينما الأمر جرى ببساطةٍ. ففي مدخل شارعنا في "الحي العصري" جوار مخبز حاج جاسم مقهى لمربي الطيور رواده من الموظفين والعمال، سواق، قصابين، نجارين، حدادين، حمالين، كانوا يكونون لي وداً وإعجاباً خاصين بعد إطلاق سراجي. والمقهى إلجئ إليه عند عودتي مساءً من مقاهي المدينة. أبقى حتى ساعة متأخرة من الليل، كانوا قبل انتصاف الليل يسدلون الباب المتحرك حتى حافة العتبة، ويجلسون حول طاولة جوار قفص الطيور الكبير، ليلعبوا القمار بمبالغ بسيطة. كان الجو يأسرني. ليلٌ وطيورٌ تغفو في أعشاشها داخل القفص، والضوء يقتصر على مصباحٍ واحدٍ يتدلى من السقف الخفيض فوق طاولة اللعب، والعيون المشدودة إلى أرقام قطع الدمينو، والمتفرسة بوجوه بعضها البعض، في محاولة لتخمين ما يضمرة اللاعب، من دعائي إلى تلك الجلسات الخاصة جارنا السائق "ناظم" الذي أبدى بيّ اهتماماً شديداً عقب خروجي من المعتقل. كان يكبرني بعشرة أعوام. أنا الآخر تعلقتُ به عندما لمست به شخصية غريبة الأطوار، طيب القلب، كريم، لا يكذب أبداً، مشدوداً لليسار، عمل فترة قصيرة مع القيادة المركزية للحزب الشيوعي قبل انهيار "عزيز الحاج" وظهوره على شاشة التلفزيون في 1969، الذي كان أتعس يوم في حياته كما كان يردد أمامي عشرات المرات، فظّل "ناظم" يحلم بقيام حركة كفاح مسلح جديدة تكنس البعث الذي يكن له احتقاراً مطلقاً. في

الوقت نفسه يربي الطيور، ويلعب القمار على الخفيف وكان كلما يكسب مبلغاً بسيطاً ينسحب غير آبه لغضب اللاعبين، كما أنه مولع بالعاهرات، ويعرف غالبية الأماكن السرية لبيع الجنس المنتشرة في أكثر المحلات الشعبية فقراً. في ليلة من ليالي المقهى كسب مبلغاً والتفت نحوي، وهمس:

- نايمٌ ويه وحده لو بعدك؟!.

- لا. لم أضاجع!

كنتُ أتعمد الكلام بالفصحى، فيشعر هو بالفخر رامقاً الملتفين حول المنضدة بعينين منتشيتين متعالتين قبل أن يقرب فمه من أذني ويقول بصوت خافت جداً:

- باجر الظهر آخذك؟! نلتقي قبل الأذان بنصف ساعة!

وعندما سألتها؛ لِمَ في هذا الوقت والجو حار؟ أجاب؛ أن الناس تنشغل بالصلاة ووقت الغداء فتكون الشوارع فارغة ونستطيع الدخول بسهولة.

كان يوم الجمعة، الشمس ساطعة تقف فوق رأسينا تصب حمماً، أقبل نحوي وتفحصني، ثم قال:

- جيب سچينه وضمها جوه الثوب!

رمقته باستغراب دون تعليق فأضاف:

- احتياط!

علقت له مستغرباً ومستكراً:

- ناظم راح أقاتل لو أضاجع فهمني؟!.

تفحصني صامتاً، فأضفت:

- ما أروح!

قلتها مهدداً. أمسكني من ذراعي، وسحبني بود قائلاً:

- بلاياها!

وراح يطبب على ظهري. توجهنا إلى طرف المدينة من جهة "حي الجمهوري". كنت متشوقاً لأول مغامرة، أهتف مع نفسي بغبطة:

- أخيراً سأمارس الجنس بشكل كامل مع امرأة!

كان يتقدمني بخطوات. قطعنا شوارع غير مبلطة، متربة، وسخة، إلى أن ولجنا أزقة فقيرة، بيوتها طينية، أبوابها متضععة، وعند مدخل زقاق شديد الضيق خالٍ أشار نحو باب موارب قائلاً:

- أدفع الباب وأدخل!

داهمني الريب فرفضت على الفور قائلاً:

- أدخل أنت أولاً!

خزرنى بعينين متذمرتتين. هزّ ذراعه بسخرية، وراح يتمتم بكلامٍ خافتٍ سمعت طرفاً منه:

- سياسي هه يا الله. يخاف. يا الله يخاف!

وابتعد مقترباً من حائط الطين الواطئ. دفع الباب ودخل. بعد دقائق لحقتُ به. الباب يفضي إلى باحة صغيرة متربة تنتهي بغرفتين من طين متجاورتين تشتركان بحائط واحدة، ثمة طفلة في السادسة تجلس في ظل الجدار جوار عتبة الغرفة المواجهة للباب، تقلب بيديها ورق لعب. ثوبها رث ممزق عند الكتف

والخاصرة، يداها مسودتان بأظافر طويلة ينحشر تحتها الوسخ
تحملق نحوي ببلاهة، وناظم يتكلم مع احدٍ لم أتبين ملامحه
الضائعة في عتمة غرفة بلا نوافذ، ثم ظهرت الكتلة فتبين أنها
امراة نحيفة في أواخر الثلاثينات أو هكذا بدت لي وقتها وأنا في
السابعة عشرة، ترتدي ثوباً أسودَ رث يصل حتى كاحليها، وتلف
رأسها بعصابة سوداء. حنكها موشوم بوشم أخضر ينزل من
حافة الشفة السفلى على هيئة خط رفيع ثم يتوسع ليشمل الحنك
كله ويضيع تحته، وبين حاجبيها الكثيفين وشمت نقطة زرقاء
صغيرة، سقطت عيناها الصغيرتان برموشها الذابلة في حفرتين.
تحت الشمس بدت ليست ناحلة فحسب بل شديدة الهزال، ببشرةٍ
شاحبةٍ كوجهٍ ميت. لبستَ عباءتها وخرجت، فبين لي ناظم أنها
قوادة تأتي بجاراتها الفقيرات ممن يتمكن من الزوغان من البيت
ليتقاسمن ثمن المضاجعة معها لسد الرمق، قال لي بينما كنا
ننتظر رجوعها:

- أنت وحظك!

ولما لزمت الصمت رمقني بعينين فيهما ظلال سخرية خفيفة
قبل أن يسألني:

- إذا ما لكّت تنام وياها؟!.

ارتعبت من فكرة النوم مع هذا الجسد الشبح، لزمت الصمت
بينما راح يشرح محاسن وأفضال قدومنا بطريقة فريدة تناسب
أفكاره وبيئة حياته التي وجدتها وقتها مثيرة للدهشة:

- احنه ثوربين ومثل ما تشوف عينك هذي العوائل فقيرة ما
عدهم يلبسون، إذا لزمنا السلطة راح ننقذهم، وهذا شي بعيد مثل
الحلم، لكن لمنْ نزورهم هم نرتاح من سيمْ جسمنا وهم نساعدهم.

على الأقل يشترتون خبز!

لم يكن حظي سيئاً. رَجَعْتُ بصحبة امرأة متوسطة العمر ملفوفة بعباءة لم تكف منذ لحظة دخولها عن التحديق نحوي والابتسام. دخلتُ الغرفة معها. سدّنا الباب وبصعوبة أقنعتها بالتعري الكامل. كانت تنخرط بنوباتٍ ضحكٍ متواصلةٍ وأنا أقبل ساقبها البيضاوين الممتلئتين وبطنها الضامرة ونهديها المتماسكين، بينما تمرر أصابعها على بشرة ظهري الطرية مستمرة بنوبات الضحك وأنا أخوض فيها.

سيأخذني إلى عشرات البيوت المنتشرة في المناطق الفقيرة. سأرى رجالاً يرتدون ملابس الريف الأنيقة ويضعون العقال الغليظ على رؤوسهم، يجلسون على فراش وسط ساحات البيوت الفقيرة يمستّدون بأطراف أصابعهم شواربهم الكثّة ويتسلمون ثمن المضاجعات. عالم سري، لا يبعد عن بيتنا سوى عشرات الأمتار لم أكن أعلم به.

سأصعبه مرةً إلى بغداد في سيارة دائرة الإحصاء والتخطيط التي يعمل بها سائقاً، كان يتركها في باب المؤسسة، ونذهب في نزهة. مرةً ركبنا من ساحة الميدان الحافلة رقم 4 التي كانت تربط وقتها ساحة الميدان بساحة النصر عبر شارع الرشيد. في زحمة الحافلة رأيته يطبق من الخلف على تلميذة جامعة شابة سافرة جميلة تقف أمامه ويدها كتبها المدرسية، كان الزحام من الشدة بحيث لا تستطيع التملص منه، فراح يمعن في حشر جسده بها وكأنه يريد الولوج فيها، لبثتُ أراقب قسماته التي تصاعدت النشوة فيها، احتدم، سارعتُ بالنهوض تاركاً لها مقعدي، فرمقني بعينين احمرتا غضباً، وعندما ترجلنا من الحافلة راح يلعن ديني، تصنعت البلاهة كاتماً ضحكتي، ومستمتعاً بملاحه

المخذولة لفشله في الوصول إلى الذروة التي كان على وشكها
كما أخبرني. أتصنع الجد وأكيل له اللوم:

- ناظم عيب. هذي مو عاهرة! طالبة جامعة!

سنتصاحب في سنوات دراستي الإعدادية قبل دخولي الجامعة
وانتقالي للعيش في بغداد، سنلتقي كل ليلة تقريباً في مقهى
الطيور. سنتعرف على شخص غريب، أسمر طويل أنيق يسكن
في بيت أقرباء له في الحي العصري يدعى "عباس الناصري"
يجمعنا هوى يساري متطرف وعداء للجبهة الوطنية التي أعلنت
بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي
في 17 تموز 1973. سيحاول معنا لتشكيل خلية أولية للقيادة
المركزية في الديوانية. نرتاب بأمره. أبحث وأتقصى من صديق
قريب جداً من هذا التنظيم. فأسر لي بأن "الناصرى" كان طالبا
في كلية الإدارة والاقتصاد في بغداد، من قادة اضرابات جامعة
بغداد الشهيرة في نهاية ستينيات القرن المنصرم. ومسئول مالية
القيادة المركزية. وعند انهيارها اعتقل وأودع في قصر النهاية،
والذي أنقذه شخص يدعى "سعد" كان بالإضافة إلى كونه رفيقه
ويسكن معه شقة في الوزيرية وسط بغداد، صديقه الشخصي
جداً. "سعد" منحه "ناظم كزار" المشرف على معتقل قصر
النهاية وقتها، رتبة ضابط على الفور لتعاونه، فكلّف بالتحقيق
مع رفاقه القدامى:

- يقال إنهم أتوا به معصوب العينين. أجلسوه على الأرض
أمام "سعد" ورفعوا قطعة القماش. تجمد عباس الناصري
مذهولاً وهو في مواجهة أعزّ صديق. لم يستمر الأمر إلا دقائق.
إذ أعلن "سعد" أن لا علاقة للناصرى بالتنظيم. فأطلق سراحه
على الفور. ومنذ ذلك التاريخ ينتقل ضائعاً، شبه متخفٍ. رفضنا

أنا وناظم فكرة تكوين نواة خلية ثورية في المدينة خشيةً.

أول يوم وصلت الديوانية. سألت عن "ناظم". أخبرني أخوه الصغير؛ أنه أشتراك في انتفاضة آذار 1991 وكان ينقل المؤن والمقاتلين، ويسحب الجرحى والهاربين إلى بادية السماوة كي يعبروا الحدود إلى السعودية، وأثناء عودته إلى المدينة لنقل من تبقى ألقى "الحرس الجمهوري" القبض عليه. حملوه إلى سجن "الرضوانية" ببغداد وبعد ستة أشهر أطلقوه ضامراً صامتاً ليموت بعد أسبوع.

* * *

هبط المساء على النهر والضفة، وكراسي المقهى ووجهينا. كنا نجلس متقابلين نلعب الشطرنج. لم يحرك جندياً أو حصاناً أو فيلاً بل ماتت ذراعاه وبقي لسانه يلهج بالأسئلة عن الكيفية التي استطعت بها التعرف على هذه الأمكنة وقطف تلك المباحج. وكما خططت كي أضفي على نفسي وقتها قدرات سحرية لا يتمكن منها على الرغم من أنه يكبرني سناً وتجربةً ويحتك بالنساء في السوق كلما حلّ محلّ أبيه في دكان الخضرة. حسمتُ الأمر قائلاً:

- كافي أسئلة. غداً قبل الأذان بنصف ساعة أنتظرك قرب جامع حي العصري!

هزّ رأسه متعجباً هذه المرة من إعراضي عن القص كما اعتاد من ثرثار مثلي، كنت أخطو أولى خطواتي في معرفة إدارة نفسي والعلاقات مفتقداً براءة ستئأني عني كل العمر بعيداً. وجدته ينتظرني قبل الموعد بنصف ساعة كما أخبرني،

مرتدياً أكثر ملابسهِ أنيقةً، حالقاً لحيتهِ، مقلماً شواربه الغليظة، يُشَمُّ منه عطر الكولونيا الرخيصة من مسافة أمتار.

- كأنك ذاهب إلى حفلة عرس!

علقتُ ساخراً بالفصحى، وأنا أفكر بالبيت الفقير القذر، فهو الوحيد الذي لا رجل فيه من بين كل البيوت التي زرتها مع "ناظم"، ولم أجروْ على زيارة بيت غيره، كنت أسرح متصوراً أخيلة "أحمد" في تلك اللحظة، من المؤكد أنه يتخيل مثلما تخيلت؛ مكان وثير وفراش وامرأة بعطر وغواية كما أطلع وأشاهد في الروايات والقصص والأفلام. خضنا في شمس الظهيرة الحارقة في أزقةٍ متربةٍ بعيدةٍ، وكنتُ مستمتعاً أختلس النظر إلى خطواته النشطة، وملامحه المنتشية والمتشوقة لما تضمّره اللحظات القادمة، فقد كان يثق بيّ ثقة مطلقة برغم قصتي مع طالبة الإعدادية التي أمّني عليها، وكنتُ متشوقاً أيضاً لرؤية ردة فعله إزاء عملية بيع الجنس في بيئة فقيرة. لم أقل له أذهب وأدفع تلك الباب وسألق بك كما حاول "ناظم" معي، بل صاحبتُهُ ودخلتُ قبله. وجدتُ المشهد نفسه وكأنه تجمد منذ زيارتي الأولى؛ الطفلة الصغيرة تجلس في نفس مكانها مستظلة بفيء الحائط الطيني تقلب ورق اللعب بملابسها الرثة. والمرأة الطويلة الناحلة الشاحبة الملفوفة بثوب أسود تقف أمام عتبة باب الغرفة التي على اليمين. رحبت بنا. واعتذرت قائلة:

- كلهنّ بالزيارة. ما تدرون بعد يومين أربعينية الحسين!

حبستُ ضحكةً صاحبةً هزّت جسدي بصمت من حظ "أحمد" العاثر.

- والحل؟!.

سألتهـا.

- ما أدري. بس إذا متوازي فَأَنِّي حَاضِرَة!

التفتُ فوجدته جامداً يحملق بصمت غير مستوعبٍ حوارنا. يبدو أنه لم يفهم شيئاً فشتان ما بين مخيلة المكان قبل دخولنا وبين ما يراه. هذا ما حدث معي بالضبط. وهذا الإحساس كتمته عن "ناظم"، قلت له:

- ماكو غيرها تريد أتنام وياها؟!.

أشّر برأسه موافقاً. دخلا الغرفة وسدا الباب فبقيت تحت الشمس أحدث الطفلة الصغيرة التي وجدتها ذكية تفهم ما يجري في البيت لكنها تتصنع الغباء، فليس أمامها غير ذلك كي تستمر في العيش. ولا أدري هل كانت بنت القوادة أو بنت غيرها؟! لم تمر أكثر من عشر دقائق حتى خرج "أحمد" بوجهٍ مشمئز. في طريق عودتنا أوقفني وركض نحو جدار بيت طيني مهوَّعاً، وركع على ركبتيه وراح يتقيأ. ثم انتصب بإعياء وأقترب مني قائلاً:

- هو هذا (....) الذي قضينا عمرنا نحلم به! هو هذا!

مطلياً بفضة الفجر عبرتُ الشارع العريض الخاوي من جهة مخازن الحبوب إلى كراج واسع تنطلق منه السيارات إلى مدن العراق، فتشني في المدخل جندي يتشاءب، متلمساً جسدي من كتفي حتى قدمي، لم أكن أحمل حقيبة ولا كتاب كما كنت معتاداً في السفر. كنت أحمل هذا الفيض المتدفق من ألق أيام لَقْتُ نفسها وغابت في تاريخ شخصي منسي جداً، أحملُ كتاب صديقي "أحمد" الثقيل متتبِعاً حكايتنا النابضة في الأحشاء، والطافحة بكل تفاصيلها أمامي في غبطة هذا الفجر الموحش

وكأنني أعيشها حياةً من جديد، وبعنفوان تلك الأيام نفسه.

- هل حوّلني المنفى إلى مجرد حالم مسكين يعيش الزمن كما يرسمه لا كما هو في الواقع؟!
- هل. يا للمحنة؟!

أخطو مثل مخدرٍ نحو مظلات الساحة العالية حيث تقف السيارات بانتظار ركابها، الساحة شبه خالية، لا أحد من السواق ينادي فليس ثمة ركّاب.

- الإرهابين الأنذال كقطعوا رزقنا!

انتبهتُ إلى رجلٍ قصير القامة يقفُ إلى جوار سيارة أجرة صغيرة ويوجه كلامه نحوي:
- أستاذ... بغداد!

أومأتُ برأسي. كان يرتدي دشداشة بيضاء نظيفة، تفحصني طويلاً بعينين جاحظتين تبرزان من وجه مغضن لوحته الشمس قبل أن ينهد شاكياً من الجميع، الأميركيان، والحكومة، جهل الناس والميلشيات التي لا يدري أحد كيف ظهرت وراحت تقتل الناس باسم الدين، من جيش محمد إلى جيش المهدي، وختم كلامه قائلاً:

- الله يحفظنه من اليوسفية!، والله، والله يا أستاذ لو ما أولادي العشرة فلا طلعتُ على طريق الموت هذا!

لم أكن راغباً بالكلام، مشغولاً بصفحات "أحمد"، أود الخلوة والإبحار في خصم تلك الأيام التي كنا نظن فيها أننا قادرون على تغيير العالم. فتمردنا على الأهل والمجتمع ورحنا نسخرُ من كل شيء؛ التقاليد والدين والأعراف المنافية لحق الإنسان،

وكان "أحمد" ملحداً، يجادل أباه الشيوعي المتعصب الفقير هازئاً بالمعممين والحوزة والمرجعية ناكراً وجود الله، فيشتعل أبوه غضباً ويطرده من البيت، فيلجأ لديّ أياماً نقضها ساهرين حتى الصباح، كان ذلك قبل أن يرسب في المدرسة ويساق جندياً.

في ليلة من تلك الليالي غادرنا المقهى، ورحنا في جولة تسكع في أرجاء المدينة إلى أن قادتنا أقدامنا إلى رصيف محطة القطار التي أستطيع رؤيتها الآن في فضاء الفجر من وقفتي جنب سيارة الأجرة، عبر الشارع العريض خلف سايلو الحبوب المقابل، كنا في حالة نشوة نوذ الطيران إلى مكان غير مدينتنا لمعانقة فقراء الأرض المجهولين، مفعمين بروح الأممية التي رضعناها من الكتب الماركسية وحكايات المناضلين الأكبر سناً الذين يقصونها علينا في المقاهي. وقتها لم نكن قد سافرنا خارج حدود "الديوانية". وفي لحظة جنون قال بصوت عالٍ أقرب إلى الصراخ:

- لنشرد بالقطار!

صرختُ بنشوة:

- هيا بنا... هيا بنا!

كان قطار حمولة يقترب ببطء قادماً من بغداد في طريقة إلى البصرة، توقف على بعد أمتار من وقفتنا، فهتف بصوت عالٍ:

- هيا إلى الحرية!

وصعدنا عربةً من عرباته المكشوفة. حوض حديدي فارغ سياجة قصير. تحرّك القطار ببطء وعوى، فصرخنا من بهجة مبهمّة وضجيج المحرك يهدر بصمت الليل. لم نهداً، نصرخ

ونصرخ ومصابيح المحطة والمدينة تتضاءل متحوّلةً إلى نقاطٍ
تومض وتنطفئ إلى أن غطست بالظلام، كان القمر هلالاً شاحباً
يمنح الخلاء ظلاماً أقل كثافة من حلقة غابات النخيل المنتشرة
على جانبي الطريق، لم نكف عن الدوران في مساحة حوض
العربة، والصراخ في نشوة راحت تتصاعد مع نسيمات الليل
وإيقاع المحرك... جك... جك... وعناق فكرة الهرب إلى
المجهول، إلى فقراء العالم، وبدأنا ننشد صارخين بوجه الليل
وضجيج العربات والظلام الفسيح:

(لبناء عالم جديد ولقبر مشعلي الحروب

في هدى أكتوبر العظيم سائراً موكب الشعوب)

كنا نصرخ بحماس ونشوة... نصرخ بالكلمات الحاملة فيضيع
صراخنا في ضجة القطار والظلام والبرية الممتدة على يميننا
حتى الحدود السعودية، نقطع النشيد ونطلق أصوات مبهمة،
نرقص، ندور، نهتف:

- المجد للطبقة العاملة

- المجد للفلاحين!

تدمع عيوننا، نكاد نبكي حماسةً، ونروح نغني أغنية أممية
أخرى:

- أنا... أنا

يا سيدي أسود كالليل... كأعماق أفريقيا

كأعماق أفريقيا

أنا... أنا

جندي أحمل في يميني سفر جيفارا
وفي يساري أقمار كاغارين.
أقمار كاغارين.

لا لالا... لالي لالي لالي!

جنون والقطار يَمُخِرُ بنا عباب الليل والظلام والحقول
والنواحي والقرى الصغيرة بنقاط ضوئها الشاحبة التي سرعان
ما تحتضر كلما ابتعد القطار البطيء. لم نصحُ من النشوة إلا
حينما توقف القطار لنجد أنفسنا في محطة مدينة "السموة"
الصغيرة. فسألنا بعضنا:

- إلى أين نذهب؟!

تلاشى الحماس وتبدد الحلم. ليس لدينا ثمن تذكرة العودة إلى
"الديوانية"، جعلنا نفكر بوسيلة للرجوع، لم نجد بداً من انتظار
قطار بضائع آخر يصعد من البصرة، في ظهيرة اليوم التالي
تسللنا خارج المحطة، وقفزنا عندما تحرك القطار إلى عربة
فارغة مفتوحة مغافلين الحارس، جائعين، منهكين، حالمين
برغيف خبر وغفوة.

لم أزل أقطع مسافة الخمسين متراً بين سيارة الأجرة وباب
المحطة ذهاباً وإياباً، منتشياً بتلك التفاصيل المنسية التي نهضت
مع قيام شمس الصباح من رقدها، فبان ربع قرصها اللاهث
حمرة، في أفق الشرق، من خلف البيوت الناصية. تلمستُ
قصاصة الورق الصغيرة الراقدة في جيب قميصي، التي بعثها
مع شخص قريب لي، فـ "أحمد" كما أخبروني انقطعت علاقته
بالديوانية نهائياً منذ أكثر من ستة وعشرين عاماً، لذا فشلت كل

محاولاتي في العثور على خيط يدلني عليه. قرعت باب بيتهم القديم فتبين أنهم باعوه من زمان. سألتُ، فسمعتُ قصصاً متضاربة لا تشبه بعضها البعض، مما زاد الأمر غموضاً. قصص عن فقرهم المدقع، وزواج أخته الفاشلين، الصغيرة ذات الوجه البريء بشعرها الأشقر الطويل، تزوجها عامل شيوعي هرب في حملة 1978 ولم يعد، تاركاً طفلاً لا يناهز الثالثة من عمره، اضطرت إلى العمل كعاملة بمصنع النسيج، ولما يُست من عودة زوجها الذي نسيها تماماً تزوجت ثانية من صديق يعمل في استعلامات المستشفى الجمهوري القديم، ولم يدم الزواج الثاني غير أشهر إذ أعتقل الزوج الثاني وأعدم وسلمت جثته... فصرخت في اللطم:

- يا ربي أش لون حظ عندي!

ولاكتها الألسن في بيئة نميّة وتشويه لا يستطع السامع تصديق شيء مما يحكى وينم، أما الكبيرة السمرء المليئة واللاهثة فقد تزوجها أخ الزوج الأول وكان عسكرياً مطوعاً أشيع كونه شاذاً، كنتُ وقت قصة زواج أخته الأول موجوداً في المدينة، ولمتْهُ على تلك الزيجتين، فبكى وعانقني قائلاً:

- ما بيدي شيء!

زوج الكبيرة سيقتل طعنًا بالسكاكين في ظروف غامضة على طريق غجر الفوار. التبستُ الأحوال، ولم يبق للعائلة معيل، فأخ "أحمد" الصغير قُتِل هو الآخر في جبهة الحرب مع إيران، وأحمد انتقل إلى بغداد، والأم ماتت كمدأ، والأختان العاملتان في معمل النسيج لاكتهما الألسن، نمّ لي واحد من أقربائه هنا في الدنمرك قبل سفري:

- صاحبك شرد... ما يگدر لو يگتل وتخرّب حياته لو يشرّد!
ولا واحد يعرف عنوانه!

لم أعلق بشيء، فأنا تركته يعيش في بغداد ولم يهرب حسب قصّة النمام. الجميع الذين طرقت أبوابهم ينتظرون مني رأياً، فما جرى في غيابي على أعزّ أصحابي هو ما أبحث عنه الآن مغامراً بحياتي وسط أجواء القتل الشبيه بالعبث، لكنني الوحيد الذي يبرر موقفه في الهروب في ظل أوضاع لا يستطيع فيها شيئاً، قائلاً مع نفسي:

- حسناً فعَل!

وقبل أيام وقع بيدي المفتاح حينما زارني شاب من أقربائي، طويل وسيم، أنيق قدم نفسه قائلاً:

- عمي أني ابن أستاذ هاشم!

وأبوه يمّت لي بقرابة درّسنا مادة الأحياء في إعدادية الزراعة. صار صديقّ لنا، كان معجباً بميولنا اليسارية، لكنه لم يتورط طوال حياته بالسياسة أبداً. ويشتهر في المدينة بجمعه الكتب إذ كان يصرف نصف راتبه في شرائها، لكنه لا يقرأ إلا مجلات خفيفة كالمدار السوفيتية، والمصور المصرية. دعانا أنا وأحمد إلى زيارته في بيته، فوقفنا وسط غرفة كبيرة ينظر واحدنا بوجه الآخر في دهشة من جدرانها الأربعة، بأدراج كتبها المرتبة والمرقمة. رفض بشدّة إعارتنا أي كتاب مردداً؛ الكتاب لا يعار وسرقته حلال لا يستطيع صاحبه المطالبة به، لذا لا أعير كتاباً. وكان يصطحبنا أحياناً في طريق عودتنا من إعدادية الزراعة التي تبعد أربعة كيلومترات ويقص علينا طوال

الطريق قصصاً خرافيةً عن قدراته الهائلة ومناقبه؛ كيف لاحقه فحل جاموس وحصره بين الشط وجدار بستان الجلبى، فأضطر إلى مسكه من قرنيه، وفرّه عدة مرات قبل قذفه إلى النهر، يروي مثل هذه القدرات الخارقة بثقة مؤشراً بيده وقسماته محتقنة فرط الانفعال. كنا نمسك أنفسنا بعناء كي لا ننفجر ضحكاً، فتكون قصصه العجيبة حديثاً المدينة إذ كنا نشيعها في المقاهي. زارني أستاذنا في زيارتي الأولى إلى العراق عقب الاحتلال بأشهر حاملاً كيس بوله ناحلاً يتكلم بعناء. حضنته وبكىنا. وبعدها بأيام ساكون حاضراً في مقبرة النجف، واقفا جوار دكة غسل الموتى ورجل كهل ملتحي يغسل جسده العاري الهامد بسلام.

عانقني ابنه وجلسنا نتحاور فعرفت أنه يدرس "مادة الديمقراطية" في دورات تفتحها منظمات المجتمع المدني التي نشأت بمساعدات خارجية لإشاعة الديمقراطية، وقبل أن يغادر قال لي بأنه يحمل رسالة لي من شخص يقول إنه صديقك جداً سلّمها له منذ أكثر من عام. فسألته:

- من هو وأين التقت به؟!

فأجاب:

- والله عمي صدفة وقفت أمام مكتبه صغيرة بمدينة "الشعب" وردت أشتري كتاب، فانتبعت إلى صاحب المكتبة وهو رجل كبير ملتحي أشيب الشعر ينظر لي نظرات غريبة فسألته: عمي تعرفني، فسألني مستفهماً: عمي أنت من الديوانية؟! فجوابته: أي عمي، ففرح وسألني عن أثنين بالاسم: عنك وعن والدي؟! فجوابته الأول أبي، والثاني: خالي، فكتب لك هذه الورقة!

فتحتها، فتعرفت على خطه على الفور، فهو يعتني برسم
الحروف.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

حبيبي

لم أحب في عمري صديقاً مثلاً أحببتك!

لدي حلم واحد قبل ما أموت؛ أشوفك!

لا أستطيع المجيء إلى الديوانية

لمن نلتقي راح أحكي لك

وهذا عنواني).

* * *

نادى السائق عليّ فأخرجني من كتاب "أحمد" ليدخلني في
دوامة الحاضر وأمل الوصول إلى بغداد. الشمس قامت من
خلف بناية مخازن الحبوب العالية مشعة بلونها الدامي، والحركة
بدأت تدب في أرجاء הגراج الواسع. توجهت نحو السيارة
وجدت في حوضها الخلفي ثلاثة ركاب؛ شاباً حليق الرأس،
نضر البشرة يحملق بعينين واسعتين واثقتين سيتبين لاحقاً أنه
ضابط في الجيش، ورجل جاوز الخمسين بلحية شيباء وشعر
غير مرتب، وملابس رثة، يتصنع الثبات بقسمات جافة وعينين
ذابلتين ونظرات قلقة، وامرأة ناحلة ملفوفة بالسواد. وجهها
شاحب، تنظر نحو الوجوه والسماء والعابرين بعينين جزعتين،
سيتبين أنهما ذاهبان للبحث عن ولدهما ومعيهما الوحيد،
المتطوع حديثاً كجندي خُطف في بغداد. سألني السائق؛ هل أرفع

أجرة راكبيّ المقعد الأمامي كي نتحرك. أجبته بنعم، وجلست جواره. أدخل مفتاح التشغيل وأداره فتعالى صوت المحرك لكنه لم يتحرك. بل لهج في ترديد دعاء طويل:

- اللهم احفظنا من كل مكروه

اللهم أعمي عنا عيون الأشرار

اللهم!

فتصاعدتُ أصوات من خلف ظهري تردد أدعية، وآيات قرآنية، حملتُ في وجه السائق كان يتوسل متهدج النبرة يكاد ينشج، وشفته ترتجفان بمفردات الدعاء التي يلفظها ببطء شديد. التفتُ إلى الحوض الخفي، فهالتني الوجوه، زادت شحوباً على شحوبها. تردد آيات من القرآن، حتى الشاب الذي بدا متماسكاً أصابه الجو بالعدوى، فراح هو الآخر يردد أدعية بقسمات ضارعة مستسلمة، وكأننا مقبلون على الموت. غمرني لغط الأدعية والآيات فأخذني بعيداً إلى محطات رعب عمري الضاجة بالقمع والتهديد بالموت في كل الأمكنة التي سبقت وصولي إلى الدنمرك فلم أرَ رعباً كالرعب المرتسم على وجوه الركاب الأربعة. رعبٌ أملس مطلق لم أشعر به لا في نفسي وأنا تحت القصف في جبهة الحرب مع إيران، ولا في وجوه زملائي الجنود رغم أنه يخطف منا في الشهر واحداً أو اثنين في أوقات هدوء الجبهة، ولا في وجوه الثوار في الجبل حينما تُحاصر ويكون الموت على بعد أمتار، ولا حتى في سرايب الأمن العامة والاستخبارات العسكرية التي حللت في ظلمتها وعنفها ورعبها مرات. كانت وجوه الجنود والثوار والمعتقلين متماسكة على الرغم من أنها قريبة من الموت جداً. أما أنا فلم

أكن مكثرثاً، لا أدعي الشجاعة، فقد كنتُ قبيلَ لحظاتِ الاعتقال مثلاً أموت من الخوف لكن عندما أحلّ في الزنزانة تتساوى الأشياء لدي، فأستسلم ويعود لا فرق بين موتى ونجاتي؛ حالة أقرب إلى العبث منها إلى العقل والمنطق. لزمْتُ الصمت؛ هذا ما علمتني إياه التجربة، إذ كنت لا أعرف ما يجري بالضبط، ولم أستوعب بَعْدُ الهول الذي يعيشون به والذي بدا محفوراً في أرواحهم. هاهو يتجلى في أصواتهم وهم يتضرّعون إلى الخالق وقديسيهم من أنمة الشيعة، مستتجدين بمن لم يستطيعوا النجاة بأنفسهم يوم الطف في العاشر من عاشوراء، يستتجدون بوجوه مشلولة، مرتجفة الشفاه والسيارة لم تتحرك بعد. قلت مع نفسي:

- إنهم في لحظة رعبٍ فاقت لحظة رعب العراقي أيام الدكتاتور.

وتساءلت بصمتٍ:

- أية فظائع وأهوال جرت تحت أنظارهم منذ الاحتلال؟!.

- أية؟!.

أستمر لغط الأدعية والتمتمة والتضرع دقائقَ خمساً، إلى أن قطعها السائق بالقول وهو يضغط على دواسرة البنزين:

- رددوا الشهادة!

نطقوها بوضوح وبصوت عالٍ، ومع آخر فقرة أردف:

- الله كريم. الأعمار بيد الله!

قلت مع نفسي:

- يبدو أنه الموت إذن!

بدا الأمر مبهماً بالنسبة لي، على الرغم من أنني أشارك معهم في مواجهة المصير نفسه الذي حاولوا دفع بلاه، فلدي مع الموت حكاية طويلة، الكثير من الناس يخشون من الميت وفكرة همود الجسد لكنني كنت أتعامل بحيادية وجدية مع أجساد الموتى من أقربائي ومعارفي الذين ماتوا موتاً طبيعياً، أو مع قتلى الحرب في الجبهة والجبل من زملائي الجنود أو الثوار، تحركت السيارة وعبرت الباب الواسع وأخذت الطريق المعبد القديم المتوجه نحو الحلة، والسائق يبرر الأمر قائلاً:

- ندخل الطريق السريع قرب الحلة أسلم!

فاستفهمتُ فرد:

- طريق الدغارة ملغوم لو سلابه لو مليشيات!

قلت مع نفسي:

- لا طريق آمن إذن!

وهذا ما بدد شيئاً من غرابة خوفهم الأملس من موت يلوح في الطرق والمدن والقرى المنتشرة على الطريق.

قلتُ بصمت مخاطباً صاحبي:

- أحمد هو الموت إذن الذي خشيناه معا في مطلع شبابنا!

أتذكر يا صديقي ذلك المساء الحزين. كنت وقتها أخلد في غرفتي المظلمة في بيتنا مبهوراً بالعالم الذي فتحه لي "تروتسكي" في كتابه "تاريخ الثورة الروسية" حينما قُرِع الباب، فهبيتُ قاطعاً ممر الحديقة لأجدك واقفاً محني الظهر مسكيناً، سألتك:

- ما الذي جري؟!.

نطقَت بخفوت:

- أبوي مات!

تركتُ "تروتسكي" والثورة والساحة الحمراء وصحبتك إلى بيتكم القريب. كان صوت العويل والصراخ ينتشر في أرجاء البيت، وكنا نتضايق من طقوس الموت العراقي بحزنها الدامي الذي لم أجد شبيهاً له في تجوالي بمناحي الأرض. شق الثوب من الصدر حتى القدمين، لطم الصدر حد الإدماء. تجريح الخدود بالأظافر،

قلتُ:

- أحمد ما موقعنا وسط النسوان؟!.

كن من الجيران والأقارب.

قلتُ:

- ساعدني أريدك فقط تقنعهم بنقله إلى جامع (البو دخن) وإلا سيهلكن من البكاء واللطم.

صمت قليلاً ثم أضفت:

- صعبة عليّ أطلب نقله.

دخلتُ الغرفة المحشودة بالنساء وقلت لهنّ:

- ما يجوز يبات هنا لازم يتّقل لبيت الله.

ذهبنا إلى الجامع وجلبنا تابوتاً خشبياً قديماً من توابيت الوقف. اخترنا أطولها، فأبوك كان طويل القامة، ناعها.

وضعناه في تجويف خشبته وحملناه بمساعدة جيرانكم وأقربائكم إلى الجامع الذي لا يبعد عن بيتكم سوى خمسين متراً. ليلتها بتنا في قاعة الجامع المفروشة بالسجاد، الواسعة المنارة بمصابيح خافتة الضوء معلقة في الزوايا. رقدتُ قربك جوار التابوت على السجاد ملتحفين كلٌّ ببطانية بعد أن غادرنا الجميع. كُنتَ غير مصدقٍ أن أباكُ الراقِد في جوف الخشب لن تسمع صوته أبداً، وكنت حائراً بكيفية تدبير معيشة عائلتك فأنت أكبرهم، ولديك أخ يصغرك تطوع في الجيش كي يساعد العائلة، لكن ما كان يهوّن عليك هو حماسكُ للشيوعية بحيث رحت تحدثني حالماً عن يوم الخلاص العام من الفقر بقيام الثورة التي كان أبوك يسخر منها وهو يحاورنا عن أخلاقية العدالة والحق فيورد قصة متداولة عن رمي ستالين أمه بالثلج لأنها لا تنتج مقارناً بينه وبين الأمام علي بن أبي طالب. كنت شديد الحماسة لأفكارك متعنّياً تسخر من أفكار أبيك وتخلّفه حسب تعبيرك وكنت أحاول التخفيف من صلابة كلماتك، مبدئاً انزعاجي، فقد كنت في أعماقي أكنُّ لأبيك محبة خالصة وأتذكره دائماً بقسماته المنفعلة، الجدية، فبرغم بساطته وكدحه كان ذا كبرياء. إضافةً إلى أنني أجد الموت إجلالاً، غيرتُ الموضوع وقمت من جوارك إلى مكتبة الجامع الصغيرة، انتقيتُ من صفوف كتبها "شرح نهج البلاغة" لمحمد عبده،

قلت لك:

- سأستعيره!

فانخرطت بضحكة عاصفة هزّت قاعة الجامع في بحر ذلك

واقعة حقيقية فلا أحد يستطيع معرفة كيف يموت ومتى ولم
وأين؟!.

- هل سأراك اليوم يا صديقي؟!.

تساءلت والسيارة تقطع الأراضي الشاسعة المتروكة بأعشابها
البرية المهملة ونخيلها المتفرق الممتد حتى الأفق. والركاب
يلوذون بصمتٍ يشبه الخرّس. وحده صوت المحرك يهدر في
الطريق وصمتي.

تحملت عبء العائلة وأنت يا صديقي الحالم لم تتقن مهنة ماء،
حاولت بعد تسريحك من الجيش العمل بالنجارة، بنيت دكاناً في
ساحة بيتكم المطلة على الشارع. فسحة صغيرة ضاقت بقطع
الخشب وأدوات النجارة تَضُمنا في عطلة نهاية الأسبوع حينما
أعود من بغداد حيث كنت أكمل دراستي الجامعية، فجلس معاً
صباح كل جمعة تحت سقف الدكان الخفيض، كنت تنجر
بصعوبة كرسي أو طبلّة فأهرع إلى مساعدتك بخبرتي البسيطة
من والدي الذي كان من أمهر نجاري المدينة لكنه أبعدني عن
مهنته قائلاً:

- دراستك أحسن لك من النجارة!

فَشَلت، فحولت الدكان إلى حانوت لم ينجح أيضاً. لا أدري.
هل سوء الحظ لازمك أم كنت لا تقرأ السوق ومتطلباته؟! كنت
أفكر بك طوال الوقت برغم بهجتي وانشغالي بأجواء بغداد في
أوج توهجها في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين
المنصرم. أفكر بك وأنا أنعم بوضع مادي يكفي حاجتي كطالب.
فالدولة وقتها تمنح طالب الجامعة عشرة دنائير إضافةً إلى سكن
مجاني في قسم داخلي، وكانت أخواتي الثلاث اللواتي يكبرنني

يعملن مدرسات قد خصصن لي شهرياً تسعة دنائير كانت تكفيني. كنت أقارن بين وضعك الصعب ووضعي المرفه وأنا أدور بين بارات ومقاهي بغداد؛ الزهاوي، البرازيلية، البرلمان، حسن عجمي، أم كتلوم، سرجون، بغداد، ألتقي بشعراء ورسامين ومتقنين وكتاب ومتطلبي ثقافة، جو ساحر أخذني وجعلني أحلم بصفافٍ لم أصلها حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها عنك، كان التفكير بك في تلك الأيام يوجع قلبي ويورثني حزناً، فأنزوي شاردأً وأنا في جلسة صاخبة بالحوار، ألتبّع متاعب يومك وأنتَ تنتقل من مهنةٍ إلى أخرى، دون جدوى، كنت تحلم يا صديقي، لكنك لا تستطيع .. تحلم بالأفضل، لكن قدراتك محدودة، وأتى الحل من السياسة .. ففي 17 تموز 1973 قامت جبهة وطنية بين حزب البعث الماسك السلطة وحزبك الشيوعي، فاكشفْتُ أنَّكَ حزبياً مضبوطاً ضبطَ العقل بحيث أخفيت عني ذلك. الإخفاء حسبتهُ لك. فأنتَ عكسي تماماً، فأنا ثرثار لا أسرار عندي، بل فاضح أسرار، لا تدري كم شعرتُ بالفخر لاكتشافي شدة التزامك في حزبٍ سري أحبه وفشلتُ في أول تجربة للعمل فيه، إذ ضعفتُ في أول اعتقال، كنتُ سعيداً وأنا أراك تبكر كل صباح إلى مقر محلية الديوانية حيث كنت تعمل في الاستعلامات. المقر الذي لم أدخله قط. أمنت راتباً شهرياً ثابتاً، ساعدك على ترتيب حياتك وأنت أصلاً بسيط التطلب، كم كان وجهك ينضح زهواً وأنت تتوجه نحو مقرٍ تعتبره حجةً ومصلى. مقرٌ سيتكشف لاحقاً أن من كان يديره من القادة يتعاون سرا، وعمل مخبراً لدى حزب البعث، حيدر فليح، عبد الأمير ناصر، أبو نجاح وغيرهم. قادتك كانوا عملاء سراً. هذا ما ظهر لاحقاً في حملة تصفية اليسار العراقي 1978 سيحبط عزمك. أنت

الذي كنتَ مخدراً بفكرة كونك جندياً تحمل في يمينك سفر جيفارا وفي يسارك أقمار غاغارين. الأغنية التي ترنمنا بها مثل سكارى في غمرة ليل عربية مكشوفة يجرها قطار حمولة ينزل نحو الجنوب، الفكرة التي خلصني من وهمها الاعتقال الأول وصحبتي لمتطرفين من اليسار العراقي إضافةً إلى خلطة من أفكار فلاسفة تعارض الماركسية بنسختها السوفيتية، لكن على الرغم من ذلك كنا نكُنْ لبعضنا البعض ودأً فاقَ الحدود، ودأً غَدَنُ قصة علاقتنا وتاريخها.

بعثوك إلى بلغاريا الاشتراكية وقتها في دورة حزبية. كما هي عادتكم جعلتَ الأمر سرّاً، وفاجأتني في رسالة من أجمل الرسائل، أغرق فيك يا أحمد الآن، غير أبه بما سيأتي في اللحظة القادمة، الركاب حولي مذعورون كأن الموت ينتظرهم واقفاً في الدقيقة القادمة، لكنني واثق من النجاة والوصول إليك فعمر الشقي بقي، وأنتَ تعرفني شقياً حد أبداً أرعنَ أستطيع الآن تذكر لون ورق رسالتك، كان أزرق وخطك الجميل وأنتَ تصف ما حولك مركزاً على تفاصيل ما بعد المحاضرات. حفلات رقص وويسكي وشمبانيا وفودكا وبلغاريات جميلات ورفيقات من شتى بقاع الأرض، كنتَ بارعاً في وصف الرقص والوجوه والأجساد مثل سارد خبير، لكنك لم تفض لي بشيء عن تجاربك الجنسية في السفرة تلك لا بالرسائل ولا عند عودتك. ولما كنتَ داعراً حسب توصيفكم لي، ألححتُ كي تقص عليّ طرفاً من تلك الخبرات، لكنك أحجمتَ كعادتك فظننتُ وقتها أن طبيعتك الكتومة متمكنة منك لكن صمتك ووجهك المذهول حينما أسرد تجاربي الجنسية مع العاهرات والنساء والفتيات جعلني في ريب وولَدَ لدي سؤالاً محيراً لم أستطع

مواجهتك به، إلا بعد زواجك من رفيقتك زواجاً حزيباً غير مكلف. إذ يجري الاتفاق بين عائلتي الطرفين متجاوزين أثمان المقدم والمؤخر المكلفة التي تفرضها الأعراف العراقية على الزوج. وتم الأمر ببسر. أصررت على حضوري ليلة دخلتك!، زفوك بصخب، وأدخلوك إلى غرفة النوم حيث تنتظرك متبرجه معطره ملساء. لم تدعني أذهب بل قلت لي بحزم:

- تبات اليوم هنا! .

- أش أسوي أنت راح تنام وياه مرتك! .

- تبقى بلا تعليق!

فبقيتُ أنتظر في الغرفة المطلة على الشارع. بعد انتصاف الليل بقليل، عقب نومها وخلود الجميع للنوم تسللت من هجمتك المضفرة، لتقضي بقية الليل معي حتى أذان الفجر تحدثني عن مشاعرك في المضاجعة، فجعلت تعيد وتكرر كلاماً أذهلني، بدأته بتعليق بذيء من تعليقات أبناء المحلات الفقيرة حول العملية الجنسية:

- أَكَلْتَهُ وَكَامَتْ تِمْشِي!

قلت لك:

- أحمد ما بك؟ أي هو خنجر لو كتلة من اللحم الحساس.

- لا تتفلسف. بلا ثقافة ولا فلسفة! أكلك أكلته وكامت نشيطة وفرحانة!

فانتهرتُ الفرصة لأسألك ذلك السؤال الذي كنت تلتزم الصمت وتبتسم كلما سألتك:

- أحمد أنلغاريا ما ضاجعت؟!.

كنت أظن أنك قد نفست قليلاً عن حرمانك، ورطبت جسدك المتخشب من الكبت بتجربة تمحي آثار تجربتك الأولى مع المرأة المسنة الضعيفة في ذلك البيت الفقير التي جعلتك تقيء أحشاءك.

- لا. ماكدرت وما أعرف واحد أش لون الواحد يقنع وحده ويوصلها للفراش. هذا شي عجيب بالنسبة لي، هذي وحده، والثانية؛ العاملات رفيقات بلغاريات، والطالبات رفيقات شيوعيات من كل أنحاء العالم، أشعر بهنّ مثل أخواتي وأغضب لمن أشوف الرفاق ما عدهم همّ غير أش لون ينامون وياهن، لكن أكثر من مره ضربت جلق على وحده من البرازيل عليها طيز يخبل، كانت تحتك بي وتريد بس چنت جبان. أخ أشكد ندمان!

نعتك بالمتحجر الأيدلوجي، وكلت لك اللوم ثم سخرت منك في الأيام اللاحقة ونعتك (بحامي الحما) مع تعليقات لاذعة أخرى.

أجلس ساكناً، على مقعدي الأمامي في طريقي إليك، والسيارة تخوض في ذهب الصباح، عابرة قرى ونواح وسهول جرداء، أكاد انفجر ضحكاً، والركاب لا يكفون عن ترديد الأدعية، بوجه تزداد شحوباً كلما قطعت العجلات مزيداً من المسافة. أضج في نوبة ضحك أكتمها مقارناً بينك وبين البدوي أسعد الصعلوك الشيعي القادم من أرياف "تكريت" الذي يجول حولي ساخراً منك، إذ لم يمض على وجوده في "موسكو" شهراً حتى تعلم لغة التعامل اليومي، ولم تفلت منه فرصة واحدة في

مضاجعة روسية. ضاجع العشرات، في لحظة عابرة أو علاقة أيام أو أشهر. حدثني عن تلك التجارب وكأن روح زوربا اليوناني حلت به كان ذلك في عام 1991 وكنا محاصرين ننتظر فرجاً للوصول إلى دول اللجوء، بينما تشهد مدينتنا الفاضلة سقوط مجدها القديم، خرجت من المقارنة فوجدتك يا صديقي أكثر من طيب ومسكين، تمارس العفاف بعناء، فالعفيف الملحد أو المتدين يجلد نفسه جلدًا في قضية الشهوات والغرائز، يرفضها في الرأس والنفاصيل ويمارسها في السر والحلم.

في المدينة وأنا أتتبع أثارك أخبروني أنك لا تزال تعيش مع نفس زوجتك القصيرة الممتلئة الطيبة والودودة بوجهها السمين وتقاطيعها المرصوفة رصاً وكأنها بناء من لحم والتي كانت تعمل معك في استعلامات المقر، ومن عائلة شيوعية حسب التوصيف السائد لدينا.

ما زلتُ أتذكر ظروفَ نقلك إلى بغداد. كنت وقتها أعمل في دائرة زراعة الديوانية حينما شنت السلطة حملة على اليسار. اختفيت وزوجتك وضاعت أخبارك بينما اعتقلتُ أنا مراتٍ ثلاث. لم أذعن هذه المرة. قاومتُ ساعدني في ذلك كوني غير منظمٍ. قاومتُ مستعيداً ثقتي بنفسي المهزوزة من أول اعتقال. ومن خلال علاقاتي السرية مع رفاق لكٍ مختلفين في بغداد. أخبرني أخي "كفاح" الذي يصغرنى بثلاث سنوات والذي قضى تحت التعذيب لاحقاً:

- شفتُ صاحبك!

كان في لهجته سخرية، فاستفهمتُ منه:

- صادفته بفروع الحيدر خانة يتلفت مَدْعور، ويمشي بصف

الحايط، شكله غريب مطّول شواربه وشعره. مشيت وراه مسافة. وقبل ما نطلع للشارع العام بفرع الجامع من جهة شارع الرشيد. لزمته من كتفه من وره، أجه يوكع من الرعب، وما عرفني، كان يرجف ووجه أصفر مثل الليمونة، وعيونه طببت لجوه. فكلت له: أش بيبك؟! أنت تصيح لرجال الأمن وتكلهم أنا مختفي!

صمت قليلا وعلق بخفوت:

- صاحبك منتهي، قضية وقت!.

- لا يا أخي مو معقول!.

صرختُ مندهشاً ونحن نتسكع بأرجاء أزقة باب الشيخ

- مثل ما كلت وراح نشوف!.

كَانَ كَلَامُهُ حَاسِماً، فَتَوَقَّفْتُ مَتَكُنّاً عَلَى جِدَارٍ مَتَاكِلٍ فِي زَقَاقٍ شَدِيدِ الضِّيقِ، وَحَمَلْتُ شَارِداً فِي مَلَامَحِ أَخِي الْمَتَوَهِّجَةِ الْقُوَّةِ الصَّارِمَةِ مَتَذَكِّراً تَفَاصِيلَ أُخْرَى مِنْ قِصَّتِنَا الَّتِي سَرَدْتُ صَفَحَاتٍ مِنْهَا، فَأَنْتَ مِثْلًا مِنْ سَاهَمْتَ وَبِشْكَلٍ مُبَاشِرٍ فِي تَحْوِيلِ "كِفَاحٍ" مِنَ الدِّينِ إِلَى الْمَارْكَسِيَّةِ، حِينَمَا كُنْتُ تَزُورُنِي يَوْمِيّاً فِي سَنَةِ دِرَاسَتِنَا الْأُولَى بِإِعْدَادِيَةِ الزَّرَاعَةِ، كُنْتُ تَتَعَمَّدُ فَتَحَ الْحَوَارِ فِي كُلِّ جُلُوسَةٍ مَعَهُ عَنْ جَدْوَى الدِّينِ وَتَسَهَّبَ فِي شَرْحِ فِكْرَةِ كَيْفِ يَخْدُرُ النَّاسُ؟! وَتَسْخَرُ مِنْهُ وَهُوَ يُوْدِي طُقُوسَ الصَّلَاةِ، كَانَ وَقْتُهَا فِي الْأَوَّلِ الْمَتَوَسِّطِ، يَعْنِي لَمْ يَتَجَاوِزِ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ، وَقَلِيلاً. قَلِيلاً سَحَرُهُ كَلَامُكَ عَنِ الْمَسَاوَاةِ وَالْحَرِيَّةِ وَمَحُو الْفَقْرِ فِي الْعِرَاقِ وَالْعَالَمِ، فَكَسَبْتَهُ إِلَى الشَّبِيبَةِ الشِّيْعِيَّةِ. وَهِيَ هِيَ الَّتِي تَتَوَقَّعُ لَكَ مُصِيرًا بَائِسًا!

لم تمر سوى أشهر معدودة حتى جاءني الخبر اليقين؛ كونك أنهيت اختفاءك، ولم تعد إلى الديوانية. ولما سألتُ كيف؟! قال الشاعر الحلاوي "رعد كريم عزيز" صديقنا المشترك، الذي قضى أطول مدة اعتقال في أمن "الديوانية" لكنه بعد شهر من التعذيب ضعف مؤيداً اعترافاتٍ عليه:

- توسط لهم قريب زوجته الحزبي، زارهم رجال الأمن بالبيت، صدقا اعترافات ووقعنا مادة 200. يا معود محلية الديوانية كلها طلعت بالأمن!

قلت له:

- أريد أشوفه!

- يوم الخميس نسافر إلى بغداد ونبات عنده!

بعد ظهر خميس سافرنا لك، وقتها لم نخف من فكرة خطفنا أو ذبحنا في "اللطيفية" كما هو حال الركاب الجالسين جواري الآن. كنتُ أحمل لك غيضاً فائضاً، لأنني كنتُ أعتقد طوال علاقتنا أنك مخلص لفكرك. عملت بصمتٍ وسريةٍ ولم تُكشَف في أحلك الظروف، وكنتُ معجباً بحنكتك وأنت تختفي في بغداد التي لا تعرفها أصلاً، لكن سأعلم لاحقاً أن أهل زوجتك أصلهم من بغداد وسكنوا الديوانية لضرورات التفرغ الحزبي.

- لم وقعت هذه الوقعة الغبراء؟!.

كان السؤال يرّن في نفسي طوال الطريق رغم أن "رعد" كان يَنكت طوال الوقت. كنت أجامله فأضحك والأسئلة تنهال:

- لم يا أحمد. لم؟!.

- لم يا صديقي، لم؟!.

- وماذا ستفعل بحياتك بعد ذلك؟!

تلح الأسئلة ضاربةً بهجة المسافة.

كنت تسكن مدينة "الشعب" التي كنت أمر جوارها كل يوم حينما خدمتُ كجندي مكلف في الحقولِ المقابلة للمدينة بعد أكمال دراستي الجامعية، حيث أبكرُ مع صياح الديك مستقلاً سيارات الأجرة من بابِ المعظم، وأنزل عابراً جادة كركوك لأصل مشياً إلى موقعٍ وحدتي العسكرية. في ذلك اليوم البعيد دخلتها مع "رعد" محتتماً بالغضبِ لسقوطِ نموذجك في نفسي، صحيح أنني لم أستطع الالتزام وأميلُ إلى الفوضى قليلاً، لكنني مدله بفكرة المناضل المخلص. وقتها لم أدرك أنا ولا أنت معنى فكرة عزفي عن العمل السياسي وإعجابي بالمناضل حد التذله إذ كنت أتهرب من دعوتك للالتزام بالتنظيم، كنتُ أحسها بالفكرة فقط، ورغم تبلور وعيي وخوضي التجربة جسدي وكياني لاحقاً بقيت أتهرب من التنظيم وأنا وسطهم في الجبل رافعاً السلاح، وبقيت على حالي أتدله بالمناضل العنيد، وبنفس الوقت متمسكاً بحريتي طوال الرحلة.

عتمة الغروب نشرت ثوبها منذ أكثر من نصف ساعة. نزلنا من السيارة. عبرنا شارعين فرعيين قبل أن يتوقف صديقنا الشاعر أمام بوابة حديدية كبيرة لببيتِ حسن البناء، قرعها بوجهه باش، فتحتها أنت وحينما وقعَ بصركَ عليّ صرختُ باسمي وركضتَ قاطعاً الأمتارَ العشرة الفاصلة، عانقتني كأنك تريد صهري بأحشائك. مرآك خفف من احتدامي قليلاً، لكن عقب تناول الشاي. تلَبَّك الحديث فالغرفة صغيرة، بابها مفتوح على فسحة وسطية ضيقة أيضاً، مكتظة بالنساء والأطفال. كنت مزدحماً بالأسئلة. همست لك:

- لازم نطلع. أريد أشرب!

أخذنا سيارة أجرة حتى "باب المعظم". لزمْتُ الصمت. ازداد احتقاني والسائق رفع صوت الراديو "حسين نعمة" يغني:

(العزیز أنت.. أنت

العزیز أنت يا شمعتنه وأملنه

يا أمل بيتنا وقائد وطنه)

الممجة بـ "صدام حسين" الذي حلّ محلّ "أحمد حسن البكر" قبل شهرين. شعرتُ بشدة الحصار.. أنت، والأغنية، ووجه الرئيس المتجهّم تارة والمبتسم بافتعال في أخرى وهو يشهق في جداريات ضخمة منتشرة في الساحات، ومداخل الشوارع العريضة، المحروسة بميليشيات البعث، ببذلاتهم الخاكية وبنادقهم المعلقة على الأكتاف. بدأت أفور منك، من نفسي، من المحيط. لم تنفع تعليقات "رعد" الساخرة ونكاته في فك صمتي ووجومي. كنتُ واجماً أيضاً. ذهبتُ فرحتك وسقطتُ في الصمت. كنتُ أصوب نظري نحوك بين الحين والحين فأراك في دائرة ضوء سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس مطرق الرأس، شارداً، بقسماتٍ صبها القلق صباً، فأنت خير من يعرفني، تدرك لِمَ أنا صامت؟! ولمَ طلبتُ الخروج من البيت؟!، وتتوقع مجرى الحوار القادم. ترجلنا في "باب المعظم" وقصدنا نادي "مصلحة نقل الركاب" القريب. دخلنا إلى حديقته الواسعة المزدهمة بالرواد، كان ذلك اليوم يوم لعبة "دنبله" انزويننا في ركن معتم جوار السياج. لم تشرب يومها، بينما عبيتُ أنا نصف ربع عرق سادة دفعةً واحدة. فبدأ الخدر يتصاعد قليلاً.. قليلاً ليحل عقدة لساني، قلتُ لك:

- أحكي لي كيف تم الأمر؟!.

كنت أقصد اعترافاتك أنت وزوجتك وتوقيعك تعهداً بعدم النشاط السياسي مضاف للمادة 200! (والمادة 200 تحكم بالإعدام على موقعها فيما لو عمل سرا بحزب آخر غير حزب البعث العربي الاشتراكي). تلكأت بالكلام. مما زاد من توقدي وجعلني أستعجل روي ما سمعتُ، وافقتني بهز رأسك وسط ضجيج الأرقام ولغط اللاعبين. صبيبتُ ربع عرق كامل وجرعته مرة واحدة. اتكأت على مسند الكرسي الخشبي. هبط صمتٌ قلق علينا برغم الصخب، فلم نعد نسمع شيئاً. كنتما تحملقان أنت ورعد في وجهي منتظرين. انفجرتُ في حديثٍ طويلٍ عن خيانتك لي كصديقٍ، قلت لك إنك أوهمتني طوال علاقتنا بشخصية المناضل المخلص بصمتك الأسممتي ونظراتك المتأملّة، أفضتُ بالحديث فقد أخذتني العاطفة والسكر قلتُ لك ساخراً:

- ليش بالبيت.. يعني عمرك النضالي تنزعه في بيتك.. ليش؟!.

أمعنْتُ في الشرب والانفعال والكلام حتى سقطتُ من الذاكرة فلا أدري بعدها بماذا تفوهت؟! كل ما أتذكر في الضباب الذي ضعيني هو أنني كنتُ أصرخ وأبكي وألوم وأشكو إلى أن سقطتُ تماماً في عدم السكر لأستيقظ في فجر اليوم التالي واجداً نفسي في غرفة بيتك الصغيرة وإلى جوارِي يغفو "رعد"، لا أنت أخبرتني بما هذيتُ تلك الليلة، ولا صديقنا الذي ألححتُ عليه في طريق عودتنا، لكنه قال جملة واحدة:

- أش سويت بأحمد البارحة، خطية!.

ولما أخبرته بأنني لا أتذكر حقاً غير ما ذكرته الآن رفضَ رافضاً قاطعاً النفوه بكلمةٍ واحدةٍ معلقاً:

- يكون أحسن لك ما تعرّف!.

لكنك ودعتني بعد فطور ذلك الصباح، بعينين ودودتين، وبذراعين مفتوحتين ضممتني إلى صدرك وكأنك لم تسمع شيئاً.

* * *

لم أرك بعدها سوى مرةٍ واحدةٍ. بعثت لي خبراً عن وجودك بالمدينة. تواعدنا عصراً. ورحنا نتسكع في أرجائها أكثر من أربع ساعات، أعدنا فيها رواية تفاصيل علاقتنا في الأمكنة وكأننا سنفترق إلى الأبد. درنا في أزقة الجديدة الضيقة وسوق التجار المكتظ. عبرنا الجسر القديم. ومشينا بمحاذاة الشط حتى الجسر المعلق، وشارع بساتين النخيل على طريق بغداد القديم المار في حي الجزائر. وصلنا حتى محطة القطار واستعدنا ليلة هروبنا بالتفصيل، من أي نقطة قفزنا إلى عربة القطار المكشوفة، وفي أي نقطة قفزنا عند عودتنا، متأسفين على اندثار تلك الأيام المضيئة، مقارنةً بعتمة تلك السنة 1980 التي كانت بوابة ليل العراق الطويل. كنت وقتها أواصل الصلة برفاقتك السابقين المخففين في بغداد، أوفر لهم ما باستطاعتي من مساعدة، وأنقل لهم جريدة "طريق الشعب" التي تحولت، إلى جريدة سرية صغيرة الحرف، متواضعة الطباعة، كنت تتخلص بحذق من حديث النضال والمستقبل بفتح باب ذكرى منسية من تفاصيلنا الشخصية جداً. لم تترك أية ثغرة حتى بلوغنا باب بيتكم، مددت يدك لتصافحني مودعاً، أعطيتك كفي اليمنى وفي باطنها الجريدة ملفوفة بحجم طرف الإصبع، أطبقت كفانا،

فتحسست الورقة التي تركتها في باطن كفك المفتوح. رفعت ناظريك نحوي مستفهماً همست:

- آخر عدد!.

كان مصباح الشارع المتدلي خلف ظهري يسقط على قسماتك التي تحجرت بغتة، بدا عليك أنك لم تفهم شيئاً، فقلت لك:

- أفتحها يا أحمد!.

جمدت كفك في ظلال قامتي. رفعتها إلى جهة الضوء وفضضتها. يا إلهي.. أي رعب ألم بك حالما وقع نظرك على أسم الجريدة؟!، هاأنذا أرى المشهد مجسداً أمامي الآن. حرزت قسماتك صراحاً وكأنك تواجه الموت.

- كم كنت قاسياً معك في تلك الأيام؟.. كم؟!.

كنت غضاً رغم كل ما مررت به، لم تعجني التجارب فسخرت من خوفك المهول وأصابعك تعود إلى الحياة مهددة لتسقط الورقة. لاحقت بعيني الساخرتين هبوطها على الرصيف، لبثت في وقفك مخرساً، شاحب الوجه، والذعر يجول في قسماتك، التي رأيتها تتضخم، وأنا أرمقك من تحت، حينما انحنيت لالتقاط الجريدة. نهضت. صرت بمواجهتك. أفردت ذراعيك لعناقي، لكنني تركتك مخذولاً، مرعوباً محطماً تتوسل بعينيك.

- كم كنت جلفاً؟!.

السيارة ضجت بالأدعية من جديد. السائق أطفأ المسجل الذي لم أنتبه له طوال الطريق. كان يردد مراتٍ حسينية بصوتٍ عذبٍ مصحوبٍ بإيقاع ضرب الصدور.

وردد:

- الله الساتر!.

سألته:

- شكو؟!.

- راح نوصل اللطيفة!.

تأملتُ وجوههم؛ السائق والمرأة وزوجها والشاب، كانت شاحبة تبسمل وتردد بلغط مبهم ما يقيها الشر القادم. وجوه لها نفس إيقاع رعبك حينما سقطت الورقة السرية من كفك المفتوح المرتخي، احتجتُ مخاض عمرٍ شرسٍ كي أفهم؛ أن ذلك ليس جنباً، بل تشبث غريزي بالحياة. لم أشعر بالرعب كأني لستُ موجوداً. كنتُ أحملق بحيادٍ عبر زجاج السيارة في بساتين النخيل المنتشرة على جانبي الطريق والشمس سَطَعَتْ بذهبها المنهمر. السيارات تسير بسرعةٍ جنونيةٍ في كلا الاتجاهين. لاحتُ أماننا سيارات متوقفة، فأبطأ السائق من سرعته، وراح يستعيز بالله متضرعاً، كي لا تكون الزحمة نقطة تفتيش طيارة، من التي تقيمها مليشيات متشددة تتكرر بزي جيش أو شرطة تقوم بخطفٍ وقتلٍ من تنتقيه من الركاب، أشتدّ رعب الركاب حينما ظهرتُ جثثُ رجالٍ حَزَّتْ أعناقهم مرميةً على جانب الطريق جوارَ سيارتين كبيرتين متوقفتين، وجمهرة من النساء يلتفنّ بعباءاتٍ سود ينخرطن بعويلٍ هستيري وإلى جانبهن وقف بقية الركاب من الرجال ممن لم يذبحوا. أجهشتُ الأم بينما رد الرجال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا الله إلا الله.. لا الله إلا الله.

ضغَطَ السائقُ على دواسَةِ البنزينِ قائلاً:

- الله سِتْرُنَا لَوْ واصلَيْن قَبْلَ رُبْعِ ساعةٍ چَان رَحْنَا!

وأشارَ بيدهِ نحو سيارَةِ حمولةٍ من نوعِ Toyto، مكتظةٍ عربتها الخلفيةِ برجالٍ ملثمينَ تنهبِ الطريقَ الزراعي في اتجاه البساتين الكثيفةِ مثيرةً عاصفةً من الغبارِ مردفاً:

- شَوْفُوهُمْ ذَبَحُوا الناسَ وشَرَدُوا!! لا الله إلا الله.

لا أدعي الشجاعة ولكن لم أكن خائفاً. وبتعبيرٍ أدق كنتُ فارغ الإحساس كأنني أشاهد فلماً في التلفاز.

- هل كنتُ غير مصدقٍ ما رأيْتُ من مشاهد ذبح؟! أم جلدني المخاض لكثرة ما رأيْتُ وحملتُ من قتلى في جبهاتِ الحرب؟!.

- هل مات حسي بحيثُ بئتُ عاجزاً عن مشاركةِ الناس فواجعهم إذ لم يرفَّ لي جفنٌ لعويلِ النساءِ جوارِ الجثث، ونحيبِ الأم وتضرع الركاب في السيارة.. هل؟! أم أن عالمك يا "أحمد" فصلني عن المحيطِ والناس وأحالني إلى كائنٍ يخرج من زمن مضى؟!.

لا أدري، ما كان يهمني في تلك اللحظات أكثر من أي شيء آخر هو الوصول إليك، والذي كنتُ واثقاً منه، بالرغم من كل ما يجري!.

ردد السائق:

- ربع ساعةً وندخلُ بغداداً.. أسترنا يا رب!.

تلاشيْتُ قليلاً.. قليلاً عن الركابِ وضجيجِ المحركِ وسيلِ الأدعية الضارعة رائياً طيفك يحومُ فوق الحقولِ والبساتين

الراكضة خلف النافذة، مغسولاً بضوء الشمس الأصفر اللاهث،
لم يبق سوى ساعة أو أكثر بقليل وأكون جوارك، كنتُ أودَّ
رؤيتك فقط، دون تفاصيل، مزيحاً كل الهمس الدائر حولك عن..
وعن!، لاحت بيوت بغداد في الأفق، فسمعتهم يجرون أنفاساً
عميقةً وكأنهم كانوا يجرون طوال الطريق.

أنزلني سائق التاكسي في نفس الشارع الذي زرتك فيه منذ
أكثر من سبعة وعشرين عاماً في مدينة "الشعب". وقفتُ أمامَ
البيت نفسه الذي ستخبرني أنه يعود لزوجتك، باب حديدي
صدئ نصف موارب، وسياج من الحجر واطي، خلفه حديقة
صغيرة شهقت في طرفيها نخلتان. الجدار مطبّع بأكف الحناء
وأعلى طرفي الباب رفرف علما؛ أخضر وأسود خط على
صفحتيهما عبارة "يا حسين يا شهيد كربلاء". ومن عمق الدار
يأتي خافتاً صوت مرثٍ حسينيةٍ تندب واقعةً كربلاء. حُطوتُ
نحو الباب وقرعتها ثلاثاً وهي إشارة قديمة بيننا كنا نتبادلها كي
نهب لفتح الباب. أعدتُ القرع بقوةٍ أشد فسمعتُ صوتَ خطي
تركض والباب يسحب إلى الداخل وصراخك مجنوناً:

- سلومي.. سلومي حبيبي!.

تلقتني بذراعيك وأودعتني صدرك باكياً، أمعنت في شدي
وأنا كذلك، ثم سحبتني من ذراعي عابراً العتبة العالية، وبيدك
الأخرى كففت دمعك الغزير، لم أتبين ملامحك فقد أضاعتها
لحيتك البيضاء الطويلة، كنتَ تقودني بقامتك الفارعة وحدبتها
التي ازدادت بروزاً. دلفنا من باب خشبي متآكل إلى غرفةٍ
صغيرةٍ عارية من الأثاث، مفروشة بسجادٍ يدوي كانت تحيكه
أمك وأخواتك في شوارعكم الضيقة. أجلسنتني على فراشٍ فقيرٍ
مبسوط جوار الجدار، وابتعدت لتحكم إغلاق بابيها؛ الذي دخلنا

منه، والمفضي إلى أحشاء البيت، عدت لتتربع قبالي مبهجاً
بقسماتك التي تخشبت بشرتها وملأتها الغضون. أبحرت في
عينيك، فلمعتا ببريقها القديم برغم ذبول أجفانهما. كنت تردد:

- سلومي.. ما أصدگ.. ما أصدگ..!

وتمسّح بأصابعك كفي وذراعي، وقليلًا.. قليلًا بدأت تهدأ
مردداً:

- حلم من أحلام عمري تحقق!.. الحمد لله.. الحمد لله!..

ورحت تبسمل مردداً آيات قرآنية بصوت خافت يدغم
الحروف، مسبل الأجفان مترسباً في قاع الحروف المنغمة،
فأعطيتني فسحة لتأمل وجهك، بشرتك، شعرك الأبيض، جسدك
الهزيل، وأشياء الغرفة المغطاة جدرانها بالنايلون الملون
الرخيص، صورة أئمة الشيعة تتربع الجدران متراصة، تحكي
قصة "الشيعة" من علي بن أبي طالب، وولديه الحسن والحسين
والأسد الرابض أمام قدميه بلبدته البيضاء العظيمة ونظراته
الواثقة.. إلى موقعة كربلاء ومشاهد مجزرة العاشر من
عاشوراء. وتحت الواقعة صور لمحمد باقر الصدر، والحكيم،
والسيستاني، بلحاهم البيض المسدلة كلحيتك. التفت إليك. وجدتك
غارقاً في لغط أدعيتك مطبق الأجفان تتضرع إلى الخالق
والقديسين. قلت مع نفسي:

- أي سلام روحي عميق أنت فيه!..

لا لوم لدي ولا عتاب كما كنت تظن وتخشى، بل كنت
أغبطك في أعماقي على السكينة الغامرة قسماتك التي غصنتها
السنون. فبعد عناء العمر، الكل منا يبحث عن ساحل.

أردتُ الخوضَ في تفاصيلِ ذلكَ، لكنني لم أستطعَ وجدتُ
الكلامَ والتفاصيلَ مجردَ لغوٍ في تلكَ اللحظاتِ!

قلتُ لكَ مع نفسي:

- أبارك لك ساحلك...

ولك:

- مقبولة صلواتك!

سألتني بعد صمتٍ:

- وأنتَ يا سلومي؟!.

تريثتُ قليلاً، وقلتُ مع نفسي:

- لم أزل في البحرِ واللجةِ!

كنتَ تنتظر مبتسماً بقسماتك السارحةِ في سلامها، قلتُ:

- بعدني ما بين وبين!.

تبسمتَ بسمةَ العارف معلقاً:

- گلتُ وبه نفسي؛ ما راح تتغير.. أنت صعب!.

أنصتُ لك طوالَ النهار والليل. كنتَ أطالبك بتفاصيل
التفاصيل كأنني أريد عيشها معك من جديد، قصصتُ كل شيءٍ،
عن أولادك الثلاثة وبناتك الست، عن عملك والمكتبة التي بنيتها
في حديقة البيت تبيع فيها الكتب الدينية، وصور الأئمة،
وأقراص تربة الصلاة والسُّبُحات، والشغل ماشي، عن جهادكم
زمنَ الحصارِ حيث صارت اللقمةُ صعبةً، عن تنقلك بين مهنٍ
عجيبةٍ غريبةٍ، حمّال، نجّار، حدّاد، ماسح سيارات، صباغ

أحذية، وعمل زوجتك كخياطة، وأولادك في شتى المهن، والبيت الذي ستركم. فُرع الباب ثم دخلت زوجتك القصيرة بحجابها الأسود، سمتت كثيراً وهَرَمَت، وخلفها أولادك وبناتك سلموا عليّ وغادروا، بقينا على جلستنا في الغرفة نتقاسم الحكايات والذكريات، كأننا في صِباناً، لم تنس قط رسالة التلميذة السمراء التي أوصيتني بها وأنت تذهب إلى العسكرية. تكلمت بخفوت عن مصير صديقنا "عبد الله أبو التمن" الذي بقي شيوعياً ولم تغيّره الظروف، فعاد للعمل بعد الاحتلال وسقوط الدكتاتور في مقر اللجنة المركزية في ساحة الأندلس، وقبل شهرين خطفته مليشيات مجهولة، ليعثروا بعد شهر على جثته مشوهة في مجمع قمامة بطرف بغداد.

لم نشعر بالوقت. كنت تقوم أوقات الصلاة. تفرش السجادة وتوسط تربتها. تذهب للوضوء. وتعود لتقف متوحداً مع ربك تمارس طقسك راکعاً ساجداً قائماً. كنتُ أغبطك مع نفسي رائياً في وجهك صفاء العابد المتوحد، المترفع عن شؤون الدنيا، لم نَم حتى الفجر، إذ سقطنا في النوم كل على فراشه، متجاورين وكأننا نغفو تحت مصابيح شارعنا في "الحي المصري" حينما كنا نذاكر فنسقط في النوم مخدرين بنسمات السحر الباردة. ودعتك في اليوم التالي ورجعت إلى الديوانية بعد أن تواعدنا على لقاء ثانٍ بعد أسبوعين.

* * *

أحبس نشيجي بينما السيارة تقترب من مقبرة السلام الشاسعة. فُشَل السائق طوال الطريق إلى النجف، في جعلي أتكلم، لم تكن لي رغبة لا في الكلام فحسب، بل في الحياة نفسها. دخلنا

شارعاً عريضاً إلى اليمين، فامتدت القبور على الجانبين حتى خط الأفق. لم نرَ أحداً. الشارعُ خاو وزحام القبور مظلمة بأشجار السدر متناثرة تسطع تحت شمس الظهيرة اللاهثة. أصوات رصاص متقطع، وضجيج قذائف مدفع متقطعة يسمع من عمق المقبرة.

قال السائق:

- الله الساتر أش وكت نخلص من الحرب، والله ملينه!.

والنفث نحوي قائلاً:

- أستاذ حَضَر هويتك، سنعبّر نقطة تفتيش جيش المهدي!.

من خلفَ بنايةٍ صغيرةٍ ظهرَ ثلاثة مسلحين لفوا وجوههم بكوفيةٍ مرقطية. أشاروا إلينا، فتوقفتُ السيارة. استفهموا عن المكان الذي قدمنا منه وأين نقصد. أخبرهم السائق بأننا قادمون من الديوانية ونقصد "مغسل الموتى" فلدينا جنازة، أعادَ بطاقتينا الشخصية قائلاً: انتبهوا كما ترون، الأمريكان وعملأؤهم يقصفون المقبرة، الله يحفظكم!.

بعد مسافةٍ قصيرةٍ وصلنا بناية المغسل الكابية. ترجلنا وسرنا بصمتٍ. كنتُ أسمع وقعَ أقدامنا برغم القصف الذي أشتد.

كنتُ بعيداً.. بعيداً أحنق عبرتي والوجه التتري يلوح ضاحكاً ملء عيني. شبعْتُ نحيباً منذُ ليلِ البارحةِ حالَ سقوطِ سماعةِ الهاتف من يدي في غرفة ضيوف بيتنا، كان صوت زوجته المتهدج يذبحني بخبره

- صديقك راح مات قتلوه بالمكتبة!

أمطره مسلحون ملثمون نزلوا من سيارة جيب صغيرة

بالرصاص وهو جالس وسط كتبه ولاذوا بالفرار، طفقت أنحب
وهي تضيف:

- الدفن باجر بالنجف الساعة وحده الظهر!.

أمام باب المغسل وقف سبعة رجال. في ركن الجدار وقفت
زوجته وحولها أولادها وبناتها ناحيين. عبرت العتبة. تجمهر
الرجال حول دكة الغسل. أفسحوا لي ممراً. فوقع بصري على
جسده ممداً عارياً مثقباً بالرصاص. اقتربت منه. توقف شيخ
ملتح كان يهّم بغرف طاسة ماء من حوض الغسل. كان سليم
الوجه، يبدو وكأنه يغفو. ركعت على ركبتَي جواره ونزلتُ إليه
ودمعي يصبّ. لامستُ شفتَي جبهته العريضة. شممتُه من عنقه.
انتصبتُ. رجعتُ خطوتين. باشر الرجلُ بغسله.

وبغثةً شهقتُ. خانتني قواي، فتهاكتُ جالساً. حملوني من
كتفي إلى خارج المغسل وأجلسوني على مقعدٍ من حجرٍ مركون
إلى الجدار تحت الشمس وأمامي امتدت شواهد القبور حتى
الأفق وطيفك بوجهه الفتى إلى جوارِي على عربة قطار حمولة
تمخرُ عبابَ ليل الجنوب يرقصُ هازاً بذراعه الأيمن يتوعد
ويهدد الوجود وينشد معي:

- لبناء عالمٍ جديد.. ولقبر مشعلي الحروب!.

* * *

وينك يا بلدي؟

انتزعتُ نفسي بعناءٍ من الفراشِ عازماً على زيارتها. فقد مرَّ
أسبوعان كنتُ فيها متردداً ألومُ نفسي تارةً لقبولي بالمهمةِ
وأشجعها في أخرى قائلاً في سري:

- لعلَّ زيارتي تبرد قلبها!.

الغرفةُ معتمَةٌ. أزحْتُ الستارةَ، فتسلل ضوءُ شاحبٍ معرياً
الأريكةَ، وتحف صينية رخيصة مرتبة على مناضد صغيرة
موزعةً بالزوايا. لبثتُ على حافةٍ مجرى الضوء مهدوداً أحاولُ
التماسك كي أقوم بارتداء ملابسي. عاودني اللومُ:

- أي مهمة ثقيلة وافقتَ على أدائها!.

همستُ لنفسي بخفوتٍ متأرجحاً على حافةِ الوهن. شددتُ
جسدي لثوانٍ لكنه انحلَّ من جديد. فتهاكمتُ على كرسي
بمواجهة النافذة، ورحتُ أحملق شاردأً ببقايا حديقة أبي وشجرة
النارنج الوارفة جوار الجدار الخلفي للدكان الذي بنوه في سنين
الحصار، لديّ أكثر من عشر ساعات عن الموعد الذي اتفقنا
عليه تلفونياً، كانَ صوتها ناعماً يشف بالشوق وهي ترحب بي
وتقول:

- وأخيراً ستتحقق أمنية عمري!.

وأرتجفتُ صوتها مهتراً بنبرتهِ الخافتةِ وهي تضيف:

- أريد التفاصيل كلها.. كلها!.

واختنقت بالكلمات. أصابتني عدواها فكدتُ أنهدّ ناحباً.
ودعتها بارتباك وأغلقتُ الخط.

أيقظني من صدى صوتها المخنوق صياح ديك الجيران
وضجيج المدينة التي بدأت تستيقظ. أنهضتُ جسدي مستنداً
بذراعيّ على مسنديّ الكرسي. أخذتُ دشاً بارداً. كان البيتُ
ساكناً. أخي الصغير وزوجته وطفليهما يغطون بالنوم فاليوم
جمعة. أخرجتُ من حقيبتني الجلدية صورهِ القديمة، دسستها في
جيبِي وتسللتُ بهدوء خارجاً. تلكأتُ جوارَ باب بيتنا مغموراً
بنسيم الفجر، أشمُ عبقَ طفولتي من الجدرانِ وأبواب البيوتِ
والغبارِ وأعمدة الكهرباء والإسفلتِ وأنفاسِ رفقتي الذين تناثروا
بعيداً.. بعيداً في الحروبِ والمعتلاتِ والأحداثِ.

تأملتُ، وجوه المارة المتيبسة المشققة المهمومة وهي تنقلُ
خطوها بتثاقلٍ. أكوامَ الزبالة المنثورة على رصيفِ الشارع
الوسطي العريض، الجدران القديمة الهرمة، تباشيرِ الشمس
الدامية في الأفق الشرقي البعيد، منارة جامع حي العصري
العالية. عبيتُ نفساً عميقاً، ورميتُ خطوي باتجاه السوق ومركز
المدينة. قلتُ مع نفسي:

- يجب أن أعد خطة الروي حرفاً.. حرفاً.. وكلمة.. كلمة..
وجملة.. جملة وبحسابٍ دقيقٍ، لكن كيف؟! هنا تكمن المعضلة!.

فالقصةُ طويلةٌ ومبرحةٌ فقد كان وجهاً من وجوه عمري ممن
فقدتهم في اللّجة، والذين يستيقظون بين الحين والحين منبثقين
من ذاكرتي الدامية في سنين المنفى الطويلة، فأراهم في تأملاتي
الشاردة رؤيا القلب والعين وأكادُ ألمسهم في وحدتي إلى أن
يرمونني إلى حافة الكأس فأغيب. لكن منذُ أن كلفوني باللقاء بها

عاشرني، فبتُّ أراه وأسمعه وأكلمه في شرودي وأحلامي،
بوجهه الضاحك البهي، وقامته متوسطة الطول الرشيق وهو
يحدثني عن أحلامه الواسعة ونحن نقف في الطابور الطويل أمام
مركز التطوع الكائن خلف سينما الثورة في جانب الديوانية
الصغير، كان ذلك في خريف 1970 والمعارك محتدمة بين
الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين في عمان والمدن
الأخرى. أرى قسماته في هذا الصباح الذي بدأ يضج، حيّة
دانية؛ بتقاطيعه الناعمة، عينيه الواسعتين بلونها الأزرق الناصع
وكأنهما لؤلؤتان قدّتا من سماء يوم صافٍ، أنفه الصغير
المنحوت بدقة، وجنتيه الناتنتين المائلتين إلى الحمرة، وفمه
الصغير بشفتيه المكتنزتين. كان ينكت طوال الوقت مشمراً
ذراعيه النحيفتين، وينفجر بالضحك الصاخب، فيظهر صفّي
أسنانه البيض، وبين نكتة وأخرى يترجّاني قائلاً:

- لم تزل صغيراً على القتال والحرب!.

فتحدثم حماستي رافضاً نصيحته. كنّا وقتها نعتقد بقدرتنا على
تحطيم العالم القائم وبناء عالم جديد، الكلّ فيه سواسية لا فقير
ولا غني!.

- نحتاجكم هنا!.

أصررت ولم أغادر الطابور، لكن مركز التطوع طلب ممن
لم يتجاوز الثامنة عشرة الانتظار، بينما سافر هو بعد أيام،
وغاب غياباً الأول عن المدينة، ليحلّ في معسكرات الفدائيين
في الأردن. لم نلحق إذ تمكن جيش الملك "حسين" وقوات
القبائل من تصفية الوجود الفلسطيني، فانتقل إلى بيروت مع
الفصائل المسلحة التي وجدت ملاذاً هناك. بقيت أتتبع أخباره

المتباعدة التي تصلني همساً، فأشيعها في المقاهي مضيفاً عليها
كما هو شأني، أتخيلُ يومه وأصفه لمن حولي، شكلُ المعسكر،
والتدريب، والمكان ورفاق الثورة وعلاقاتهم التي تفوق علاقة
الأخوة، مستعيناً بمذكرات "جيفار" التي نُشِرتْ لتوها، فننتشي
بخاطرِ الثورة المسلحة، ذاك الحلم الذي بدا في العراق مستحيلاً
بعد فشل تجربة القيادة المركزية 1967 في أهوار الجنوب.

صرْتُ وسطَ المدينة. بدأتُ المحلات بفتح أبوابها، وتعالى
صياح الباعة. دخلتُ سوقَ التجار المسقوف شاماً روائح البخور
والبهارات والأعشاب البرية من دكاكين باعة الأعشاب الكائنة
في مدخله من جهة سوق الخضار.

أصبحتُ وسطَ السوق، شاعراً بحضوره قوياً كأنه يخطو
جواري، فتعقبني رائحته وأكاد ألمسه في غمرة الظلال العميقة
كما كنتُ أفعل حينما عادَ من بيروت بعد قيام الجبهة الوطنية
بين حزبي البعث والشيوعي عام 1973.

سلكْتُ الطريق الذي نسلكه مساء كل يوم إلى المقهى. أكسبته
تجربة العيش في معسكرات الثوار مزيداً من الصلابة والتوهج
وهو يروي قصصاً تذكّي أحلامنا الثورية، عن كيفية وصوله
ووضعه مع بقية المتطوعين في معسكرٍ خلفي، بينما القتال
محتدماً وسط عمان، عن الأسرى الذين يسحبونهم من خطوط
القتال ليودعهم غرفة السجن المظلمة:

- تدرون كم كانوا أجلاف مقاتلي القبائل؟!

يصمت قليلاً ثم يعلق بعينين تنظران في البعيد وكأنه يستعيد
مشهداً ما:

- بدو في منتهى القسوة!

نسأله:

- أش لون؟

فيقص علينا واحدةً أخرى من القصص التي عادَ بها من أيلول الأسود في الأردن كما نعتوا تلكَ المعارك الداميةَ لاحقاً في أدبيات الثورة الفلسطينية: في يوم من الأيام أسر الرفاق واحداً منهم مجروحاً، كان ينزف، والمعارك تقترب. كنا نسمع صوت المدافع والرشاشات قويا. كان وجه الأسير صلباً كأنه نُحِتَ من صخرة سمراء صلدة. حاولت جرّه إلى الحديث لكنه ظلّ صامتاً مثل قبر. وكان إلى جوارِي "رحيم العجلي" وهو من المدينة أيضاً التحق قبلي بسنتين ويعرف تفاصيل لا أعرفها، تقاسمتُ والأسير رغيْفَ خبزٍ والذي هو حصتي كل اليوم. شددتُ ساقه المجروحة بضماذاتٍ بعد تعقيمها.

أتعرفون أش غال لي بعد ساعة؟..

سألناها بلهفة:

- أش غال؟!.

فأكمل:

- غال: تدري يا ول لو أنت طحت بيدي أش كان سويت بك؟!.. سألته: أش تسوي؟!.. غال بصوت غليظ جهير: كان طَرَيْتْكَ طَرّاً!.. فسمع "رحيم" اللي كان يعد تنور الخبز، شمر الحطب من يديه وجاء راكضاً، ومثل مجنون سحبه سحباً وأجلسه على عتبة مائة بالمتفجرات وسط الساحة. جمدت مذهولاً، لا أفهم ما يجري، وقبل أن أستفيق حدث الانفجار فرأيتُ جسد البدوي يتناثر شظايا. فرحتُ وأصرخ وأصرخ:

- ليش.. ليش.. ليش..؟!.

وانفجرت في نوبة بكاء وفقدت الوعي. كنتُ أنصت مذهولاً من تلك التفاصيل التي تشبه ما أراه بالأفلام الحربية التي تُعرض في سينما الجمهورية الصيفي المقابلة للمقهى التي كنا نجلس فيها. أصغي بكل حواسي متخيلاً المشهد بتفاصيله، وجه البدوي، وجه سعد ووجه رحيم، وشكل ساحة المعسكر الواسعة، وتنور الخبز، وذلك المساء.

و "سعد" بنبرة صوته القوية المختلفة عن نبرته القديمة قبل السفر يُكمل:

- ما اقتنعتُ بفعل "رحيم" ولا بما ظلوا يرددونه متوهمين أن كلامهم يخفف من جريمة قتل رجل أعزل: رفيق بعدك ما شفت شيء.. هذه هي الحرب!.

كنا، نحيط به في المقهى، نطلبُ المزيد. فيصمت قليلاً متفحصاً وجوهنا المذهولة بعينيهِ الذكيتين ويكمل:

- المقاتلون خليط غير متجانس قادمون من شتى بقاع الوطن العربي فيهم الطالب، والعامل، والموظف، والمثقف، والكاتب، لهجات، وأخلاق، وعادات مختلفة تنصهر في حياة المعسكر الصارمة حيث كل واحد يؤدي واجبه دون تملل حتى في أصعب الظروف.

كنا نلتقي كل يوم عند ناصية مكتبة "الحكيم" الدينية المجاورة لسوق الخضار عصاراً وندخل سوقَ التجار المسقف بحرين في الظلال والزحمة، نتطلعُ إلى وجوه نساء الديوانية وعيونهنَّ الواسعة ونظراتهنَّ الباسمة. كنتُ أغار منه. كان فائن القسما،

نظراته ذكية عميقة تقول لعيونهنَّ ما لا أستطيع. سألني عما وقع لنا في غيابه فأخبرته عن اعتقاله مع جمع من الرفاق حيث سَفَرنا من أمن الديوانية إلى "قصر النهاية" وما رأينا من أهوال وذلٍ هناك، كانت الفلقة من أوهن ما رأيناه إذ جعلوا بعضنا ينبج مثل كلب، والبعض الآخر يسير على أربع مثل حيوانٍ، لم يُطْلَق سراحنا إلا حينما أوشكوا على إعلان الجبهة. قلتُ له: نَجُوتَ يا سعد من ذلٍ حطم شيئاً في نفوسنا. خرجنا مكسورين لا نجرؤ على رفع رؤوسنا حينما نصادفُ شرطياً في الشارع.

أقطعُ الآن مسارنا القديم نفسه، محلات بيع الملابس لاتزال مغلقة في هذا الصباح الباكر، والسوقُ مكتظٌ بالأعلام السود والخضر وصور تحكي مشاهد من واقعة كربلاء، فالיום السابع من عاشوراء.. سيزف القاسم عصراً مزداناً موكبه بصواني الشمع وطاسات الحناء وعيدان البخور لِيُقْتَلَ بعد ثلاثة أيام في صبيحة العاشر من محرم.

مع توقف الملاحقات في أيام الجبهة الوطنية الأولى توهمنا السلام وقلنا؛ سننعم بالهدوء ونسلك سبيل الحياة مثل باقي البشر وبدأنا بذلك، توظف سعد كبائع في مخازنٍ "الأورزدي باك" وأكملتُ دراستي الجامعية في بغداد، في عطلةٍ من عطل نهاية الأسبوع، أخبرني بأنه وقع في الحب، ويكاد يجن، وراح يسرد لي تفاصيل علاقته بفتاةٍ عندما رأيتهَا وقفَتْ مذهولاً لفرط جمالها. كانت ممشوقة القامة طويلة، لها وجه يعمي الشمس وتقاطيع نارية تجعل المارة يتسمرون على الأرصفة بعيون سارحةٍ وأنفاسٍ لاهثةٍ، قلتُ له:

- سعد هذي كارثة!

فبرقت عيناه وصفت ملامحه وسرخ بعيداً قبل أن يقول
بصوتٍ مرتجفٍ:

- ومقتلي يا صديقي!.

أخذتهُ تماماً، فكفَّ عن علاقاته العابرة بالنساء. ولم يلبث أن تزوجها بعد مشقة. أبوها كان كاتب عرائض، مَحَلُّهُ مقابل مركز شرطة المدينة القديم، مات باكراً قبل زواجه منها بعام. أما أمها فكانت قارئة حسينية، ممن يقيمن ماتم ذكر الأنمة للنسوة في غرف أيام الذكر وفي رثاء الموتى، ستساهم هي وثلاثة من أبنائها في انتفاضة آذار 1991 عندما سيطر المنتفضون على المدينة، وسياخذها الجيش هي وأبناءها ويضيعون إلى الأبد، أما بقية الأبناء فقد تناثروا في بقاع الأرض أكبرهم "عالم ذرة" يقيم في لندن قبل المذابح، وأصغرهم صعلوكاً قتل صبيّاً في عراقٍ عادي بالأيدي وحكم عليه بالسجن المؤبد، البارحة صادفني في مقهى بشارع السراي، كان قد هرم فتهدمت وتهدلت قسماته بالرغم من أنه يصغرنى بأعوام. أطلقَ لحيته البيضاء الطويلة. عرفتُ منه أخبار عائلته وشتاتها، وقال لي بأنه يعمل الآن سادناً في الحضرة العباسية يخدم "أبا الفضل العباس". وجاء في زيارة قصيرة لمدينة طفولته الديوانية،

تزوج "سعد" وغاب عن المقهى. صارَ قليلَ الحضور، فداومتُ بالمرور عليه في مقر عمله، نتجاذب أطراف الحديث لدقائق، قلت له مرةً:

- أَحَدْتُكَ المرة منا!.

فضحك وتلعثم بالكلام، فأضفتُ:

- والله حقك اللي عنده مثل حَبِيبَتِكَ ينسى العالم والناس.

ضيّقَ علاقته بالمحيط. ولم يستقبل صديقاً قط كضيفٍ في البيت.

قلتُ مع نفسي؛ لو كنت محله لفعلتُ مثل ما فعل!، و.. لكن لن أفعل مثله رغم أنني تزوجتُ امرأة لا تقل جمالاً وناراً عن جحيم "سعد" المضطرب. لم أفعل ولهذا قصة أخرى. كنتُ أعبر الوجوه التي أكتظ فيها السوق دون أن أرى أحداً، وجدتني في فم السوق المقابل للنهر، وضوء الشمس الساطع أضاء الجدران الرثة وأكوام القمامة والوجوه المتعبة لفلاحين يتزاحمون أمام مصرف الرافدين. عبرتُ نحو مقهى "الرأية" وجلستُ على كرسي من البلاستيك في مواجهة مدخل السوق الظليل ورحت أحرق إلى وجوه أبناء جلدتي الذين فارقتهم أكثر من ثلاثين عاماً. وجوه كالحة، رثة، متربة، شاردة. وجوه كنتُ و "سعد" نتأملها في ذلك الزمن البعيد ونعتقد بأننا سنستطيع جعلها تعيش بسعادة في وطنٍ حر. كنا نجلسُ في مقهى "قدوري" المقابل لموضع جلستي مشتعلين متوهجين لا نكف عن الحوار ولا يشغل همّنا غير الناس.. والناس لا يابّهون بنا. لكننا لا نهتم، ونردد بكل ثقة:

- سيستيقظون يوماً وينتبهون لمأزقهم!.

وهذا ما لم يحدث قط!.

كنتُ أتمنى أن لا يأتي أحدٌ من معارفي يشغلني عن ترتيب الرواية، وفي الوقت نفسه كنتُ مسترخياً أمام نهر الأجساد المتدفق في الجادة العريضة، أستمذُ منه العزم لمواجهة صوتها الخافت المخنوق المرتجف الشبيه بنحيبٍ مكتوم، وهي تترجاني كي أقص عليها التفاصيل كلها:

- أحلم به، وأسمع صوته، وأتعذب. وأنتظرك!.

غرقت بالضجيج، منبه سيارات، أصوات مسجلات لعلت
بمراتٍ منغمة تندب مقتل الحسين على إيقاع لطم الصدور، لغط
الرواد الذين اكتظت بهم المقهى. ضجيجٌ يجعل المرء يشعر
بعنفوان الحياة رغم بؤسها ويلقي بيّ على ساحل "سعد". الزمن
بدا لي متوقفاً، فالمكان نفسه، مدخل السوق نفسه. المقاهي
نفسها، الرواد فقط من اختلف، الساحة الفاصلة بين بناية دائرة
الأمن التي كانت تبث الرعب فينا ومدخل السوق الجانبي من
جهة العم "عارف" نفسها، القلعة القديمة بنوافذها وأركانها
المدورة، في ركنها الأيمن حلتُ مذلاً مهاناً مكسوراً خمس
مرات في عزّ شبابي، لكنها الآن مهجورة ومحاطة بقواطع
أسمنتية خوفاً من التفجيرات. دكاكين باعة الأحذية، الساعات،
القمصان، والكتب نفسها، لكن الأبناء حلّوا محل الآباء الذين
رحلوا. قلت مع نفسي مخاطباً الديوانية:

- إذن.. أنتِ باقية ونحن نتواري ونغيب!.

أشعر بالغصة. فمدينتي الباقية مثل أخواتها محتلةً وطنتها
أقدام الغزاة المتوارين في المعسكرات المحيطة.

أشرد حالماً منفصلاً عن خضم اليوم وسط السوق، أشرد
والمدينة لا تكاد تشعر بوطأة المحتل، ولا يلاحظهم المرء إلا
حينما يسافر بين المدن، فيرى رتل الدبابات المحمولة وهي
تصعد نحو بغداد أو تتحدر نحو البصرة. قلتُ مع نفسي:

- المدن تعيش حياتها غير أبهة بالمحتل الغريب، وبشرها
هم.. هم!.

لم يتذكر "سعد" أحدً، ولم يرد ذكره في مقاهي ومساجد

وأسواق المدينة بعد أكثر من ثلاثين عاماً من غيابه عنها، فمن يتذكره والكثير ممن يعرفهم من أبناء جيله قتلوا في جبهات القتال مع إيران، وفي السجون، وفي قصف الطائرات والصواريخ الأمريكية في حربي 1991، 2003. ومن تبقى مريضاً يلوذ في المقاهي يجتر أيامه، لم يسألني عنه إلا شخص واحد كان معنا في طابور التطوع ولم يسفروه لصغر سنه أيضاً. سألني عندما لقينته صدفةً في مآتم:

- أش أخبار سعد؟!.

لم أجبه. كان الوقت ضيقاً ونحن نجلس في باحة الجامع المكتظ بالدخان وضجيج المعزين وصوت عبد الباسط المضخم وهو يرتل ما تيسر من آياتٍ، تواعدنا ولكننا لم نلتق ثانية إذ لم أصادفه في المقاهي والأسواق.

شعرتُ بالأسى حينما وثقت أن مدينتنا جاحدة غير مبالية بمصيرينا.. ولا تعرف عن عاشقها شيئاً.

* * *

قُرعت الباب في ليلة باردة من شتاء 1978. جمدتُ في سريري أنصتُ للصمتِ وأنفاسي وضربات القرع الخافتة. كنتُ أغط في ظلام الغرفة وكأنني أحتمي فيه مما يجري في الشارع، فحملة الاعتقالات بدأت في الديوانية قادمة مثل موجة من البصرة، على الرغم من أنني لم أكن أعمل وقتها في تنظيم الحزب الشيوعي، لكن الحملة شملت كل من لم ينتم للبعث. لبثتُ أنصتُ إلى القرع المتباعد المتخافتِ وكأنَّ القارع يخشى ممن حوله. أزحتُ الغطاءً بهدوءٍ وتسللتُ من الفراش نحو الدرج

المفضي إلى سطح الدار. سحبت الباب بتؤدة كي لا تصدر أزيزاً. ومن حافة السياج لمحتُه ينزوي بعيداً في ظلال مصباح الشارع المتدلي كهالةٍ فاضحةٍ من أعلى العמוד الحديدي القائم جوار باب بيتنا. عدتُ إدراجي مسرعاً. نزلتُ درجتين.. درجتين، وقطعت المسافةً بقفزات دون ضجيجٍ حتى الباب الخارجي. أبرزتُ جسدي فسقطَ عليّ ضوء المصباح القوي. لم يتحرك من مكانه. لبث في الظل، وطفق يؤشر كي أسرع. اقتربتُ منه. رجوته كي يدخل. رفض قائلاً:

- ما عندي وقت!

أخبرني على عجلٍ بأنه سيختفي عن الأنظار، قلتُ له:

أين؟!

فأجاب:

- ما أدري.

قلتُ له:

- في بغداد!

قال:

- ما أدري!

لم أصدقه طبعاً فمن المؤكد أنه رتب الأمر برمته قبل قدومه إليّ ويعرف بالضبط الخطوة التالية، كان محقاً في ذلك فبعد هذا اللقاء الخاطف بأسبوع خطفوني من نقطة تفتيش وأنا في طريقي إلى الحلة وأروني الويل مرة أخرى برغم معرفتهم كل شيء

عني، إذ كنتُ مراقباً طوال السنوات السبع التي أعقبت اعتقالني الأول في 1971.

قلتُ له:

- ببش توصيني؟!.

قال:

- شيء واحد تنتبه لزوجتي وبنتي!.

قلتُ له:

- أش لون؟!.

قال:

- تتبع أخبارهم وراح أودّي من يسألك؟!.

قلتُ:

- تدلّل هذا إذا ما گتلونني!.

قال:

- لا أنت شقي وعمرک بقي!.

وَكَتَمَ ضَحْكَةً كَادَ يَطْلُقُهَا فِي عَتَمَةِ ظِلَالِ الْعَامُودِ الضَّيِّقِ. بعدها عانقني شاداً جسدي إليه بقوة، لم يكن حزيناً بل أحسسته قوياً قادراً. انفصلنا. ظلّ ممسكاً بيدي وعلى وجهه بسمه خفيفة. عصرتُ أصابعه الناعمة وكأنها أصابع أنثى غضة، طرية، حارة. سحبَ أصابعه من كفي الضخمة. واستدار مبتعداً في اتجاه مركز المدينة. لبثتُ في وقفتي ساكناً حيث كان يقف في

ظل المصباح أتتبع قامته إلى أن تلاشت في أفق الشارع العريض.

كانت غيبته الثانية!.

في الاستراحة خرجت من قاعة العرض خافطة الضوء إلى صالة المدخل المضاءة وتوجّهت نحو الكافيتيريا. طلبتُ فنجان قهوة، فمدتُ نادلة شقراء يدها بالكوب مع ابتسامة تراقصت في قسماتها الناعمة المتناغمة، نقدتها الثمن وأنا مسحور أكادُ أذوب بالوجه وحلاوة نبرة الصوت اللينة، حملته وقصدتُ مقعداً منزوياً. اتكأت على المسند الناعم وسهوت غارقاً في وضعي الملتبس هنا، ففي الأيام الأولى شعرتُ بنشوةٍ فريدةٍ، إذ وجدتني أتخلص من هول الرعب مرةً واحدةً، فلأول مرة في حياتي أجد نفسي في مكانٍ غير مهدد فيه.. إحساس بكر أتوقه وأتمتع به، فهنا تلاشى خاطر وجوههم المرعبة وهم ينقضّون عليك في كل مكانٍ، في المقهى، ومكان العمل، في الشارع وغرفة النوم ليأخذوك إلى غرفٍ رطبةٍ لا تراها وأنت معصوب العينين مقيد اليدين لتبدأ بعد ذلك رحلة الرعب والتعذيب والإذلال حتى تحس بأن حشرات الزنزانة العفنة أكثر حرية منك ولديها كرامة. الإحساس الغريب الآخر الذي انتابني حال حلولي في "بيروت" هو هشاشة سلطة الدكتاتور فمنذُ الليلة الأولى تحولتُ وكأنها ذكرى جارحة قديمة في طريقها إلى التلاشي والنسيان. وجدتُ بالجموع المدنية المسلحة التي تجوب الشوارع والتي تصادفها على الأرصفة، ما يدعوني للفخر بهؤلاء الثوار الذين كنتُ مؤمناً بأنهم سيفجّرون ثورة مسلحة في الوطن العربي تكس الحكومات الفاسدة والقامعة، هذه الفكرة وحدها في بداية السبعينيات كانت تجعلني أحلم حينما كنت في العراق وأتخيل

"سعد" الملتحق بالفصائل الفلسطينية، فكيف بي وأنا أعيش تفاصيل يومي وسطهم؟! لكن بعد مرور عشرة أيام بدأ الملل يتسرب إلى نفسي وأنا أتعرّف على الدوامة التي يعيش بها الهاربون من أبناء جلدتي، فبدأت أفكر بالعودة ناسياً الهول الذي عانيته في أقبيتهم مما دفعني إلى السفر مودعاً حبيبتي ناهده في صبيحة يومٍ مشمسٍ. أتتني هاربةً من مدرستها الإعدادية إلى بيت أختي - وداد - المتزوجة والساكنة "حي العروبة" والتي تكبرني، وكانت مدرّستها في مادة الكيمياء. وفي غمرة التقيل واللمس كنا نتواعد بحماس على اللقاء خارج العراق ولكن في دخيلتنا موقفين باستحالة ذلك، كنا نعللُ نفْسينا الحائرتين بين شدة الحب والرحيل. نسيْتُ رعي، وحننْتُ لكل شيء، صبيتي، أمي وأبي، أخوتي، الجيران، بقايا الأصدقاء ممن لم يهرب فانكسر ولازم البيت، الشارع، المقهى، العمل، شمس الديوانية، غبارها، سوقها المسقوف، مسني الوجْدُ وأذهب الهول الذي كنت فيه وأنا ألوذ في بيتي أرتجف من خاطر خطواتهم من أول المساء حتى وجه الفجر. لذلك قررتُ العودة بعد قضاء مدة إجازتي.

كنت أرتشف قهوتي شارداً عن زحام الصالة. وفجأة سمعتُ صوتاً يصرخ:

- سلومي.. سلومي أنت في بيروت.. حبيبي.. حبيبي!

سقطَ قَدَح القهوة من يدي، وهببت نحوه فاتحاً ذراعيّ. تعانقنا. ابتعدنا عن بعضنا ثم عاودنا العناق لمراتٍ عدة. كان يتلمسني بأصابعه وأنا كذلك كأننا نريد التيقن من وجودنا الفيزيقي، سألني:

- متى وصلت؟!.

- قبل عشرين يوماً

- لم يخبرني أحداً!

وأردف:

- نزلتُ من المعسكر قبل عشرة أيام!

كان يلهث، يريد إنهاء هذه المقدمة من الحوار.

قال:

- لنترك الفلم.

خرجنا إلى شارع "الحمرا" المكتظ، توجهنا نحو "الروشة". كنت أدرك مدى لهفته عليها. لكني لم أشأ الشروع بالحديث عنها متريثاً لكثرة ما سمعتُ هنا في "بيروت" عن حمى تبديل الزوجات والأزواج بين عائلات السياسيين الهاربين. إذ كان قد مضى على تركه المدينة قرابة عام.. ولا أدري ما تطورات وضعه الخاص. كنتُ قد تسقطتُ أخبارها بدقة، إذ كانت موظفةً في مصرف "الرافدين". لم يمر على اختفاء "سعد" سوى ثلاثة أيام حتى استدعيْتُ إلى دائرة "أمن الديوانية"، فسمعنا قصصاً تشبه الأساطير عن موقفها وما قالتها إلى مدير الأمن من كلام واثق يبين شدة تشبثها به، كانت تلك التفاصيل الصغيرة نهمس بها لبعضنا البعض بإعجاب متخيلين المشهد هي بقامتها الفارعة وجمالها الوحشي تقف منتصبَةً أمامَ قطيع الوحوش الكامنة خلف باب المدير، غير هيابةٍ تجيب على الأسئلةِ بمنطقٍ محرج. كنا نعزو موقفها القوي إلى جرأتها أولاً ثم إلى عدم تورطها في نشاطٍ سياسي فقد كانت معنيةً بجمالها وأنوثتها، وملبسها، وأناقتهَا، وعملها فقط. وحينما تسير في الشارع لا تفضّل على

عيون الرجال المستجدية بنظرة. تكرر استدعاؤها، وفي كل مرة نسمع تفاصيل جديدة عن صمودها الذي أذهلنا، فكانت الأحاديث حولها تدور بالأسن مندهشة وعيون مبجلة إذ كانت سيرة "سعد" في المدينة تضي على موقفها بعداً أسطورياً، وكان الملفت أنهم يطلقون سراحها بعد ساعات، لم يتوقف أحدٌ عند هذا السر، فالسلطة كانت شديدة الشراسة، فالعديد من النسوة عذبن واغتصبن.

جلسنا في بارٍ شعبي صغير، مشاد من الخشب، مفتوح على البحر وصخرة "الروشه" مرئية تشهق على يسار جلستنا، بدأنا نحتسي البيرة على مهلٍ، وبعد عدة كؤوس سألني بصوتٍ خافتٍ مرتجفٍ بالغاً اللحظة التي أجّلها طويلاً:

- ما أخبارها؟!.

ولاذ مترسباً في صمتٍ قلقٍ. حكيتُ له ما سمعته عنها في المدينة بتفصيلٍ دقيقٍ، فرأيتُ النشوة تنبثق من عمق عينيه كلما تقدمتُ في التفاصيل إلى أن فاضت على قسماته التي راحت تلمع وتضيء وما أن ختمت قصتي حتى قفز من كرسيه صارخاً:

- سنشرب نخب "نيرانى" العظيمة، وعلى الطريقة العراقية!.

هرع إلى البار بخطواتٍ قافزة. جلبَ لتراً كاملاً من عرق "توما". وضعه في منتصف المنضدة الرثة الصغيرة. ورتّب لنا كأسين. عبيناهما دفعةً واحدةً. أرخى رأسه على مسند الكرسي وأبحر عيناها في أفق البحر الغائم. تركته ينعم بالصمت والخيال فمن المؤكد أنه يرسم المشاهد التي رويتها بخياله ويحسها بأصابعه وهي تقف بشموخ تحاورهم وترفض التخلي

عنه. تشاغلْتُ في مراقبةٍ ما يفعله رائد البار الوحيد الجالس في الركن الآخر المطل على الجادة الجبلية الضيقة. كان رجلاً في منتصف العمر، رث الملبس، ملتحيًا، زائغ النظرات، جزع الملامح، شديد النحول، حول شفثيه زبدٌ أبيض وكأنه كان قد تكلم أو صرخ كثيرًا. نهض ونضا عنه قميصه فظهر جلده الناحل مغطى بأشجار الأرز موشومة بأحجام مختلفة على صدره وظهره وذراعيه ووسط حشد الأشجار جملة بحروف كبيرة "لبنان بلدي". اقترب من النافذة الخشبية العريضة المفتوحة على الرصيف الضيق وأخرج نصفه الأعلى منها وراح يصرخ صراخاً متواصلاً بصوتٍ مذبوح:

- وَيَنُكْ يا بلَدي.. وَيَنُكْ يا لبنان؟!

ثم يستريح دقائق معدودة ويعاود الكرة ونبرة صوته ترق وترق توشك على البكاء.

رجع "سعد" إليّ من أفق البحر وطلب إعادة رواية ما رويت. ففعلتُ. ثم راح يحدثني عن حلمه بقيام الثورة المسلحة بدءاً من الجبال ونزولاً إلى الأهوار.

قال:

- المئات من الرفاق يتدفقون إلى معسكرات التدريب في الجنوب قادمين من شتى أنحاء العالم، سنقود الثورة ونطورها ونزحف نحو المدن ونحررها الواحدة تلو الأخرى.. وسندخل المدينة تلو المدينة سندخل الديوانية بسلاحنا ونقيم الوطن الحر والشعب السعيد!.

كان يتكلم بلغة قريبة من الفصحى وبحماس وبصوت قوي يتقاطع مع صراخ اللبناني النادب ضياع وطنه، العرق وأخبار

زوجته "نيران" جعلاً من الأحلام ليست قريبةً فحسب بل بين الأصابع.

كانَ في وادٍ وأنا في آخر.

سألني:

- أش وگت تلتحق بالمعسكر؟!.

لزمْتُ الصمتَ طويلاً وتشاغلْتُ هارباً من نظراته المنتشية،
بالتحديد بعيداً في أفق البحر الذي بدأتْ تشحبُ زرقته مع نزولِ
قرص الشمس إلى عمق الماء. كان صراخ "وينك يا لبنان..
وينك يا بلدي" يملأ البار والرصيف والغروب وأفق الماء
وصمتنا الذي بدأ يضطرب. احتسيْتُ جرعةً أخرى من كأسِي
وهو يردف باللهجة اللبنانية:

- ما تحكي شو في يا زلمه؟!.

قلْتُ له جملةً نزلتُ عليه كالصاعقة:

- لَمَنْ تَخَلَّصَ إجازَتِي رَاجِعْ للعراق!.

أنفض متقدماً بصدرة إلى الأمام قليلاً، ثم جمد ورمقني
بعينين مستغربتين، فأردفت:

- أسمع "سعد" الوضع هنا ما عجبنِي، فوضى في كل شيء،
مجاميع مسلحة تتقاتل في أي لحظة ولأتفه الأسباب عند
الحواجز، كل حزب وحركة يسيطر على حي من أحياء بيروت،
جماعتنا يتناقشون ويتعاركون بالأيدي ليلاً في حومة السكر،
ويتسللون تحت رصاص القنص إلى خط التماس ليشاهدوا أفلام
جنس رخيص. جوع، أمكنة السكن رثة. ألا تسمع هذا اللبناني
الناب وطنه.. أسمع.. أسمع!.

يجري إلى شركاتها، وليذهب العراقيون إلى الجحيم. قلت مع نفسي:

- أينَ أنتَ يا سعد؟.

- تعال لترى ما صار إليه بلدنا؟!.

- أينك.. أينك؟!.

كدتُ أصرخ وسط المقهى مثل ذلك اللبناني المجنون في بارٍ رثٍ على ساحل المتوسط:

- وَيُنْكَ يا عراق.. وَيُنْكَ يا بلدي؟!.

الشمسُ ارتفعت في السماء المغبرة، قمتُ من مكاني، حملتُ كرسيي إلى ظلال شجرة قريبة من النهر، أدركتُ وجهي للضجيج ومدخل سوق التجار، واجهتُ مجرى الماء وبنائية البريد متخيلاً اللحظة التي سأقارع فيها الباب مخمناً شكل وجهها اليافع المنتظر بلهفة مقدمي وروايتي.

ترسبنا في الصمت، واللبناني النادب بلده تعب فعاد صوته واهناً يردد جملة وهو جالس على كرسيه بينما "سعد" يحملق في وجهي منتظراً.

قلتُ:

- ما أحتاج هذي التجربة يا "سعد"، ما عندي علاقة تنظيمية بالحزب، إني في إجازة من عملي لمدة شهر، غير مطلوب. وقعتُ تعهداً بعدم العمل بالسياسة وعندي قصة حب كقصتك، باختصار شديد أريد أرجع وأتزوج، وإذا كنتم فعلاً راح تبنون قواعد بالشمال، وصار وضعي سيء، يكون أسهل عليّ ألتحق من هناك، بلا مخاطر عبور الحدود السورية التركية العراقية.

أمعن في الصمت والحملقة بالبحر الممتد خلفي، بسقف البار الخشبي الواطئ، بالكأس بين يديه، بوجهي المنتظر ردة فعله، بدا على ملامحه سمات من يفكر ويحلل ويحسب ما يريد قوله، طأطأ رقبته ناظراً إلى أرض البار ثم رفع رأسه وحدّق نحوي بعينيه الزرقاوين اللتين أوشكتا على السكب قبل أن يمد ذراعه الأيمن ويرفع كأسه ويقول:

- لنشرب نخب كل شيء، فوضى بيروت والديوانية والعراق، و "نيراني"، وحببتك، والثورة القادمة !.

وضرب حافة كأسه بكأسي مضيفاً:

- وإذا بقينا أحياء سنلتقي!.

بعد ذلك الكأس لا أدري في أية مواضيع خضنا إذ لم أعد أتذكر شيئاً سوى نحيب الصعلوك اللبناني الذي أخذ يلطم على رأسه وصدره العاري ويصرخ:

- يا اللبنانيين لبنان ضاعت.. ضاعت.. ضاعت!.

بين ضحكات المارة وتعليقات الرواد الذين اكتظ بهم البار الصغير مع حلول المساء.

استيقظت على شخير قوي، ضاج، متنوع النغمات، فوجدتني وسط حشد من الرجال يستلقون غارقين في النوم في غرفة واسعة وإلى جوار ي يستلقي "سعد" دون حراك غاطاً في غفوة كأنه ميت، أخبرني لاحقاً بأن هؤلاء الرفاق سيلتحقون بالثوار عبر حدود سوريا الشمالية الشرقية ليدعموا نواة القواعد الأولى. قضينا الأيام العشرة المتبقية متلازمين نزور المخيمات ومقرات المنظمات الفلسطينية ونجلس في مقهى "أم نبيل" المقابل

للجامعة العربية في منطقة "الفاكهاني" طوال الصباح، نتصفح الصحف الصادرة ونتحدث عن أعلامنا المختلفة، كان يطلب مني إعادة سرد المرات التي صادفتُ فيها زوجته، مستفسراً عن ألوان ثيابها، حذائها، تسريحة شعرها، أشياء صغيرة جداً لا تخطر على البال، فكنْتُ أَتَفَنَّنُ بوصفها وكأنني أرسم لوحة. وأبألُغُ في وصف طفليتيه اللتين لم أصادفها سوى مرة واحدة وسط السوق بصحبة خالهما الذي قتلوه في أحداث 1991. فبادلته الحديث وحملتُ الكبيرة ورحت ألعبها برميها عالياً في الهواء ولقفها، رميها.. ولقفها ووجهها الجميل يتضرج وهي تكرر كلما هبطتُ لتستقر بين كفيَّ المشرعتين. جعلتُ المرة عشرأً، وفي أمكنة مختلفة وزعتها على سنة غيابه. أية سلام وطمأنينة ونشوة أنبعث من قسماته الجميلة وهو ينصت للتفاصيل المختلفة التي أرويها بحماس وكأنها تحدث ساعة الروي.

كان يقول معقّباً على كل مشهد:

- وَدَيْتُكَ السماءَ رحمةً بحالي. قبل ما تجي كنتُ ما أنام الليل وأخفي ذلك عن الرفاق، أكثرهم تركوا زوجات وأطفال. كنتُ أخاف أثيرُ شجنهم. والشجنُ يا صديقي في وضعنا يحبطُ العزمَ ويورثنا العجزُ!. بينما نحتاجُ إلى كل ما يقوينا حتى نَتَحَمَّلُ الصعابَ والفراقَ ونوصلُ لحلمنا.. كفاح مسلخُ يا صديقي..... وبالعراق!..

كان يقول جملة الأخيرة "العراق والكفاح المسلخ" وكأنه يردد تعويذة سرية مقدسة تتسامى على وضعه والمحيط بكل ما فيه، وقتها كان حلمي لا يختلف كثيراً عن حلمه، لكني كشأني منذُ تجربة اعتقاله الأولى بقيت على مسافة متوجسة من الإقدام

تغذيها ثقافتي الممتدة إلى أبعد من الماركسية.. إلى جذور الوجودية والصوفية ممزوجة بتجربة الجسد وهو ينتهك في زنازة رطبة عفنة، بينما كان إيمان "سعد" صافياً بالماركسية - اللينينية فقط التي تُخَطِّي كل ما عداها وصفاء المناضل الذي فَلَّت طوال حياته من تجربة الاعتقال.

قضينا الأيام العشرة المتبقية من إجازتي معاً، وفي يوم سفري إلى دمشق في طريق عودتي براً إلى بغداد. فاجأني كعادة الحزبيين الحنيليين بأنه سيسافر معي في طريقه ليتسلل إلى الجبال عبر الحدود، وأضاف مفاجأة أخرى بإعلانه أن "ناصر عواد" وأسمه الحركي بين الأنصار المقاتلين (أبو سحر) أسم رومانسي لا يتناسب تماماً مع شخصيته الحوشية، وهو من أبناء مدينتنا أيضاً، ومن الشخصيات الشعبية الطريفة التي تحيل كل تفصيل يومي إلى نكتة، كان مثله تماماً في قناعته المطلقة بقدرة حزبه على جلب الجنة من السماء إلى الأرض، لكنه أكثر شهرة ببدائية سلوكه وعفوية تعليقاته، والده كان يملك مقهى تحمل اسمه يلتقي فيها رجال اليسار كل مساء، وكان قد هرب أيضاً إلى ليبيا قبل الحملة وعمل هناك قبل أن يلتحق في معسكرات التدريب في الجنوب اللبناني. عند نقطة "المصنع" الحدودية اعتقلا من قبل شرطة الحدود اللبنانية لاكتشاف جوازاتهم العراقية المزورة بينما أطلق سراحني، فأخذت معي حقائبهم وسلمتها في دمشق إلى مقر "الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين" التي دربتهم في معسكراتها، لكنني في المساء نفسه وجدتهم في بارٍ بدمشق. ولما أبديت عجبني انخرطاً في ضحكة عاصفة وأخبراني بأن الأمر ليس مثل العراق فالشرطي اللبناني أو السوري فاسد يقبل الرشوة وتستطيع فعل كل شيء، وقصا

عليّ الطريقة التي رشوا فيها شرطة الحدود فأطلقت سراحهم بعد ساعات، في تلك السهرة همس "سعد" بأذني وكان يجلس على كرسي جوارى، بأنه كتب رسالة إلى زوجته وسيكون أسعد إنسان لو أوصلتها، وافقت على الفور فأوضح قائلاً:

- تسلمها لأختي موظفة في دائرة البريد.

كنتُ شديد الحذر وأدرك جيداً بأنني سأدخل الجحيم مرة أخرى من بوابته المفتوحة وهذه المرة باختياري. قلتُ له:

- كن حذراً يا "سعد"!

ملحاً إلى مضمون رسالته، فطمأنني بأنه لن يكتب أي تفصيل، مجرد تحيات وأشواق حتى دون ذكر اسم، فهم يعرفون خطه. مع ذلك قمت بفتح الرسالة ما أن انطلقت الحافلة من المحطة، وغابت قامتيهما هو و "ناصر عواد" الذي سلمني بدوره معطفاً عسكرياً ثقيلاً هديةً لأهله. كانت رسالة من عشرة أسطر تتضح شوقاً وحباً وأملًا.

أجلس في مقهى "الراية" وقيالتي تماماً عبر النهر الصغير بناية دائرة البريد شبه المهجورة الآن. أنحصرَ الفياء والشمس بلغت منتصف السماء. أصبح الوقت ثقيلًا، ضجيج المدينة احتدم لحظة انفجار أذان الظهر من مئات مكبرات الصوت في جوامع المدينة التي وجدتها قد تكاثرت بشدة، ها هو الصباح قد مرّ وعافني في باطن الظهيرة ورؤيا "سعد" تعاشر أنفاسي منذ بكرته.

هاأنذا أطلُّ من جلستي عليّ، فأراني أسير على الرصيف في الجانب الآخر من النهر في صباح خريفي من أصباح 1979. أخطو يافعاً مكتظاً بالأسئلة والحلم ووجلاً في الوقت نفسه،

أخطو نحو بوابة دائرة البريد، أتلقتُ بين الفينة والأخرى، حذراً من أن أكون مراقباً، أتلمسُ الورقة الصغيرة الراقدة في جيب قميصي.

ها أنا أعبر عتبة البوابة إلى القاعة الواسعة، فيحتويني الظل المنعش. اقتربُ من نافذة موظفةٍ منهكةٍ بتقليبِ أوراقٍ أمامها على المنضدة وأسأل عنها فتشير نحو شباكٍ منزوٍ، خلفه تجلس امرأة ترتدي قميصاً أبيض وشعرها الأسود الناعم يهبط طويلاً يحيط بذراعيها، كانت مشغولة مع مراجع، أترك مسافة أمتار منتظراً، أتفحص ما حولي. أرفع رأسي إلى السقف العالي، كان الوقت مثل هذا الوقت بالضبط؛ منتصف الظهيرة، وبغثة يظهر خلفي شخصٌ يجعلني أرتعش مثل سعةٍ في مهب ريح، رفيق طفولة نشأنا معاً لكنه بعد الثالث المتوسط تطوع ليصبح شرطي أمن، قام باعتقالي قبل سبع سنوات أي عام 1972 على دراجته الهوائية بينما كنت أذاكر تحت الجسر المعلق استعداداً لامتحان السادس الإعدادي. بادرني:

- ها أش لونك؟

أجبتَه مرتبكاً:

- أهلا عيني أنت أش لونك؟!.

أفكر بالتراجع، لكنني ألمح المراجع يغادر شباكها، يهم بالكلام، أترخص منه أقطع الأمتار التي تفصلني عن نافذتها متصنعاً التماسك بينما كنتُ أرتجف بكل كيائي. أسلم عليها بصوتٍ خافتٍ. ترمقني بعينيها السوداويين الواسعتين بنظرة ذكية فاحصة، لم تحزر غرض قدومي فحسب بل وكأننا على

موعدٍ، أخرج الرسالة من جيبِي على مهلٍ مخمناً أنه يراقب كل خطوة من خطواتي. أقول لها بهمس:

- رسالة من "سعد" .. هو في بيروت!..

يتهلل وجهها فرحاً، يبرق للحظة، تكتم دفق السعادة تتلفت. تأتلق قسماتها البيض، تغور عيناها الممتتان في عيني، أحسّها تحاول كبتَ مشاعرها كي لا تطير من كرسيها. تتلمس الظرف الذي رتبته وكأنني أودع رسالة بأصابعها الطويلة الناعمة وتهمس بخفوت:

- ليشَ ما جِبتَه وياك؟!..

أبتسم لها وأسلم مودعاً.

لم أرها منذ ذلك اليوم.

لا تدري يا "سعد" كم تحبك أختك.. لا تدري كنتَ سادراً في حلمك لا تأبه بالمحبين المحيطين بك والذين يفتقدونك وهم يتلمسون ورقةً مرّتْ أصابعك على سطحها بقدسيةٍ وخشوعٍ، وأن كنتَ تدري فأنتَ لم تهتم. كنت طائراً في حلمك وأنا كذلك.. لكن قُدِرَ لي البقاء حتى زمن الكهولة لأكتشف أية قسوةٍ عاملنا بها محبيناً. غادرتُ البريدَ وأنا أتخيل وقع الرسالة على نيرانك لحظة استلامها. رأيتها بخيالي تطير فرحاً. تعيد قراءتها آلاف المرات وهي المشحونة بعطر جسدك اللصيق بها في ليل الفراش. تخليتُ وأنا أعبر جسر الديوانية القديم، المتعة الخالصة التي تمكّنتُ بفعل الصدفة توفيرها لنيرانك وطفلتيك وعائلتك، وأنت خير من يعرف شطح خيالي الذي أورتني لحظات سعادة خفية لا تحصى.

- "سعد" يا "سعد" أين أنت الآن؟

- "سعد".. يا "سعد" أورتنتني حزن قصتك وأنا أكاد أدلف عتبة الستين!

- سعد.. ما أمرّ اليوم.. ما أمرّ الظهيرة، ما أمرّ امتحان عسير ينتظرني كي أغلف صفحة كتابك الأخير بعد ساعات!.

* * *

في يوم من أيام شباط 1985. عدت متعباً. قبلتها بشغف. نزعْتُ حذائي العسكري الثقيل، وقطعتُ المسافة نحو سريرنا العريض واستلقيتُ منهكاً، إذ لم أنم طوال الليل في القطار الصاعد من البصرة، ولم أزل محشوداً بضجيج القصف المدفعي المتبادل طوال اليوم على جبهة الحرب مع إيران، كنتُ مهدود القوى، ليس جسدياً فحسب بل نفسياً فقد كنتُ أعاني في الشهر الأخير معاناةً مركبةً، متوتراً طوال الوقت غير آبه بما يحيط بي برغم القصف الكثيف، لا يمر أسبوع دون أن يسقط عدد من جنود وحدتي قتلى أو جرحى. كنتُ أرى الموت بقذيفةٍ مواتاً أسهل من موتٍ في أقبيتهم لذا كنتُ ألقمُ بندقيتي الشخصية طلقةً وأترك صمام الأمان مفتوحاً وأضعها تحت وسادتي مستعداً لمواجهتهم هاجساً بقدوم تلك اللحظة لا محال، فقد أعتقل قبل شهر صديقي معلم الابتدائي "جميل مگط" الذي له صله حزبية بزوجتي، (سيعدم وتسلم جثته في العام نفسه) يضاف إلى ما أسر به في آخر إجازة صديقي الشاعر "علي الشباني" عن كتاب معمٍ على كل وحدات الجيش العراقي من مديرية الاستخبارات العامة قرأه صديقنا "ناظم كتان" وكان جندياً احتياطاً في قلم

"مركز تدريب الحلة"(سيقتل ناظم في جبهات الحرب العراقية الإيرانية لاحقاً)، الكتاب يذكر اسمي كاملاً، ويطلب من الوحدة التي أتواجد فيها الرد بكتاب سري وفوري، وكان الصديق نفسه قد أخبرني قبل عامٍ أن الأمن يدقق في موضوع يخص أخ لي اسمه "علي" هاربٍ خارج العراق. والخبر عرفه صديقي الشاعر عن طريق "فرهود" مختار محلّتنا المقترن بأخته مما جعل المختار يضحك مشيراً إلى طفلٍ صغيرٍ يلعب في الشارع ويقول لهم:

- ذاك "علي" يلعب بالشارع يا خارج!.

لكن رجال الأمن أصروا على وجود أخ يكبرني هارب خارج العراق حسب المختار.

أخرسني الرعب.. فقصّة "علي" المطلوب كتمتها كتماً شديداً، فالسبب أعرفه وحدي ورفاق كانوا مختلفين قبض عليهم وأعدموا قبل سنتين، الحكاية تعود إلى صيف 1979 وتتعلق بشخص اسمه "علي" أيضاً بعثوه من بغداد كي أخفيه لفترة حتى يرتبوا أمر سفره سراً خارج العراق إذ كان معتقلاً وأُفرج عنه قبل أيام فأخفيته مدة شهرين، وعرفت منه أنه كان طالباً في الجامعة التكنولوجية، صمد، فأطلق سراحه من مديرية الأمن العامة ومعرض للاعتقال ثانية، وكانت تلك خطة الأمن في ذلك الوقت يجعلون المعتقل يرى الجحيم لشهر أو أكثر أو أقل فإذا صمّد يطلق سراحه، يتنفس الهواء ومباهج اليوم والحياة والدفء ليعاودوا اعتقاله فينهار. أسكنته في بيتٍ مستأجرٍ لمعلمين يساريين من مدن أخرى عن طريق صديق شاعر أيضاً ومعلم

من الحلة "رعد كريم عزيز" وجدته عند عودتي للعراق يعمل بقتاة الحرة الفضائية، لكن ذلك الـ "علي" الذي يبحث عنه الأمن خدعني حينما أخبرني بأن الجماعة يقصد التنظيم الشيوعي يستطيعون ترتيب أمر خروجي من العراق، كان ذلك قبل سفري إلى بيروت وعودتي، فسلمته وثائقي كلها بسداجة الثقة بالآخرين والاعتقاد بالمناضل، دفتر الخدمة العسكرية، دفتر النفوس القديم قبل أن يتحول إلى بطاقة. شهادة الجنسية العراقية، أخذها واختفى تماماً. بعد مرور شهرٍ قلقْتُ. راجعتُ دائرة نفوس الديوانية، وكان من حسن حظي أن الموظف الذي كان شرطي أمن منسب للعمل في دائرة النفوس مقترناً بابنة خالة لي وكنت قد التقيتُ به مرةً في عيدٍ من الأعياد في جلسةٍ عائليةٍ، فلم يدقق في الملف، بل قال لي:

- قبل شهر طَلَعْتُ بطاقة أحوال شخصية!.

- ضاعَتْ!

أجبتُ على الفور مخمناً أن في الأمر ما يريب.

- جيب طابع أبو دينار!.

أسرعتُ بالخروج واثقاً، بأنه وليس غيره، حصل على هوية أصلية تحمل اسمي وصورته. تسلمتُ الهوية البديلة، اتصلتُ بمن بعثه وكان مختفياً وقتها في بغداد فاعتذر وأعاد لي بعض من وثائقي. ظننتُ أن الأمر مرَّ بسلام، إذ مرّت قرابة خمس سنوات على تلك الحكاية. لكنها أثيرت عقب التبليغ عن إعدام "كفاح" أخي بسنة ونيف. من المؤكد أنهم اكتشفوا الأمر حينما سقطوا أخي من سجل النفوس باعتباره ميتاً، فلاحظ الموظف

وجود طلبين للحصول على بطاقة الأحوال الشخصية واحد باسمي وصورتي والآخر باسمي وصورة "علي" الذي أخبروني لاحقاً بأنه تمكّن من السفر خارج العراق.

- أي رعبٍ كان يهزني كل ثانية في ليل ونهار الجبهة خلال الشهر الأخير؟!.

كانت زوجتي تدور حول السرير تتحدث بشيءٍ ما بينما كنتُ أتأرجح على حافة الغفوة شاعراً بأنني ألجُ رحم أمي، آخر ما أتذكره، جسدها يتوسد الفراش قرب قدمي وأصابعها الناعمة تتغلغل بين ساقي والجوارب العسكري. بعدها سقطتُ بالنوم كالميت.

باعدتُ أجلي طالماً من موات الغفوة وكأني ألج العالم من جديد، حسدتُ الميت من كل قلبي، لكن أين هو الموت الذي يدور حولي بالثواني دون أن يحضنني، ويخلصني من عذاب تضمره لي أقبية سأرى فيها جهنم وهذه المرة سأضبط ملتبساً ليس كالمرات السابقة حينما كنت مشتبهاً به.

كانت الشقة ساكنة، دورث عيني بأرجاء الغرفة. قبالي امرأة الزينة وطبالتها الناصية حيث تجلس في أيام زواجنا الأولي كي ترتب ماكياجها قبل عبور عتبة السرير، صور تجمعنا، حمضتها وكبرتها بمشغلي بعد عودتي من بيروت، منتشرة على مناضد السرير ومنصة الشباك الواسع، حدقت بنعاس إلى السماء الناصعة الزرقة التي تبدو بوضوح عبر الزجاج، وحلمت بالطيران، أحملها وأطير بها إلى الجبل حيث الثوار، حلمٌ كان هو منفذي الوحيد من ميتة بشعة دانية أتوقعها في كل لحظة. ومن الباب ظهرت بقامتها الهيفاء المشدودة شداً. اقتربتُ

وانحنث عليّ فغمرتني رائحتها البرية المسكرة، رائحة جلدها
المخدرة التي جعلتني أرفض بشكلٍ قاطعٍ وضعها لأي عطرٍ.
همست:

- نَوَمْتُ كفاح.. وحضرت كل شيء!.

كان عمر ابننا آنذاك يقترب من عامه الثالث. نهضتُ بعناءٍ.

قالت:

- أش بيك حبيبي ما صدغتُ ترجعُ بإجازةٍ أُنِي في حلم!.

سحبنتني من ذراعي الأيمن بنعومةٍ. كانت في قسماتها بهجةٌ
لم أفهم من أين أتتها وسكنتها وسط كل ذلك التوتر والموت
والقلق في تلك الأيام التي كنا نعتقد بأنها أمرٌ ما مرَّ بالعراق،
ولم نتخيل بأن القادم سيكون أعظم، والأمرُ سيأتي في السنين
القادمة، احتلال أجنبي، مليشيات طائفية تقتل على الهوية، كذب،
دجل، سرقة، حيث لا معنى لمفردة العراق الحر السعيد الذي
حلّمنا بها.

مازلت جالساً قبالة البريد وخاطر "سعد" وأخته والرواية التي
يترتب على روايتها بعد ساعات أخذني إلى تفاصيل حميمة
صغيرة منسية فهاأنذا أرى نفسي مستسلماً لأصابعها التي التفت
حول ذراعي مخدراً بعطر جلدها المدوخ. أخذتني إلى الصالة
فوجدتها مشتعلة بالشموع والمنضدة مليئة بصحون المقبلات،
سلطة، لبابي، باقلاء مسلوقة، زيتون، حمص بطحينة، ليمون
مقطع، شرائح لحم متبل ومقلي، لبنٌ رائب، طرشي، وقنينة
العرق التي أعشقها وتكرهها تشمخُ واقفة مثل قديس وسط
المائدة. المثير للاستغراب ذهب قلقها الذي كان يسم قسماتها
وعينيها وحركاتها فيجعل اضطرابها يتسق مع اضطرابي في

أجازاتي السابقة. بدأت أخمن مقترباً من السر، فقد يكون لديها خبرٌ فيه الفرج من وضعنا المكبوس، فهي الأخرى مراقبة رقابةً تكاد تكون شبه سجينة. فمندُ خروجها من بيت أهلها المقابل لإعدادية الديوانية للبنات في طريقها إلى دائرتها، مديرة العقاري الديوانية التي كانت وقتها في الطابق الثاني المجاور لمحكمة الديوانية الحالية تجذُ مفوض أمنٍ يدعى "منذر شيخ جاسم" (سيغتنقه المنتفضون في آذار 1991 ويحاكمونه ويعدمونه قبل هروبهم إلى السعودية عبر صحراء السماوة) ينتظرها أمام الباب على الرصيف المقابل ويتعقبها حتى دخولها الدائرة ويجلس في الممر قبالة غرفتها حتى نهاية الدوام ليسير خلفها حتى البيت. وعندما اشتكت إلى مديرها أخبرها بأن القضية أمنية تفوق طاقته. سفتني كأساً وقالت:

- يوم الخميس.. نلتحق؟!.

- شنو؟!.

قلتها، وجمدتُ غير مصدقٍ.

- يعني بعد يومين!.

استوعبت الكلمات فلم أتمالك نفسي. هببتُ من الأريكة قافزاً متسائلاً:

- أش لون؟!.

- رتبْتُ الأمر!.

- الخميس نسافر إلى بغداد وهنالك نلتقي برفيق يوصلنا للجبل.

- عن أي طريق!.

قالت

- ما أعرف.. المهم لا تقلق راح نكون بأمان بعد يومين!.
كانتُ تتحدث بلهجةٍ واثقةٍ وكأنها إله. وكنْتُ بطبيعتي أشك في كل ما يحيط بيّ من أخبار، فالعديد من أصدقائي ضيعتهم مثل هذه الأمانى والثقة المفرطة مثل التي أسمعها من قرينة روعي.
استفهمتُ بخفوتٍ حالماً:

- يعني بعد ما أشوف الجبهة!.

- لا.. أطمئن الجمعة أحنه بالجبل!.

أغمضتُ عينيّ واضعاً رأسي على مسند الكرسي الوثير
راغباً في النوم مرةً أخرى، لكنها جهّرتْ بخبرٍ جعلني أنتفض
من جلستي وأستقيم بنصفي الأعلى متوتراً ما أن أنهتُ جملتها
الأخيرة:

- تعرف؟.. "نيران" طَلَّقْتُ سعد ومتزوجة من ضابط كبير
بالأمن!.

- معقول!.

أذهبَ الخبر بكلٍ تعبٍ.

قلت:

- أش لون عرفت؟!.

- الجماعة كلّفوني بمعرفة أخبارها فذهبت بنفسي قبل يومين
إلى مصرف الرافدين. رحت لشباكها. تعرف هي كانت طالبة
معي بالابتدائية والمتوسطة، لمن رفعتُ رأسها من الأوراق
بهرني جمالها وملبسها وطريقتها في الحركة. قلت لها مباشرة:

أنتِ زوجة "سعد" فردت بهدوء:

- كنتُ!.. بس هسه متزوجة من رجل آخر!.

صبيت كأساً وجرعته دفعةً واحدةً متخيلاً وقع الخبر عليك،
رأيتُ المشهدَ ورسمتك حياً معنا تلك اللحظة تسمع ما سمعتهُ
فماتت قواي، أغضت عينيَّ منهوباً، ناسياً ما يحيط بي من
أهوال قبل أن أنتفض مردداً:

- قُتِلتَ يا سعد!.

قلتها فصيحةً. وصبيتُ كأساً آخر متجاهلاً دهشتها من ردة
فعلي العنيفة. كانتُ تقول:

- حقيرة.. مو وفية!.

-!

كنتُ في وادٍ وهي في وادٍ. لا تدرك مدى تعلقك ولهفتك عليها
التي رأيتها بجسدك وعينيك وكيانك وأنت تسلمني وريقتك
الصغيرة المكثفة في بيروت قبل خمس سنوات. ولا تدرك مدى
مخيلة وأحلام الثوري التي يشكل عالمه الداخلي سر أسرار
تماسكه، وبينما كنت أخوض في وضعك وأعب الكؤوس كأساً
بعد كأس صامتاً متجهماً أثار جح على حافة البكاء كانت زوجتي
التي تشبهك في الإيمان تقول:

- هو أشرف منها.. وراح يلغي اللي تفهمه وتحبه!.

لم تكن لدي في تلك الجلسة رغبةً في الحوار وأنا مطحونٌ
بخبر خفوت نيرانك، كنتُ راغباً في التلاشي والغياب متخيلاً
وضعك وضعي فماذا سأفعل لو فقدت زوجتي بهذه الطريقة؟..
وضعتُ نفسي بمكانك وغصتُ في خسارتك حتى القاع. ليلتها

خَرَّبَ خبرك أشواقِي لزوجتي، وجعلني أجود بنفسِي مثل
مذبوح، أعبُ وأعبُ من العرق العراقي.. حتى الرقص قلت لها:

- داخل حسن.. داخل حسن -!.

وجعلتُ أنشَجَ مثل أمٍ فقدتُ وحيدها وهو يُنغمُ أسْمَكُ:

(بؤيه سعد يا بؤية

الونه طالت يا سعدُ يا بؤيه)

لأسقط في نومٍ عميقٍ، عميق وكأنني لم أكن.

* * *

انحدرنا من قمة جبلٍ في طريقنا إلى القاعدة التي كنت
متواجداً فيها وكأن القدر قد رتبَ لقاءنا. لا أدري هل وصالك
خبر التحاقنا وأنت في قاعدةٍ بعيدةٍ إذ وجدتُك تنتظرنا على ضفة
"الزاب الأعلى" ملوحاً بيديك، لم أعرفك للوهلة الأولى بملابس
الفلاحين الأكراد وأنت تقفز وتلوح وتصرخ، أبديت استغرابي
من هذا الرفيق المجنون المضطرب ونحن ننحدر على طوافة
عائمة من الخشب، ولم أتبين ملامحك إلا حينما نزلنا فأقبلتْ
مبتهجاً بعينيك الزرقاوين وقامتْك المشوقة متوسطة الطول. كنا
متعبين جداً بعد عناءٍ ومشقةٍ النفاذ من مدننا النازفة والجارحة.
تعانقنا بشغفٍ وكان في عينيك سؤال هو ذلك السؤال في لقاء
بيروت، بينما كنتُ مرتبكاً، ضاحجاً بتفاصيل الحوار. فما أن
تمكنا من بلوغ مناطق الثوار حتى دخلتُ في نقاشٍ عويصٍ معها
حول الطريقة التي خبرك فيها. وكنا على خلافٍ تامٍ، فشلتُ في
إقناعها بترتيب قصة تشي بشيء ما دون خبر قاطع، كانت تبغي
أخبارك الحقيقة كما هي كاملة، مبررةً ذلك بكونك ستشفى من

أملها وتبدأ بحياةٍ جديدةٍ دونها، لم تفهم ما ذهبتُ إليه ظانّةً أنني أبالغ في وصف مشاعرك إذ أنني أضخم الأشياء دائماً وأعطيها أكبر من حجمها الحقيقي. كان لديها منطقٌ مختلفٌ قاطعٌ متأتٍ من قناعةٍ أيولوجيةٍ غير قابلةٍ للنقاش. كانت تردني قائلة:

- هي التي اختارت طريقها بالحياة.. وبدلتُ وضعها.

وهذا صحيح جداً ومنطقي، لكن كنتُ أحسّ وقعَ الخبر عليك، ولست بقادرٍ على أداءٍ مهمةٍ كهذه.

قلتُ لها ونحن ننام في مغارةٍ في جبلٍ القوش أولَ يومٍ وصولنا:

- طيب تجاهلي الأمر وكأنك لم تعرفي!.

أجابت بكل عنفوان:

- يعني أكذب!.

قلت:

- راح تقتليه!.

- من يقول؟!.. يجوز العكس، يرتاح من القلق وينساها، هوَ مناضلٌ أشرفَ منها.. وهي ما تستأهله!.

عندها قدرتُ أنها عازمة على تنفيذ المهمة الموكلة إليها بأمانة. فخلدتُ إلى الصمتِ، ولم أفتح الموضوع مرة أخرى. خفت الصراخ والترحيب فطلبتُ أن ننفرد قليلاً أنا وأنت وهي. انحدرنا في عمق الوادي حتى ضفة النهر الصاخب. كنتُ مرتبكاً من وجهك المزدهم بالأسئلة. أصغي إلى موج الماء يهدر مرتطمًا بالصخور، إلى غناء طائر في الغابة المجاورة،

إلى وقع أقدامنا على الصخور متشاغلاً لا أعرف كيف أتخلص من لحظة المكاشفة، وحينما سألت عن الكيفية التي تمكنا فيها من الوصول إلى مناطق الثوار وجدتها فرصة لتأجيل الكلام، فأسهبتُ في ذكر تفاصيل مفرعة كادت تؤدي بنا، فالرفيق المكلف بإيصالنا تصرف بسذاجة كادت توقعنا بأيدهم، وأبديت عجبي من إفلاته من الاعتقال وهو يتنقل في بغداد متخفياً إذ لم أصادف في التجربة ثورياً ساذجاً مثله. بدأت أقص عليك الحكاية وكنت تنصت بكل حواسك بعينين مندهشتين:

- تصور يا "سعد" بتنا ليلتنا الأخيرة في بغداد في البيت الذي كنت مختفياً فيه وقتها لم أذكر لك من يكون لكن الآن وأنا أعيش مع خيال لحظتك جالسا في ظل شجرة بمقهى "الرماية" وسط الديوانية أقول لطيفك: كان ذلك الصديق "عبد الحسين داخل" حكايته سأختم بها هذا الكتاب. تصور لم يستطلع الطريق، تركته و "بهار" وهو أسم زوجتي "ناهده" الحركي في بيت الصديق الكائن في حي "الصحة" بطرف مدينة الحرية حينما عرفت أن وجهتنا الموصل قائلا:

- تبقون هنا راح أستأجر سيارة، تحسبون عشرين دقيقة وتطلعون على الشارع العام.

خرجت مع آذان الفجر قاصداً كراج العلاوي الموحد، حجزتُ المقاعد الخلفية الثلاثة في سيارة خاصة تعود إلى عسكري مجاز كان يقف قريباً من سيارات الموصل مقدراً سهولة مرورها من نقاط التفتيش. وكما توقعت لم توقفنا نقطة تفتيش واحدة. في السيارة دس براحة يدي ورقة شفافة مطوية أخرجها من تجويف كبسولة دواء فارغة. نشرتها بأصابع مرتجفة خلف مقعدي السائق والراكب في المقعد الأمامي،

فوجدتُ خريطة غامضة فيها نقاط وأسماء أمكنة ومفارق مرسومة بخطٍ ناعمٍ جداً تؤشر بدائرة سوداء كبيرة على ثلاث نقاط في سفح جبل يبعد مسافة عن شارع مبلطٍ يربط الطريق الذاهب إلى دهوك ومدينة "القوش". أدركتُ على الفور أن صاحبنا لم ير المكان المقصود أيضاً، مثله مثلنا. لم يكن أمامي سوى المغامرة وكأني جندي بجيش "طارق بن زياد" وهو يعبر المضيق الذي حمل اسمه ويحرق السفن كي يجعل جنده تقتل قتال حياةٍ أو موت، كذلك أمرنا فلما أن نصل وإما نحلّ في جحيمهم وبعدها سيقفلوننا قتلاً شنيعاً، فمن المستحيل التفكير بالعودة بعد أن تفاديننا فك السلطة الموشك على الأطباق علينا، فلتنا في آخر لحظة وفي الوقت المناسب بالضبط. سوف تتجنن السلطة ولا تترك قريباً من أقربائنا دون استدعاء واعتقال وتحقيق حتى أبعد الناس علمت ذلك لاحقاً عند عودتي، فصيدهم الثمين الداني راوغ الصنارة وضاع في البحر، كنتُ أروي لك صخب القصة والنهرُ يصخب جوارنا يصاحبه من الضفة الأخرى صمت الجبل الذي يبدو كجدارٍ مستقيمٍ يعانق غيوم ذلك الصباح الشتوي البارد، واصلت الروي؛ لم يستطلع الطريق فحسب بل لم يزر الموصل أبداً. فحينما نزلنا في الكراج العام، سألته:

- ما الخطوة التالية؟.

قال:

- نبحث عن سيارات الشيطان!.

سألته:

- من أين نركب؟!.

أجاب:

- ما أعرف!.

فجمد الدم في عروقي، سألت عن كراج الشيخان فأخبرني بائع شاي سفري أنه يقع في شمال المدينة ونحتاج استئجار سيارة حتى نصله. نظرْتُ إليه بغضبٍ فوجدتُ وجهه بليداً لا يدرك هول تلك اللحظات، ليس هو فقط بل حتى هي، كانا لا يتخيلان هول فشلنا في الوصول في ظرف ساعات فالطريق إلى تلك المناطق تقطع في الرابعة عصراً. وهما لم يذيقا مرارة الاعتقال وذلك! استأجرنا سيارة إلى كراج "الشيخان" قلت لهما قبل أن نصعد؛ بلا أدنى كلمة، فالسواق وكلاء أمن بالإجبار فكيف بالموصل مدينة القوميين العرب التاريخية، فصاحبك ثرثار على طريقة محرضي الشوارع أيام الثورة الروسية، إذ يتعمد فتح مواضيع مع بسطاء الناس تمس معيشتهم، طريقة لقتها له حزبه وقت الجبهة الوطنية. لكن ذلك "الأبله" لا يفرق بين زمن الجبهة المنقرض وزمن سلطة قامت بحرب على جارتها بعزم الدكتاتور الأوحـد. أضفتُ بحزم؛ بلا أدنى كلمة زين!، هازأً سبابتي الراحمة بوجهيهما وفي ملامحي تهديد ووعيد. لم تفهم زوجتي سر غضبي فرمقتني باستغراب، كنتُ متوتراً متجهماً مستفزاً من وجه رفيقها الأسمر بقسماته الناعمة الذي أراه بمرآة السيارة مبتسماً يشغل المقعد الأمامي المجاور للسائق، همَّ بفتح موضوع، قرصته في جنبه بعنف، فصمت حابساً صرخة ألم، لاحظتُ ما جرى فأدركتُ مقدار غضبي، تسللتُ كفها الناعمة لتربتُ على أصابعي.

رويت لك بإسهاب بينما قسماتك تشرد مترسبةً بما لا أدري، سأعرف لاحقاً أنهم أبلغوك أن أخبارها معنا، كنت تشرد

وتركز.. تركز وتشرّد إلى أن ذهب الاضطراب من ملامحك وجعلت تنظر نحوي وبعينيك دهشة حينما وصلت إلى ذروة متوترة في القصة، كنا نجلس على صخراتٍ ثلاثٍ مثل كراسٍ جوار شجرة سماق، تنصت غير مصدقٍ ما أروي من التفاصيل قاطعتني قائلاً:

- غير معقول، كَمَل.. كَمَل..

هتفت مع نفسي:

- ليتها تترك فكرة مصارحتك.

وخاطبتك:

- كان من الممكن أن لا ترانا إلى الأبد!

قاطعتني زوجتي مكلمة السرد:

- تصرفت بهدوء وسرعة. كلمت أقرب سائق وطلبت منه أن يوصلنا لمجمع "باعذرة" وادعيت أنني معلمة تعينتُ هناك وأخوي وأبن عمي يوصلانني ويطمئنان عليّ ويرجعان واتفقت على الأجرة!.

فعلاً.. كنا مرتبكين وحلّت لنا بدقائق معضلة واسطة النقل، لم تفتشنا نقاط السيطرة العسكرية، لسببين الأول هو العفو المعلن عن من يسلم من متمردٍ الجبل والثاني معرفة السائق بالعسكريين في نقاط التفتيش، لم أترك له فرصة فتح موضوع يتعلق بنا، أشغلته بالأسئلة المتوالية عن أسماء القرى والقصبات التي نمرُّ بها. كان يسمى الأمكنة ومن يسكنها؛ يزيديون، كلدانيون. آشوريون، شبك، أكراد، عرب. كنت أطاقب جغرافية الطريق مع الخارطة المرسومة بخطٍ دقيقٍ التي دسّها بين أصابعي في

السيارة قبيل وصولنا الموصل. كان من المفترض أن ينتظرنا رفيق في كراج "الشيخان" مكلف بإيصالنا إلى مناطق الثوار.

لا وقت للاسترخاء، فإما يقبض علينا وإما نصل. ليس ثمة حلّ وسط، والتراجع معناه وقوعنا بأيديهم، طابقتُ بين الخريطة وتضاريس المكان ونحن نقترّب من مفرق يتفرع منه شارع مبلط يساراً، أخبرني السائق بأنه يؤدي إلى "القوش"، إذن يجب أن نرجع من الشيخان إلى هذا المفرق. فالقرى المرسومة في الوريقة الشفافة الصغيرة تقع على سفح السلسلة الجبلية التي أراها يمين الطريق الفرعي، كنتُ في سباقٍ مع الثواني يا "سعد" فقد دخلنا دربَ الصّدِّ ما رَدَّ وعدت غير واثقٍ بصاحبك. عدا أننا لو نستمر إلى الشيخان سنمر بنقاط تفتيش إضافية. باعْتُ السائق قائلاً:

- أدخل على اليسار وسأضاعف أجرتك!.

استدار على الفور. لكنه بعد مسافة قصيرة سأل مرتاباً:

- قولوا الحقيقة إلى أين تريدون؟!

فقال رفيقك:

- تريد الصحيح؟!.

نظرَ إليه السائق جانباً منتظراً فأكمل:

- نريد نوصل لخورزة وكرسافه!.

خفف السائق من السرعة قائلاً:

- هذه قرى خطيرة يسيطر عليها العصاة!.

وأشار إلى نقطتين في سفح سلسلة جبلية تركض خلف حقول

خضراء تمتد من جانب الطريق حتى حافتها. كنت احتدم غيظاً على المقعد الخلفي بينما أكمل السائق محذراً:

- يسّابوكم، خاف عنوان المدرسة غلط.. ما كو مدرسة هناك!.

تدري ماذا قال رفيقك الكريم؟!.

سألتني متوتراً وكأنك معنا:

- ماذا؟!.

-أعترف، أعترف كاشفاً غرضنا فجعل دمي يجمد في عروقي، ليس مجازاً يا "سعد" بل أخذتني الرعشة مثل محموم.

كررت لاهثاً؛

- ماذا قال.. ماذا؟!.

- قال له؛ تريد الصراحة يا أخي؛ نريدك توصلنا للقريتين. رد السائق بخوف؛ مستحيل ما أنزل، يسّابوني سيارتي ويقتلوني العصاة، كثير من سواق الموصل ضاعوا. فرد رفيقك كي يطمئن السائق (قائلاً: لا تخاف.. أحنا نعرفهم، وأشار نحو "بهار" ملتفتاً إلى حيث تجلس جوارى خلف السائق تماماً: سمعنا أن زوجها اللي هارب خارج العراق ملتحق بالمتمردين، فجبناها حتى تقنعه يسّلم لأن مثل ما تعرف أكو عفو.. لا تخاف أخونا لا تخاف!.

أزداد السائق ريباً. شحب لونه وبدأت كفاه الممسكتين بالمقود ترتجفان، فالقصة كلها غير معقولة بالنسبة له، أظن أنه أعتقد بأننا ننوي خطفه وقد نكون مسلحين فمن المؤكد أنه فكر ولاحظ

عدم تفتيشنا في النقاط كلها، إذ قال بصوت جزع؛ لو تعطوني مليون دينار ما أنزل عن الشارع!. ظل رفيقك يلح، والسائق يرفض ويحتد قليلاً، قليلاً. كنتُ ألزم الصمت متوتراً أشد التوتر. الوقت يجري سريعاً. مجرد دقائق تفصلنا فيما الخلاص وإما غرف العذاب. من الجهة المقابلة ظهرت ثلاث سيارات نقل عسكرية مليئة عربتها بالجنود المسلحين. تمالك السائق جأشه وأقترح:

- عيوني عندي حل بلا مخاطرة!.

لم ينتظر سؤالنا بل أردف على عجل:

- ابن أختي مدير أمن "القوش" أوصلكم وهو راح يساعدكم بطريقة أمينة!.

انفجرت يا سعد بضحكةٍ صاخبةٍ طالباً مني إعادة ما أقترحه سائق السيارة، فأعدت ما قاله وأنت تردد منخرطاً بضحكةٍ جعلتك تترنح لتتوسد رمل الضفة الهش:

- غير معقول، غير معقول!.

تمالكت نفسك وعدت إلى مكانك وسألتني بلهفة كي أكمل فأردفت:

- أتدري يا "سعد" لم تبدر من رفيقك كلمةً واحدةً، لا أدري هل أصابه الثول أم أخرسه الرعب، حتى ظن السائق بأننا وافقنا فضاعف السرعة. وهنا صرخت بصوتي الجهير:

- قف.. قف!.

لمحته، يتفحصني بالمرآة المعلقة بواجهة السيارة من الداخل،

وأنا أتحسس بكفي تحت إبطي مستعداً للانقضاض عليه. فخفف السرعة، عبرتنا العربات العسكرية الثلاث، كنت أصرخ متساوقاً مع دوري في القصة التي وضعنا فيه:

- نريد نرجع بواحد نروح ثلاثة!.

قلت جملتي على عجل وصرخت فيه صرخة مرعدة:

- قلت لك، قف.. قف!.

وتأهبْتُ مقترباً منه. فوقف إلى جانب الطريق جوار آخر بيت من قريةٍ سأعرف أسمها لاحقاً تدعى "بيبان" ومنها بخطٍ مستقيم تقع القريتان مقصدنا اللتان تبديان نقطتين معتمتين في ذهب تلك الظهيرة اللاهثة، النقطتان أملنا الوحيد بالنجاة. ترجّلتُ بعنف صارخاً:

- نزلوا

شبكتُ أصابعها بأصابعي وسحبته من جوف السيارة وقلت:

- اركضي.. اركضي!.

ومددت ذراعي مشيراً نحو القريتين اللتين بدتا كضربتي فرشاة بالأسود في بهاء الحقول الخضراء ولون السلسلة المتموج بين لون القهوة وبياض الحليب تحت شمس منتصف الظهيرة. خطت بتردد وهي تتلفت، قلت بصوت حازم:

- أسرع!.

وبينما كنت أناول السائق أجرته، نزل صاحبك وبدلاً من الركض نحو الجبل البعيد توجه نحو جرار زراعي صعد لتوه من طريق ترابي بين الحقول وراح يفاوض سائقه كي يوصلنا

إلى القرية. لحقت بها. خضنا في حقولٍ رطبةٍ لم يمر على سقيها
الكثير، قلت لها:

- انزعي حذاءك.

ففعلت لاهثةً مرتبكةً. حثثتها صارخاً:

- اركضي.. اركضي!

امتقع وجهها وتعالى لهاثها. التفتُ إلى السيارة التي أفلتتنا،
فوجدتها تنهب بسرعةٍ جنونيةٍ الطريق باتجاه "القوش" قلت:

- سيبلغ السلطات!.

قالت من بين أنفاسها المتقطعة:

- ومؤيد؟!.

وهذا أسم الرفيق الحقيقي قلت لها:

- اتركه!

حملتُ عنها الحذاء، وهبنا نركض ناهيين الطين نهياً. فما
كان منه إلا اللحاق بنا. كنتُ أجري خلفهم أشدُ من عزمهم
بإرعابهم صارخاً مثل مجنون:

- بلا توقف، بلا توقف وإلا سنكون الليلة في الزنزانة
وسترون جهنم!.

- بلا توقف!.

- السائق وصل القوش الآن!.

قطعنا المسافة بوقت قياسي، عند أول بيت في القرية الأقرب
إلى خط ركضنا. لمحنا امرأة تحبز، سألتنا عن الرفيق "عيدو"

(سيقتل بعد العام ذاك في معركة مع رجال الاستخبارات العراقية قرب القرية نفسها). أشارت إلى القرية المجاورة. أطمئن قلبي قليلاً.. وهذا حينما ظهر من خلف الباب الخشبي العتيق بوجهٍ باسمٍ قائلاً:

- أهلاً بالرفاق!

وهكذا نجونا بأعجوبة!.

قفزت من صخرتك وأخذتني إلى صدرك قائلاً بصوت مرح:

- قلت لك ألف مرة.. عمر الشقي بقي!.

مزاحك القديم المرح نفسه، تحيل أي حدث خطير إلى فكاكة فتضفي على جو متوترٍ فلسفة اللحظة وكأنك تقول؛ مرَّ الأمر بسلام فلم التفكير به إذن؟!.

أردفت:

- لا تتعجب أنت شقي وبقي فعلاً والأمثال تضرب ولا تقاس لكن هذا المثل يضرب ويقاس عليك!.

قلتها وهدرت بضحكتك القديمة ورجعت إلى الخلف ثلاث خطوات وجلست على صخرتك قبالي. لم أحزر لحظتها أنك كنت تمهد بمثل الشقاء والبقاء إلى قصة تتعلق بنجاتي من تجربة تعرفها وحدك.

قلتُ بسخريةٍ ضاحكاً:

- لا تظلم مؤيد، كان راح معكم!. لكن أش لون اللي وداك للموت وأنت ما تدري!

- ...

لزمْتُ الصمت منتظراً. خمنتُ أن ما تريد البوح به أكثر
خطورة من قصة وصلونا، لكن بطريقتك المرححة الساخرة،
وليس بطريقتي الجدية في وصف مخاطر اللحظة.

قلت بمرح كأن الدنيا كلها ورد:

- أنت شقي وبقي!.

-!....

تعلقتُ بشفتيك. تخافتت ضحكتك قليلاً.. قليلاً وأنت تتفرس
في وجهي الجاد المنتظر، ثم قلت كلاماً يرنُّ في نفسي حتى هذه
اللحظة وأنا أجلس بصحبة طيفك على ضفة نهر "الديوانية"
الصغير، كلاماً تنبأ بمصيري:

- وأكيد، راح تبقى بعدنا يا شقي!.

صحت نبوءتك، وبقيتُ يا سعد حياً لكن شقياً في قَلْبٍ بسيط
للمعادلة. أدور في مدينتنا المخربة، بشرها هُم هُم.. إذ وجدت
الأبناء حلّوا محل الآباء، في محلات الأحذية والمكتبات وبائعي
العصير واللبن، ومصلحي الساعات.. زرتهم واحداً واحداً،
ورثوا طبيعة آبائهم في التعامل، نفس الطيبة، والترحاب
بالمشتري، لكنهم متعبون أضنتهم الدنيا والحروب والحكومات
والاحتلال، حتى أنهم يكادون يفقدون ذاكرتهم، ليتني متُّ معك
في المخاض كي لا أرى ما صارت إليه الأحوال. لا أحد
يتذكرنا، وإنْ ذكرتهم في طرف حديث أرى عيونهم تشف وكأننا
أطياف ليس لها علاقة بالواقع وبما يجري ونحن كذلك.

يعني شقي وبقي وطيف ميت يا سعد..

تنبأت بمصيري. وكأنك تراني منذ تلك اللحظة وتعرف أنني

سأنوء بعد أكثر من ستة وعشرين عاماً بكتابك الثقيل وأنا مكلف برسم خاتمته الصعبة هذا المساء.

بقيت حياً يا "سعد"، أجلس في مقهى "الراية" على كرسي يطل على النهر في ظهيرة مغبرة. أستعيد مشهد جلستنا في عمق الوادي على ضفة نهر "الزاب" الهادر، أرى كيف أربكك صمتي، وأنا أنتظر قصة من بعث بيّ إلى الموت وأنا لا أدري، بدت لي الحكاية أكثر خطورةً أحسستُ ذلك من طبيعة الانفعال في قسماتك رغم محاولتك تغطية ذلك بالفكاهة والتعليق الخفيف. قلت ضاحكاً وبلا مبالاة:

- تعرف أش لون توترت لمن تحركت الحافلة اللي ركبتها من دمشق قبل ست سنوات!.

لم أجمع شيء. صرت أبله حقاً!.

فأردفت مبتهجاً:

- تعرف يا رفيق كان لك شرف إدخال أول عدد من جريدة "طريق الشعب" صدر بالخارج بعد انفراط الجبهة الوطنية إلى داخل العراق! بمانشيتته اللي يقول - من أجل إنهاء السلطة الدكتاتورية في العراق - هههههه

جَمَدَ الدَّمُ في عروقي من هول الكلام، فأنا لم أكن مستعداً لمثل هذه المهام الجسيمة التي تتطلب قناعة خارقة مثل قناعة شهيد. قناعة لم أمتلكها يوماً. وأنت تعرف يا "سعد" كم دققْتُ بمضمون رسالتك إلى "نيرانك" ولا تدري أنني فتحتها حال تحرك الحافلة.

- !....

ضجيج النهر، وحفيف الشجر، وشمس الظهيرة فوقنا معلقة
لا تدفئ شيئاً، حملقت بالماء الهائج، بوجه زوجتي، بشهقة
الجبيل، بالسماء وغيومها البيض المتفرقة، بوجهك المتضرج
والمنتشي والذي لا زلت استغرب نشوته وأنت تكشف لي سراً،
جعلني أضع مسافة مع كل من يحتك بيّ مسقطاً فكرة شرف
المناضل.

-!

ارتبكت من بلاهة نظراتي وسكوني. كانت "ناهده" تتقربُ
بحياد فالموضوع مبهم بالنسبة لها إذ لم أخُض معها في
التفاصيل الصغيرة المتعلقة بأسرار تلك الأيام العصبية.

-!

- ناصر عواد "أبو سحر" أخفى الجريدة في بطانة المعطف
العسكري!.

-!

انحدرتُ إلى تلك اللحظة فطفقتُ أرتعد لهولها رغم مرور
أكثر من ست سنوات على وقوعها.
- يا إلهي.. يا إلهي!..

رددتُ بصمتٍ رائيّاً لحظة دخولي نقطة "الرطوبة" الحدودية
في الشهر العاشر من عام 1979. في تلك الفترة سُمح
للعراقيين بدخول سوريا بالبطاقة الشخصية، كانت الجموع
محتشدة، نساء وأطفال وعجائز ورجال من شتى الأعمار ممن
كانوا يحلمون بزيارة مرقد السيدة "زينب" في دمشق، وممن
كان يحلم بزيارة الشام ورؤية أقارب له ممن فرّ خوفاً من

الضياع في أقبية المعتقلات والسجون.. وكان الزحام ذاك من حسن حظي. اقتربت من طاولة التفتيش حاملاً المعطف العسكري الثقيل الذي بعثه "ناصر" معي وحقيبة ملابس وحقيبة أصغر أخفيت فيها جهاز طبع فوتوغرافي اشتريته من بيروت إذ كنتُ مدلهاً بالتصوير وكانت السلطات وقتها تمنع دخول الأجهزة الكهربائية. كان رجال التفتيش متعبين. وضعت حقيبة الجهاز تحت منضدة التفتيش. ونشرت المعطف فتلمّسه رجل الأمن على عجل وفسح لي مجالا للدخول.

- يا إلهي.. يا إلهي.. ماذا لو شك بالوريقة المخفية في البطانة؟..

تخيلتهم يلقون القبض عليّ متلبساً وكأنه يحدث في تلك اللحظة التي أجلس فيه على الصخرة مغموراً بضجيج الماء لا قبل ستة أعوام فطنّ رأسي بدوي جهنم، رعبها لفّ كياني كله وأنا أراهم يكبلونني في القاعة أمام أنظار المسافرين بينما أحملق بالمسافرين بعينين مسكينتين وكأنني أودع البشر إلى الأبد، فمن يصدق بأنني لا أعرف بوجود جريدة "طريق الشعب" الناطقة بلسان الحزب الشيوعي العراقي المطارد وقتها، من يصدق وأنا القادم من بيروت مرتع المعارضين العراقيين الهاربين.

- يا إلهي يا إلهي!..

كانوا نزعوا جلدي مرات قبل الإجهاز عليّ. جعلتُ أرتجف وتصطك أسناني وكأنني في صالة النقطة الحدودية الواسعة. ساد صمتٌ جارف قطعه يا "سعد" قائلاً:

- بقينا نترقب بقلق ولمن سمعنا أن الجريدة وزعت عرفنا بنجاتك!.

وهدرت بضحكتك غير منتبهٍ إلى رعبي المستيقظ من خيال المشهد وأكملت:

- عمرك يا شقي بقي!.

سألتك عن "ناصر عواد" فقلت:

- أستشهد في "بشتاشان". قبل سنتين!.

لم يخف غضبي ويتلاشى.

منذ تلك التجربة آمنتُ تماماً بأن الكائن الأيدلوجي بلا ضمير وأنااني ولا يههمه مصير الفرد، تنطبق عليه مقولة "الغاية تبرر الوسيلة" التي لا تجرد الإنسان من إنسانيته فحسب بل تبيح له قتل الآخر. صدرت جملة من أعماقي بصوت خافت وكأنني أحدث نفسي:

- چا گتلني يا سعد!.

سمعتها، فانخرطت بضحكة أخرى مرحة، هي آخر ضحكة أراها تنبع من قلبك، بعدها صار ضحكك مخلوطاً بحزنٍ دفينٍ وانكسارٍ لا يخفي عليّ. لم تزل مرحاً. وزوجتي تنصت طوال الوقت. قلت لتخفف عني:

- مرّ الأمر بسلام و "ناصر" كان ما يقصد، تعرف؟! هو نذر حياته للحزب وضحي بها!.

رددت فوراً:

- لكن ما لازم يضحى بالآخرين رغماً عنهم خصوصاً بعد ما عرف أنني راجع!.

وأشرت نحو زوجتي الجالسة مظهرةً مجرى النهر الصاخب:

- ولدي بنت تحبني وأريد الزواج وكان معي لما اشتريت من بيروت ثوبين سهرة واحد لأمي وواحد لها.

قمت وعانقتني مرة أخرى قائلاً:

- لا تحمّل الموضوع أكثر من طاقته، قبل ست سنوات. وناصر استشهد. وأنت حي تزوجت. والتقينا! يا شقي يا بقي!.

ورجعت إلى الخلف ثلاث خطوات وهبطت على صخرتك.

سقط علينا صمتٌ، كنتُ أخشاه. وما رويّ لتفاصيل مغامرة التحاقنا إلا محاولةً لتفادي تلك اللحظة. كنت أمني نفسي قائلاً:

- لعلّها تقتنع وتحجم عن إخبارك وهي ترى البعد العميق لعلاقتي بك! صمتٌ ألهبَ الماء فسمعته صراخاً. لم ترفع ناظريك عن عينيّ في ثقل الصمت ذاك، لازلتُ أحرزُ حتى هذا اليوم، وأنا أتوجه بعد ساعات لإسدال خاتمة كتابك يا "سعد".. أحرزُ حال عينيك اللتين تعكّرت زرقتهما بالنضح حالما هربتُ بعينيّ إلى سفح الجبل وصفحة السماء الضيقة.

يبدو أن لعبة الصمت والتأخير راقت لك! كنت تتوجس من الآتي، وكلامي أنفضّ ولا بد أن يستدير نحوك!.

كان صوتك مخضلاً، والحروف ترتجف وأنت تقول:

- ما أخبار زوجتي وبنتي؟!.

تبادلْتُ النظر معها فرأيتها تنهياً للقول. أدركت ذلك من قسماتها الجدية المتساوقة مع جسامة الفعل المقدمة عليه، قلت مع نفسي:

- خلص يا "سعد" أستعد أنتك الطعنة!.

قالت:

- هم بخير.. فلا تخف!.

لا تدري كم لعبت هذه الجملة في مشاعرنا، فأنا اعتقدتُ أنها عدلت عن أخبارك بحقيقة الأمر، وأنت تصورت أن كل شيء على ما يرام، فأشرقت قسمات وجهينا للحظة، لكنها أُرِدِفَتْ بكلماتٍ بطيئةٍ.. لفظتها بعناءٍ رغمَ مظهرها القوي الواثق:

- لكنها تَزَوَّجَتْ!.

-!....

وكان نصل الخنجر الهابط غار في لحمي أيضاً.

جمدتُ ملتحمًا بالصخرة الصلدة، حملقتُ بك متحفزاً دون أن تبدر مني حركة مخافة أن تنفرط، راحت تنقل نظراتها بيننا ونحن نحملق بعيون بعضٍ، أنت تستنجد بيّ، وأنا لا حول لي ولا قوة منتظراً اللحظة التالية، مشهد يتجسّد الآن وكأنه يحدث هذي اللحظة وأنا أنتقل خلف ظل شجرة في مقهى "الراية" على حافة نهر طفولتنا. هببت من طعنك متسائلاً:

- من اللي أتزوجت؟!.

قلتها بصوتٍ باهتٍ كمن هُدَّت قواه تماماً.

- زوجتك!.

قالتها بوضوح حاسمة كل شيء، فرأيت وجهك يشحب ولون
الجوري يختفي من وجنتيك. كفتت عن التحديق بوجهي. رفعت
عينيك نحو السماء وشمسها الشاحبة. وتهذلت بندقيتك ساقطة من
كتفك. لم تحاول مسكها، فعانقت رمل الشاطئ بصمت. بادلتني
النظرات متوجسة. لم تكن جوارنا. كنت في مكان آخر أعرفه
وخبرتة، في رحم بيت الزوجية. مع هبوط حزام البندقية منزلقاً
من كتفك الأيمن بدأ لونك يزرق مطعوناً وكأن أنفاسك ستنتقطع.
بينما صغرت عيناك وتغضنت قسماتك. هَرمت للحظة، لكن
الأمر لم يدم غير ثوانٍ معدودة. تماسكت وأول ما فعلته حملت
بندقيتك وقلت لها بعينين لم تستطيعا كبث الصبيب:

- لدي حراسة نكمل الحديث بالليل!

ومشينا نحو القاعدة القريبة صاعدين من حافة النهر نحو
القاعات والغرف المنتشرة في فسحة الوادي المنفتح كصح
عريض. لم نتبادل كلمة واحدة. كنت تسرع بخطاك.. تريد
الهرب.

توقفت عند منعطف جوار مجرى ماء النبع، قلت بصوت
يتصنع القوة:

- مع السلامة!

وغبت بين شجيرات الدرب الصاعد نحو فصيل "الإسناد"
الذي كنت مسؤوله العسكري.

* * *

أجلس في مواجهة دائرة بريد الديوانية بينا النهر الذي ضاق
مجراه، وامتلاً بالنفايات. أجلس مغموراً بك، وفي الغمر تتراءى

بقامتك الرشيقة ووجهك الذي شحبَ وخطاك المتثاقلة وأنت تستدير عكس مجرى الساقية الصغيرة، تنوء بجسدك وأنت تصعد الدرب المشجر الملتوي. كنت قد هَرَمْتَ،

خف الهجير، فاصطخبت المدينة. وبدأ الرواد بالتوافد على المقهى. ظهر صديقي الشاعر "علي الشباني" بقامته المتداعية، وخطاه الواهنة. يحملق بشرود في البشر والشارع والمكان من خلف نظارته الطبية العريضة العتيقة التي تزيد من بؤس هيئته الرثة. لم يرني على الرغم من أن نظراته مرت عليّ. لا تدري ماذا فعلت به الدنيا؟!، سأروي قصته يوماً وستسمع بها لو كنت حياً، تدفق البقية، وجوه جديدة لا تعرفها، وجوه تحلم حلمنا القديم وفي وضع لا يختلف عناؤه عن زمننا بل وأقسى، فالعراقي أزداد جهلاً وذهبت فترة الحصار بكبريائه، هل تتخيل أن الرشوة صارت شيئاً مشاعاً لا يخجل العراقي منه. هل تتخيل؟.

أقبل نحوي، "علاء جواد كاظم" أستاذ مساعد في كلية الآداب بالديوانية، ناقد شاب به مَسُّ من الجنون، بصحبة "خالد إيما" فنان مسرحي ويكتب متابعات نقدية وينظم ندوات ويحلم، و"ثامر حاج أمين" زميل دراستي منذ المتوسطة وحتى الجامعية يكتب متابعات نقدية تعرفه أكيد يا "سعد" بقي حياً وفي المدينة بموازنة عجبية. لم يبق أمامي سوى مغادرة المقهى للخلوة بك لترتيب روايتك حتى صفحتها الأخيرة والتي أناطوا بي مهمة طيها

- هل تعتقد أن شيئاً من أمكنة قلب المدينة تغيّر؟!..

لا.. لا، المكان نفسه، وأنفاسك اللاهثة، وكأنك تجري في

سباق مئة متر، تجري واثقا من أنك ستلوي العالم بين يديك وترتبه من جديد أوائل سبعينات القرن الماضي، أنفاسك أحس بحرارتها في وجهي الآن وأنت تحدثني في طريقنا إلى المقهى بعد عودتك من بيروت، أسمعها تضرب سمعي بقوة وأنا أعتذر من الصحبة للخروج من المقهى. أخذني الرصيف المكتظ إلى الجسر الحديدي، قطعتُ شارع سينما الثورة حتى گراج بغداد القديم.. واستدرت يساراً باتجاه مدخل الفرقة الأولى حيث كان يقف الجندي المجهول شاهراً بندقيته مضاءً بمصابيح نارية مخفية في فسحة الحديقة الصغيرة الممتدة أمام النصب. أصف لك أثر المكان الذي تألفنا معه منذ الطفولة. الآن لا جندي مجهول ولا بطيخ ولا مقر الفرقة الأولى تلك الحديقة الغناء الواسعة، كنتُ أحلم حينما كنتُ جندياً أخدم في كتيبة مدفعية مقرها خلف المستشفى العسكري عام 1980 أحلم بزوال العسكر من قلب الديوانية وتحول المعسكر إلى منتزه سيكون غناءً فهو مزدهم بأشجار السدر والبرتقال واليوكالبتوس، ومستطيلات العشب الأخضر محاطة بشتلات الورد تفصل بين قاعات منام الجنود، كان ذلك بعد اللقاء بك في "بيروت" بثلاثة أشهر فقد دعوني لخدمة الاحتياط. تلك الحقائق الغناء تحولت إلى بيوت عشوائية رثة. هجم أغراب فقراء هدموا وخرّبوا الحقائق وبنوا بيوتاً ملطخة أبوابها بالحناء وترفرف الأعلام السود والخضر فوق أسطحها الناصية، وعلى الجدران علقت صور لمعممين خرجوا من ظلمة التاريخ ليزيدوا المشهد القاتم قتامةً. وجوه بيض تنظر بثقة من تحت العمامة ولا أدري من أين تأتيها هذه الثقة في عراقٍ وجدته محتلاً. حيث لا شرف لكل

القوى السياسية العاملة فيه، فجميعها استظلت ورسخت بفضل المحتل شاعت أم أبت!.

- أخ يا "سعد" لو كنت حياً وترى ما رأيت.. آخ!.

هتفتُ بصوتٍ مسموع جعل المارة على الرصيف المقابل ينتبهون. خُلفتُ شارع الصيدليات إلى يساري وتوغلت وسط البيوت العشوائية على رصيف الشارع العريض المسفلت المؤدي إلى جسر الفرقة القديم الذي رُبطَ بشارع مستشفى الجمهوري القديم، لم أواصل دخلت فرعاً إلى يميني يؤدي إلى حقول حنطة وشعير تمتد حتى البساتين البعيدة والجادة الذهبية جنوباً حتى البصرة. كانت شمس العصر متوهجة تضيء على الحقول والبيوت البائسة بهجةً أحس بها وحدي.. ها هم الفقراء لأول مرة بتاريخ العراق يتمكنون من فرض مكان العيش كما فعلوا في احتلال موقع الفرقة الأولى، تحول مكان يعد فيه الجندي للحرب إلى مكان عيش محشود بالأطفال ويعبق برائحة خبز التنور لكن بالمقابل صار الموت مشاعاً بالشارع ولا تدري متى يأخذك بغتةً بانفجار لا يدعك تتأمل لحظاتك الأخيرة.

خرج الموت من تمرينات الجنود في المعسكرات وعاد من جبهات الحرب ليسكن البيوت والمقاهي والأسواق والشوارع وفي أرجاء مدن وطننا التعيش يا "سعد"، تعيش حقاً وأنا أهنتُك لأنك لم ترَ بؤس هذه الأيام.. أو قد تكون حياً، وإذا كنت كذلك فمن المؤكد أنك الآن مجنون تهيم في الشوارع والبساتين والمدن وهذا التفسير الوحيد لعدم ظهورك بعد الاحتلال.

تنبأت ببؤسي يا "سعد" وأنا أنجو من المخاطر لأبقى معذباً بكم وبالخراب.

تأفّفتُ، المدينة صغرت بنايتها والبساتين عاد نخيلها واضحا
بجذوعه الفارعة. وحدي تحت ذهب العصرية، وحدي مع كتابك
الثقيل، وحدي لا أحد. وبغته وجدتي، أركض مثل مجنون وسط
سنابل القمح. ركضت.. ركضت.. حتى سقطت وسطها لاهثاً
مغموراً بسيقان السنابل والصمتِ وصدى ضجيج الديوانية
البعيد. حملتُ في زرقة السماء المتوهجة بشمسها التي انحدرت
على مجرى الغروب.

السماء نفسها يا سعد!

تركناها قهراً وتغربنا.

تهنا تحت سموات أخرى.

- أين أنت الآن؟!

أرقدُ وسط حقل حنطة سامعاً حفيف أعواد السنابل قريباً
حميماً، أحرق إلى السماء، في ما آل إليه حالنا، وأفكر في مهمتك
الثقيلة التي يتوجب عليّ إنجازها بعد ساعات!.

انشغلْتُ عنك قليلاً، كنا في فصيل المكتب السياسي المنزوي
في عمق الوادي والمعزول عن موقع القاطع. كنا نحدث قادتكَ
عما آلت إليه أوضاع العراقي المكبوس بالحرب والقمع، وما
يجري في جبهات الحرب مع إيران. في مساء اليوم الثالث
فرغْتُ من تدوين مشاهداتي. وتوجهت نحو موقعك. لم تكن
هناك. أخبروني أنك ترقد في غرفة الطبابة منذ ثلاثة أيام.. أي
منذ جلستنا على ضفة النهر سألت:

- ماذا جرى؟!

- يتقيأ ولا تقبل معدته الطعام.

قلتُ مع نفسي:

- كما توقعت!.

ووضعت نفسي محلّك، حبيبة عمري تتركني إلى سرير رجلٍ
آخر، مجرد التفكير بالخاطر جعلني أرتعدُ فكيف بك؟!.

(بوية سعد يا بوية)

الوَنَةُ طَالَتْ يا سَعْدُ يا بوية!.)

لك وحدك ناح بها المغني، فأنيك سيطول وأنت الثوري
العاجز تماماً، لا سلطة لديك، ضائع بين القمم والأودية والجبال
والقمل والجوع ومقاومة الموت الحائم حولك في كل لحظة قادماً
من قصفٍ مدفعي، طائرات تغير بانتظام على موقعنا، كمينٌ عند
عبورك شارع مبلط يربط بين القصبات والمدن المحيطة. أنت
في خضمٍ مختلفٍ.. كنتَ تستمد عزمك من وجود أسرتك التي
تحلم بالعودة إليها.. وها أنت تكتشف أنها ذهبت إلى الأبد و
"نيرانك" في حضن رجل آخر، الله يساعدك، أكتب لك الآن، قد
تقرأ قصتك وتذكر وتعود إلى رحمك، لا أدري هكذا أتخيلك
حياً تعيش في بقعة مجهولة على الأرض وترقب ما يجري
ساخراً.. هل تكون كذلك؟! أو أنها مخيلتي الذاهبة نحو حدود
الخرافة.. لا أدري.. هرعْتُ إليها حال سماعي خبر انهيارك
وقلت بجمالٍ حادة ولهجة لوم ممزوجة بغضب:

- "سعد" ينام في غرفة الطبابة من ثلاثة أيام!.

- ليش!.

- ظل يتقيأ من يوم أخبرته!.

- هو المناضل الصلب!.

-!....

أدركت أنها السبب.

- لم تسكت؟!.

كانها نسيث المرات التي توصلتُ بها!..

-!....

تفاديت الدخول معها في حوار سيكون عقيماً، إذ خبرتُ
عنادها في اللجة، وبيئة الثوار من أقسى الأمكنة التي عشتُ
فيها؛ كل شيء فيها محسوب ولا مجال للخطأ! كنت أخشى
فقدانها فهي قاربي لو سقطتُ منه في اليمّ لضعْتُ.

- هيا بنا!.

قلتها بودّ كي أخفف من وقع لهجتي اللائمة. أسرعْتُ بملء
صحن لبن نخثره بأنفسنا من الحليب المجفف، مرددة وكأنها
تحدث نفسها:

- هذا يساعده!.

وجدناك ترقد على فراشٍ مبسوط لصق الجدار المغلف
بنايلون مطبع بوردي أحمر بدا قانياً على ضوء الفانوس الخافت
المعلق على رفٍ خشبي دق في الحائط بمستوى القامة. بشرتك
المشربة بحمرة البرتقال صارت صفراء كقشرة الليمون. غارت
وجنتاك. صغرت عيناك. صرت نحيفاً بطيء الحركة كمصابٍ
بالسل. لم تنطق بشيء وبسمة شاحبة رسمت وجهك المخدول.
حاولت النهوض فسقطتُ مرتين لاهثاً. أنهضتك وأخذتك إلى
صدري كنت تلهث وكأنك جريت مسافةً طويلةً. همستُ بأذنك:

- كن قوياً!

شاداً من عزمك. وضعتُ الصحن أمامك ودعتك كي تأكل وتقوي قلبك. جلستُ في ظلِ الفانوس ملتصقاً بالجدار البارد.. أتأملُ وجهك المكسور بنظراته المتوسلة علناً نكذب الخبر.. علناً لكن هيهات.

كنت لا أعرف كيف أواسيك، فلزمتُ الصمت بينما راحت تحدثك عن صلابة المناضل وتفاصيل صغيرة عن طفولة زوجتك حيث كانتا معاً في المدرسة الابتدائية، ثم المتوسطة، عن شيطنتها مع المعلمات في الصف.. عنفها.. عرامتها وأشياء من هذا القبيل.. برزتُ الجانب القبيح من شخصيتها ظاناً أنها تساعدك على نسيانها وتجاوز المحنة. لتختم حكايتها بنصيحة المناضلة المتحمسة:

- ما أدري أنت أش لون أتزوجتها.. مالها علاقة بالحزب ولا بالفكر.. زين رفيق خلصت منها!.

قالت ذلك في سعيها لمساعدتك على مواجهة المحنة منطلقةً من بنية فكرية ثورية لها قوة الدين، لم أغادر صمتي كنت أتكسر مع تكسر قسماتك المنصتة إلى حديثها وأكاد أنفجر بالنعيب الذي أراه وأسمعه في وجهك والذي تخفيه ببسمة فاترة وهزة رأسٍ وانية تحاول فيها أن تبدو متماسكاً، لكن عينيك الذاويتين لم تكونا في الغرفة شاحبة الضوء. كنتُ هناك في رحمك.. بيتك في الديوانية.. بيتك الذي هُددَ لولا وجودها معنا جلستُ قبالتك وانتحبتُ معك ولطمنا! ذلك وحده كان سيخفف ولو قليلاً عن ثقل تلك اللحظات.

رقدت شهرين كاملين في غرفة الطبابة الكئيبة. كنا نزورك

يوميًا، وقليلًا قليلًا نهضت من صدمتك راجعاً إلى حياة الثوار التي لا تعرف الهدوء والتراخي. فالمقاتل مشغول على مدار الساعة في تفاصيل اليوم. وكونك مسؤولاً عسكرياً لفصيل مقاومة الطائرات ولديكم مهمة الإشراف على السجن لم يكن لديك الوقت في التفكير بحياة خاصة عُرِفَتْ نتائجها؛ زوجة عافتك وشقت طريقاً آخر بعيداً عن حياتك.

لم ندرك يا "سعد" أن الحياة ومجراها الطبيعي هي غير الحياة التي كنا نتخيلها ونحلم بها لفقراء شعبنا!. ومنطق الحياة تحكمه ثوابت مختلفة عن منطق الفكر، تحكمه الغريزة وأرث العادات والتقاليد والطبيعة لا الأفكار. تعافيت لكن مشيتك اختلف إيقاعها فصارت كمشية من يحمل في خصره خنجرًا مغروساً. وبرغم خفة حركتك كنت تنوء بثقلٍ خفي أحسه وحدي دون الآخرين. كنت ترقص بجنون في مناسبات الثوار.. ومرةً انفردت وسط حلقة الرقص لتقدم لوحة فريدة بألمها؛ رقصة ديك مذبوح، تكسرت في البدء ثم انتصبت بقامتك رمحاً يشرع بالانطلاق نحو السماء، جمدت متوتراً في الهواء لثوانٍ، تمايلت كحائط منخور في عاصف الريح، ترنحت كسكران، ثم هويت مثل طير ضربته رصاصة عمياء، قبل أن تشدَّ جسدك وتراً، وتستقيم مستديراً حول محورك مثل مغزل. كررت الحركات حتى بدأت تنضح وتلهث وقسماتك تنبض ألماً ومرارة. قَدِمْتَ عذابك صافياً.. حياً في الرقصة، فجعلت حشد المقاتلين المحيطين بك يصفقون بحماس وأنت تدلف من الدائرة إلى العتمة خلف صف أشجار الجوز المحيطة بالمكان لتنتحب. ركضت إليك وحضنتك واضعاً رأسك تحت إبطي ورابتاً على ظهرك المهتز مع إيقاع النشيج، وهمست بكلمات لا تدوي جرحاً بل بدت

سخيفة باهتة لا معنى لها لكن لابد منها بينما أنوح في أعماقي
بأغنياتك

"بوية سعد يابوية..

الونة طالت.. يا سعد يابوية"

لم تفتح موضوع زواجك إلا بعد مرور عام، حينما أخذتني
جانبا عن الرفاق وهمست مبتسماً:

- دبرنه بطل عرق!. لمن إنتظلمُ أصعد ننتظرك!

كان شرب الخمر ممنوعاً. وكنا ممتنعين من ذلك القرار
لكنهم كانوا محقين، فالجميع محاصر مكبوت اجتماعياً وجنسياً،
والشرب يثير الأشجان والغريزة ويسقط حاجز الخجل، يضاف
إلى الوضع العسكري الذي يتطلب أن يكون الجميع مهئين في
أية لحظة للقتال.

تسللت مع الظلام. سلكت درب الجبلي الضيق الصاعد نحو
هضبة موقعكم، برزت من عتمة الساحة المجاورة لغرفة السجن
وسحبتي من يدي وانحدرت بيّ إلى فسحة بستان الرمان المطلة
على مجرى النهر الهادر في سكون الليل. السماء بلا قمر.
النجوم باهتة بعيدة. الحلكة شديدة. لا أدري كيف كنت تعد الكأس
فتصب العرق وتخلطه بالماء، كان الكأس المترع يلامس
أصابعي طالعاً من عمق الظلام. بعد الثالث سرى الخدر وبدأت
الأجنحة تنبت وبعد الخامس رفرفت فشرعنا بالطيران. قرأت
لك شعراً من أشعار علي الشباني:

«إمش گوه

غريج ويمشي حد الموت.. والخوة

بعد مامش ولك خوّه
 بعد ما يسهر لحزنك صديقك باب
 وأنت كتاب
 وأوراقك حرز وتراب
 ظلّ مَيّت .. ولك دنياك عميه وما يفيد كتاب»
 شدّتك القصيدة فصرخت بحماس:
 - ماشين للموت غوة.. غوة فعلاً!
 والوادم بحر.. شيوصل الغرگان
 والدنيا سفينة خوف... مفتاح وخذه السفان
 روحك يا سفينة خوف... والشاطي خذه السفان
 يا درب الخناجر يمشي وأهس بيك...
 وبين تموت بالدم عار
 ودنياك أبحرت بالنار
 وإنّ تصيح
 دربك ريح
 غوم... وطيح
 وإعبر.. كل جسر محروگ وتلّوه
 إمش للموت ... إمش غوه

.....

-2-

إِخْذْ رُوحَكَ... تَصِلْ لِلْمَوْتِ
إِخْذْ رُوحَكَ، تَجِي بِدَمِكَ شَمْسُ تَرْكُضُ...
يَطْغُ بَعْضَاكَ الَّلِيْهَوْبِ
وَالدُّنْيَا ذَنْبٌ يَكْبُرُ...
وَلَكْ تَزْغُرُ بِيَوْمِ اتُوبِ
بَعْضَاكَ يَجِي الَّلِيْهَوْبِ
وَسَافَهُ اتُوبِ
يَلْسُرْكَ يَغْرُكَ الْحَوْتِ
يَلْرُوحَكَ بَعِيدَ تَمُوتِ
يَلْمَمُشَاكَ كُلْ خَطْوُهُ مَسَارَاتِ...
وَصَبِرْ لَيْلِ انْتَرَسْ بِيَّيَانِ
وَإِنْتَ وَلَا تَخْضَرْ فَوْكَ عَتَبَةَ بَابِ!
وَإِنْتَ وَلَا تَطِيحْ وَيَهُ الْمَطَرُ... سَالُوفُهُ تَرَسْ الدَّمِ
وَلَكْ مَا وَرَدَ بِرُوحِكَ نَدَهُ الْحَالُوبِ
وَسَافَهُ اتُوبِ
لَوْ دَمَكَ يَتِيَهُ بِعَالِيَّاتِ الصَّوْتِ...
لَوْ يَصْفَنُ
إِخْذْ رُوحَكَ شَمْسُ تَفْتَرُ...

تصل للموت

وتنظر صدى... وت...

كنا نلمح وجوه بعضٍ كلما أشعلنا سيجارة.

وبغتهً سألتني:

- منو اللي أزوجها؟!.

-!....

سقطتُ في الصمتِ، فشَبَّ ضجيج النهر وجعل قلبي يركض
مجنون الدقات فصرْتُ أسمعها برغم دوي الماء.

سنة كاملة.. سنة يا "سعد" حتى تجرأتِ وسألتِ عمَّن أخذَ
رحمك وسكنه.. كنت أجاهد لبلوغ سطح الكلام وأنا أدرك تلك
اللحظة أن جرحك لا براء منه.

- ما سمعتني.. گلت من زوجها؟!.

كان صوتك خافتاً وكأنه أنبَحَ بغتهً. حاولتُ أن أدير الموضوع
صوبَ ضفة أخرى تنسيك الأمر فقلت:

- يعني أش يفرقُ إذا عرفت؟!.

-!....

لم تجب، فضجَّ قلبي والنهر من جديد. كنت أرى وجهك بقلبي
مطعوناً بالألم والغضب.

أضفتُ:

- سعد بلا هذا الموضوع.. خيلنا ننساه!

كان صراخك مكتوماً.

انتظرتُ حتى تخافت متلاشياً في الليل وهدير الماء، فقلت لك:

- سعد ليش ما جبتها هنا!..

- تحجي صدگ؟!..

لم أعلق فأردفت معيداً أسمها مرتين:

- نيران.. نيران أجيبها هنا.. هنا أبين الرفاق!..

انزعجتُ من جملتك الساخرة. قلتُ لك:

- وليش لا.. أني مو جبت زوجتي؟!..

- أنت مجنون راح تشوف النتيجة!..

كنتُ أدرك صعوبة الأمر لكن لم يكن لدي خيار آخر، إضافةً إلى أنها كانت فاعلة بالعمل السري وكدنا نعتقل.

صدقتَ يا "سعد" سوف أنشوي بنار دائمة بقية عمري بسببها.

استدركتَ قائلاً:

- زوجتك رفيقة ونيران ليس لها علاقة بالسياسة!..

أتينا على القنينة، فأخرجتُ من حقيبة ظهرِكَ قنينةً أخرى. بعد عدة كؤوس أخرى تشجعتُ فأفصحتُ عن وجهة نظري:

- تكول ما لها علاقة بالسياسة، بس تركتها أكثر من أربع سنوات. وهي جميلة ومرغوبة.. قاومت.. وقاومت لكن تعبت.. إلى متى تبقى وحيدة مع طفلتين تنتظر رجل غاب لأسباب ما

تفهمها.. تعبتي، فتزوجت رجل آخر!.

! _

شجعني صمتك والظلام وصخب النهر والعرق على القول:

- وَصَدَّكَتْ أَحْنَه رَاح نِذْخِلُ الْمُدِينُ مُنْتَصِرِينَ!.

كنت أسخر من حلمك وحلم المقاتلين الذي كانوا يجهرون به لكن بمرور الأيام يتبين لهم أنها مجرد أضغاث أحلام. أمعنتُ في الكشف ساعدتني العتمة والعرق فقلت كلاماً لم أزل نادماً عليه حتى هذه اللحظة وأنا أحملق في سماء الديوانية عسراً مستلقياً على ظهري في حقل حنطة. قلت لك:

- لازم تحترم موقفها، بدل ما تسقط بالرديلة لگت حل معقول
إلها ولبناتك!

! _

لم أسمع حشرجك. كنت تجود بنفسك كذبوح. فتشجعتُ
مضيفاً:

- على الأقل ضمانت حياة كريمة لبنتيك!.

صَمَتَ طويلاً. ففعالى لهائك، بدأت تنهج، وتتلعثم محاولاً قول شيء ما دون جدوى وبدلاً من الكلام صرخت صراخاً مكتوماً، مصحوباً بفحيح وكأنك تحدث نفسك:

[illegible]

وأشعلتَ سيجارةً، فرأيتُ وجهك مشوهاً، عاجزاً حاقداً، فقد مُقَّعَدَ مركب كمتعقِلٍ مكبِلٍ يرى زوجته تغتصب أمامه لكنها تستمتع بالمُغتصب. عالجتَ لتقول:

- لو بقه يوم بعمرى لازم أشوف بناتى وأشوف الرجل اللي
أحتل مكاني بالفراش!.

- هذا جنون!.

صرخت بصوتٍ مخنوق:

- أنى مجنون.. ما تعرفنى زين.. مجنوووووووووون!.

ثم انفجرت في نوبة بكاءٍ يذب القلب تردد اسم بنتيك اللتين
تحتفظ بصورتيهما في محفظتك الشخصية منذ هروبك.. ليلتها
أتينا على القنينة الثانية ونمنا تحت شجرة الرمان نوماً عميقاً
غير شاعرين بشيء، .

* * *

لم أتخيل أبداً أنه سيفعلها!.

ليلتها تصورت أن قوله مجرد ردة فعلٍ.

نهضتُ من بين سيقان الحنطة. نفضت ملابسي. الغروب
جعل السماء كالحة، خطوتُ نحو المدينة التي أعتم أفقها فبانَت
كضربة فرشاة باهتة السواد في محيط لوحة رمادية قاتمة.

في هذه البقعة الباهتة تبددت أعمارنا، وبعيداً عنها غاب
"سعد" وحشد الأحبة الحالمين بجعلها جنة. وبقيتُ وحدي أتتبع
ظلالهم وأنفاسهم وامتدادهم في البقعة التي عادت هذه الأيام
دامسة لا ذرة ضوء تنفذ من خلالها. كنتُ أفكر بذلك بينما
أنصت إلى حفيف السنابل الخفيف، ضجة عصافير على شجرة
سدر، عواء كلاب أمام بيوت من طين لاحت قريبة. هاأنذا أعود
إلى رحمي مع شحوب الضوء عليّ أستطيع اكمال كتاب سعد

المضني. لم يبق لي سوى ساعة واحدة، وبقي المشهد الأخير
يتوجب عليّ ترتيبه ليكون ككتابٍ مفتوحٍ عندما ألتقي بها وجهاً
لوجه.

أقبل هابطاً على منحدر الدرب الجبلي الضيق، بينما كنتُ أهم
بالصعود، ومن بعيد نادني ضاحكاً:

- نازل لك!

كان قد مرّ أكثر من ثلاث سنين على وجودنا بالقاعدة،
عانقتي بمرح، كان يرتدي كامل عدته العسكرية، بندقيته نصف
أخمس، مخازن الرصاص تلتف حول خصره الناحل، حذاء
جبلي تركي جديد، قلت له:

- على خير ! طالع بمهمة؟

هزّ رأسه موافقاً:

- لهذا السبب گلتُ لك البارحة لازم أشوفك!

دس يده اليمنى في حقيبته القماش، أخرج دفترأ صغيراً
وظرفاً، ومحفظة جلدية قديمة وضعها براحة كفي ونظر نحوي
قائلاً:

- تحتفظ بها. الوضع مضطرب. نازلين بالعمق إلى منطقة
خطرة، تبقى عندك لمن أرجع!

كان ذلك في نهاية صيف 1988 قبل أكثر من عشرين عاماً.
شدّني إلى صدره مودعاً وهو يضحك وعاد إدراجه صاعداً على
الدرب الضيق المظلل بصفي أشجار البلوط، ظللتُ واقفاً أتتبع
خطاه حتى غاب في العطفة لحظتها لم أتخيل أبداً أنها ستكون
آخر مرة أراه فيها، فبعد شهرين زحف الجيش العائد لتوه من

الجبهة مع إيران حال توقف الحرب في 8-8-1988، بشكلٍ مباغتٍ مسيطراً على السلاسل الجبلية قاطعاً الطرق. كان "سعد" مع المجاميع التي حوصرت في العمق قريباً من أرياف الموصل بينما كنا جوار الحدود التركية فاقترحمناها مع جموع الأكراد لنعيش رحلة جحيمية أخرى إلى أن أُسْتُقِر بنا المقام بعد أكثر من نصف عام في معسكر "خوي زرغان" للاجئين في أقصى الشمال الإيراني. في ذلك المكان الموحش البارد المحاط بالأسلاك الشائكة وأبراج الحرس الثوري الإيراني وسط سهل محاط بسلاسل جبلية كنا نتتبع أخبار من حُصِرُوا ونهرع كلما وصل ناجٍ لنسأل عن البقية، إلى أن حلَّ في المعسكر "أبو حازم" الذي كان مع مجموعة سعد، كنت أنتظر دوري لتسلم الخبز حينما سمعت خبر وصوله فانسحبت من وسط كتلة اللاجئين المزدحمين أمام شباك الفرن، وهرعتُ نحو قاعة الرفاق إذ كنا نسكن أنا وزوجتي في غرفة مستقلة، لم أجده فخرجتُ إلى الساحة الواسعة الممتدة من البنايات وحتى السياج وأبراج المراقبة، فوجدته يجلس وسط الرفاق متوسدين التراب. سلمتُ وسألته على الفور:

- وين "سعد"؟!.

تفرسَ في وجهي طويلاً فهو يعرف مدى علاقتي به. نزع نظارته السمكة الزجاج وراح يمسحها بورق سجائر لف، بينما لاذَّ الجميع بالصمت منتظرين، نضحت جبهته فمسحها بكم قميصه، وثبت النظارة على أرنبه أنفه، ثم أطلق حسرة مسموعة قائلاً:

- سؤالك نفسه حَيَّرَ المجموعة كلها!.

- !....

لم ينطق أحدٌ بكلمةٍ. سمعتُ الأنفاس تتسارع ودقات قلبي ضجّت كضربِ طبلٍ سريعٍ حينما شرع في القص:

- توزعنا مجموعات صغيرة؛ ستة، ستة، ستة وانتشرنا محاولين الوصول إلى قرى سهل الموصل على أمل أن يرتب لنا تنظيم الداخل الوصول إلى الحدود وعبور دجلة إلى سوريا. كان "سعد" معنا ومن أدلاء المجموعة ويعرف الطرق والوديان وزوايا المكان جيداً، الجيش انتشر يمشط الطرق والسفوح والقمم شبراً... شبراً والجنود يتقدمون على شكل موجات الواحدة تتبع الأخرى، كنا نخفي في كهوف وزوايا عاصية وفجر أحد الأيام وجدنا أنفسنا مطوقين في وادٍ ضيق وموجه الجنود اللي يفصل الواحد عن الآخر عشرة أمتار تقترب من مكاننا. تسلقنا السفح بسرعة. صرنا على هضبة صغيرة مشجرة اختفى بعضنا خلف الشجيرات والصخور، لكن رفيقنا "أبو أيار" ما قدر يصعد بسرعة لأنه كان مصاب بقدمه، صرنا نشرف على الوادي من علو عشرين متراً، فشفنا رفيقنا متكور على نفسه وراء صخرة أقترب منها جندي حتى صار على بعد خمسة أمتار منه، فسحب "أبو أيار" أقسام البندقية ووضعها بحلقه وأطلق. فسقط وتدرج إلى فسحة صغيرة وهمد، صاح الضابط بالجندي ليش كغتلته ولك ليش؟ فجأوبه الجندي؛ سيدي هو ضرب نفسه!. أمره الضابط بالصعود إلى الهضبة. قلنا انتهى أمرنا وصوت خطوات الجندي نسمعها تقترب من موضعنا. صار بنصنا بالضبط على بعد ثلاثة أمتار فقط. ودون اتفاق سحبنا أقسام بنادقنا ووجهناها عليه. جَمَدَ مثل صخرة يخلق بينا بجنون، مرت ثوانٍ وبلا ما يلتفت صاح: ما كو أحد

سيدي!، واستدار بهدوء كأن على رأسه طيراً، وانحدر ملتحقاً بفصيله المنسحب إلى عمق الوادي، ركضنا نازلين نبكي ودورنا حفرة قريبة وضعنا فيها جثة "أبو أيار" وغطيناه بالصخور مستعجلين. ورجعنا عكس اتجاه فصيل الجنود اختفينا في كهف ضيق الفتحة دخلناه زحف منتظرين هبوط الظلام. لمن نزلت الشمس انتقلنا إلى مكان آخر أكثر أمان ورتبنا حراسات، فكان وقت حراستي بعد "سعد". طلعت من الكهف. وسرت للمكان المنفقين عليه لكنني لم أجده كان اختفى، درت حول النقطة من كل الجهات ما شفت شي رجعت مرتبك للصخرة اللي كان الحرس يجلس عليه فشفت عليها بندقيته وحقييته بها أكثر من ثلاثين ألف دولار من مالية الحزب كُلف بحملها، تلفتت سكون وظلام وليلة بلا قمر اختفى بها "سعد" وما بقى كل أثر.

قلتُ مع نفسي:

- فعلها المجنووووووووووون!!.. فعلها!.

غادرت الحلقة، وهمتُ على وجهي، قطعْتُ الساحة حتى صدني سور الأسلاك الشائكة وبرج المراقبة هاذياً متسائلاً عن معنى اختفائه معيداً رسم المشهد، فرأيتَه في عمق الظلام وقبيل انتهاء نوبته بدقائق ينزع بندقيته ويضع حقييته على الصخرة ويتسلل على المسالك التي خبرها جيداً في السنوات المنصرمة. وبقي السؤال الذي حير ولا زال يحير الجميع:

- لماذا فعل ذلك وهو الصبور والمقاتل الخبير الذي له تجربة طويلة؟!.

لا أحد أقرب من روحه مثلما اقتربت، وليس لدي تفسير غير الآتي:

عندما رأى الموت دانياً والرفيق يطلق على نفسه في قعر الوادي، أصابه الوهن فقرر التسلل في المسالك التي يعرفها ليدخل "الموصل" ومن هناك إلى بغداد ليبحث عنهم منفذاً وعيده الذي أفضي به لي في ليل بستان الرمان في القاعدة:

- لو بقي يوم بعمرى، لازم أشوف بناتي وأشوف الرجل اللي أحتل مكاني بالفراش!.

ورد فعله عندما نعته بالجنون، حشجةً وصراخاً أسمعه الآن رغم ستار السنين:

- هو أني مجنووووووووووووووووووون!.

هل تمكن من النفاذ إلى المدن والوصول أو أن الجيش ألقى القبض عليه وأعدمه ميدانياً كما فعل مع العديد من المقاتلين الذين أصابهم الوهن فتوهموا الخلاص بالاستسلام؟!.

بقي هذا السؤال يشغلني حتى هذه اللحظة وأنا أقلب صفحات كتاب "سعد" الأخيرة، ما عمق حيرتي وجعلني أسرح في مخيلتي بعيداً هو ما أخبرني به صديق ورفيق مشترك نسيمه في الجبل "حيدر حنفي" لشدة سمرته وشبهه بالمصريين عن مصير "سعد" صاحبه وصديقه الحميم منذ أيام بيروت وحيدر صار قريباً مني في علاقة فيها أسرار. الحكاية التي رواها لي في مقهى "الهافانا" في دمشق عام 1997 عندما سألتها عرضاً عن مصير "سعد" بينما كان يحدثني منفجلاً عما لاقاه في "بغداد" مع اللجنة المركزية التي أنتخب عضواً فيها، حيث وفرّ لهم شخصاً قيادياً يدعى "أبو طالب" تبين لاحقاً أنه عميل سري قديم بيتاً مراقباً من قبل المخابرات وبكاميرات منصوبة في أماكن خفية. كنت أستمع بسماع رواية تلك التفاصيل الجديرة بفلم سياسي

بوليسي من نمط أفلام سبعينيات القرن الماضي، وعندما شارف على ختام قصته المخيفة سألته منتهزاً فرصة ما لديه من معلومات وهو في رأس الهرم:

- حيدر.. ما مصير "سعد"؟!..

- تقصد "أبو لينا"؟!..

- أي!..

نزع نظارته سميكة الزجاج وأقترب بوجهه مني عبر المنضدة الصغيرة الفاصلة بيننا. حدق بعيني وهو يمرّر منديله ماسحاً جبهته من العرق. أعاد النظارة وقال بصوت مختلف عن حماسته وهو يروي أحداث كاد يضيع هو وقيادة الحزب الشيوعي العراقي فيها، صوت تشوبه حيرة كحيرتي هذي اللحظة وأنا أتوجه نحو باب صفحته الأخيرة:

- صادفني في سوق مكتظ في بغداد الجديدة!..

- تحكي جد يا حيدر!..

- وداعتك!..

- لا تحلف مو نظارتك جعب أگلاص!..

- مثل ما أشوفك شفته!..

-!

حملقت به بدهشة غير مصدق:

- تشك بمعرفتي بسعد!?!..

- لا.. ما أشك!.. بس حاجيته؟!..

- لا..

- ليش؟!

- كنت خايف وهو خايف!.

صمت لحظة وضرب كفاً بكف مضيف:

- شگد متندم ليش ما حاجيته!.

من يومها بقيت أضرب أخماساً بأسداسٍ. رتبت قصصاً مختلفةً، تخيلته نجح بالتسلل من بين الجنود المنتشرين وبلغ أطراف الموصل، فرأيته يلوذ بمقعدٍ في عربة القطار النازل إلى بغداد، يتأمل الركاب والأضواء البعيدة التي تلوح من زجاج النافذة حالما بالعثور على عائلته، رأيته يترجل فجراً على سلالمة العربة الحديدية في المحطة العالمية القريبة من المتحف العراقي ويقف حائراً إلى أين يذهب، ثم يجوب الأزقة بحثاً عن معارف. تخيلته وفقاً لرواية "حيدر" ينجح بترتيب مأوى وإيجاد عمل إذ كان صحيح الجسد نشطاً قادراً على أداء أصعب الأعمال، قصةً كنت أرتبها كل مرة بطريقة وأمكنة مختلفة كلما عنّ على بالي، أمهد كثيراً قبل أن أرسم مشهد عثوره على بيت زوجته التي انتقلت إلى بغداد الشاسعة بملوناتها السبع. أوثت تفاصيل ذلك اليوم من لحظة خروجه من عملٍ في ورشة تصليح سيارات بالشيخ عمر إلى تسلله في المساء إلى بيته المسروق ليطل من شباكه متلصصاً، تخيلت تفاصيل لحظته؛ شكل وجهه، تعبير عينيه، جنونها، ارتجاف جسده الناحل، فيض ألمه المكتوم، غضبه وحقده الأخرس، لكنني لم أستطع أبداً تخيل رد فعله لحظة ظهور نيرانه وزوجها وطفلاتيه خلف زجاج النافذة.. لم أستطع. أكرر تأنيث المشهد بأشكالٍ وأوقاتٍ وأزقة ونوافذ

مختلفة في أحلام يقظتي الشاردة التي أسرح فيها كلما عنّ على ذاكرتي:

- اللعنة يا "حيدر" أي مخيلة أشعلتها بخبرك؟!.

لكن قصص مصيره الغامض تعددت واختلفت حسب تضارب الأخبار والرواة تحول "سعد" إلى مروية اختلف رواتها مع تقادم الأيام وإبحارها في غور السنين فصارت روايته من أساطير الذين ضاعوا في الحرب.

قبل أعوام ثلاثة أي في عام 2007 سمعت رواية أشد وقعاً وعنفاً. فقد اتصل بيّ تلفونيا من السويد "نجاح هلال" وهو رفيق من مدينتنا وتربطه علاقة قوية مع المفقود وسعى لمعرفة مصيره في سفراته الكثيرة إلى العراق وذهابه إلى المنطقة التي ضاع أثره فيها في أرياف الموصل قرب "الشيخان". فروى مشهد مقتله التراجيدي المطابق لمقتل الحسين في العاشر من عاشوراء في ساحة بكر بلاء. كان يروي اللوحة الدامية عبر التلفون:

- يقال نزلوه من سيارة عسكرية عارياً وربطوه إلى عربة زراعية بحبل غليظ طويل في ساحة داخل مجمع "باعذره". ومشت العربة تسحل جسمه وتدور في شوارع المجمع وترجع للساحة حتى تقشر جلدة وأنسلخ على الإسفلت وسط حشود الناس وبكاء النسوان وصراخ الأطفال وصمت الرجال إلى أن فاضت روحه فحملوه بنفس السيارة العسكرية اللي جابته!.

تزعجني دوما طريقة الروي الحيادية، التي تضمّر نبرة بهجة خفية أثناء رواية تراجيديا المصائر، بهجة ممزوجة بلذة غير مفهومه. أطبقت الهاتف وقلت لزوجتي:

- ما أقبح الإنسان!.

- ليش أش سمعت؟!.

- ما كو شي!.

* * *

بقيتُ بين حياتك وغموضها وموتك والسؤال:

- لِمَ تركت سلاحك والنقود وحلم الثورة وغبت في الظلام؟!.

أعيد ذلك السؤال كلما هزأت من تفسيرٍ حول اختفائك.

الظلام الذي ابتلعك تلك الليلة، أحالك حتماً وأسطورة تروى بطرقٍ مختلفة، لكن الخلاصة أنك غبت إلى الأبد في بحر الظلام والحكاية، فبقت لوعة صغيرة لا تبرح روعي التي دبغتها التجارب والمخاطر، لوعة صغيرة جداً هي اللوعة نفسها التي شغلت صفحةً من لحظات شرودي وسهوي في منفاي والمطلوب مني تبريد نارها في اللحظات القادمة وأنا مقبل نحو صفحة كتابك الأخيرة الذي كنت أظن أنني صرت نائياً عنه لكن قبل أسبوع جعلوه حياً بجملةٍ سأحكي لك كيف؟!.

مررتُ بمقر اللجنة المركزية لحزبك الشيوعي العراقي في ساحة الأندلس وسط بغداد. وصعدت إلى غرفة صغيرة في الطابق الثالث خُصصت كمكتب للأنصار، وجدتُ العديد من المحاربين القدماء قد شاخوا أتعبتهم الأيام يتكلمون بوهنٍ وكأنهم قادمون من ماضٍ بعيد مجترين ذكرياتهم أيام الكفاح. تعانقنا بشجن، كنا بقايا من زمنٍ ثوري فات، أرجحتنا التجربة على حافة الكهولة، والموت واقفٌ على الباب ينتظر، إذ لم يبق لنا

سوى سنين معدودة. سألني رفيق قصير القامة ذو وجه مغضن
مفلطح القسمات، بأنفٍ مفروش، وعينين ضيقتين:

- أنت من الديوانية؟!

- نعم!.

- تكدر تمر على بيت "لينا" بنت رفيقنا "سعد"؟! زارتنا قبل
سنة هي وزوجها. تريد تسمع عنه كل شيء، تكول فارغنه
وعمري ثمن سنين، لكن صدفة ما كان أحد من الأنصار
الموجودين يعرف عنه شيء!.

وأعطاني العنوان!.

ترجّلتُ، من سيارة الأجرة ودخلت زقاقاً عريضاً، كان المساء
قد هبط، وأمام ثاني باب حديدي إلى اليمين وقفت متردداً وسط
ضجيج المولدات التي تزود المناطق بالكهرباء حينما ينقطع
التيار العام، ضغطت زر الجرس، ورجعت خمس خطوات
مبتعداً، فتح رجل أشيب الشعر الباب ورحب بيّ، عرّفني بنفسه
كان أخوك الذي يصغرك بأعوام. دعاني إلى الدخول، وقال أن
زوج بنتك قتله الأميركيان قبل ستة أشهر على الطريق السريع
حينما اقترب بسيارته من رتلهم دون قصدٍ وكان في طريقة إلى
الديوانية من بغداد حيث كان يعمل أستاذاً محاضراً في كلية
الهندسة. عبرنا ممر الحديقة المسفلت. ومن الباب الداخلي
ظهرت شابة ترتدي حجاباً أسود، عرفتُها من أول نظره، لها
قوام زوجتك وضخامتها، وملامحها القوية وسطوة نظراتها،
لكن ثمة حزناً قاتماً يجعل من حركاتها ثقيلة وصوتها خافتاً كأنه
يصدر من تحت طبقاتٍ من الرماد:

- أهلا عمي.. أهلاً!.

وإلى جوارها يقف ثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة. بنت وولدان. أخبرتني على الفور أنهم أحفادك. وجوه غضة نظره. فيها الكثير من ملامحك، والبنت ذات الصفائر لها زرقة عينيك، وشقرة شعرك. عانقتهم واحدا.. واحداً. وحملت الصغيرة وأنا أعبّر عتبة غرفة الضيوف الواسعة. كنتُ أسمع لغط نسوة يأتي من عمق الدار، وكأن هنالك حشداً منهن يملئ الغرفة منتظراً. أخبرني أخوك أن جميع أخواتك حضرن مع بناتهن وأبنائهن، وهو يفضل تسجيل ما سوف أرويه ليسمعه لاحقاً، قال ذلك وأضاف؛ حتى نسيطر على الوضع، يقصد العواطف. استحسنت الفكرة، وعلى المنضدة، أمام الأريكة الوثيرة التي جلست عليها وضع مسجلاً كبيراً مهيباً بينما تشجّر حولي أخوك وابنتك وأحفادك الثلاثة ساحبين كراسي متحركة، منتظرين روايتي. أعدت سرد كتابك تاركاً كل المواقف الحزينة والمؤلمة من ستينات القرن العشرين وحتى السنة التاسعة من القرن الواحد والعشرين. نثرت روحك وحكايتك في بيت أحفادك، في عيني ابنتك المضرجتين بالدموع ولامحها المستكينة وهي تنصت بصمت. خلقتك بالقص حتى انتشرت رائحتك في البيت فشمتها ورأيتك بوجوه أحفادك. لم أترك ثغرة في القصة، جاءت سلسلة مناسبة حارة خارجة من تنور اليوم المحتدم بك من بكرة الصباح حتى لحظة عبوري عتبة البيت. وأنشاء القص أخرجت الصور التي أودعتني إياها في اللقاء الأخير وأنت تنزل لغيابك، صورك وأنت ترقص "الهیة" وسط حلبة المقاتلين في المناسبات، وأنت تضحك مصطفاً جوار رفاقك، على ضفاف الأنهار وفي عمق الأودية وعلى السفوح وفي القمم والغابات، وأنت تسبح في أحواض الينابيع والأنهار

الصغيرة، وصورتك مع ابنتيك، سألتُ عن الأخرى، فأخبروني بأنها تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى السويد. ولم أخبرهم بأنني مزقتُ يومياتك قبيل اقتحامنا الحدود التركية لوضوحها وكثرة الأسماء والتفاصيل التي تشي بنا كمقاتلين، ختمت القصة بغيابك الغامض، وعدم التأكد من مقتلِكَ برغم بحثي طوال تلك السنوات، بل وسعت موضوع رؤيتك في سوق من أسواق "بغداد الجديدة" ونهضتُ، فنهضوا جميعاً. وقرب الباب استوقفتني ابنتك وسألتني:

- عمي.. ليش ترك المجموعة، وين چان يريد؟!.

- ها.. ها....!.

تلعثمت فبدوت وكأنني لم أفهم ما تقصد، فأعادت السؤال بدقة طالبة مني قول ما أعتقده. ترددت في القول حائراً معقود اللسان.

... -

فحثتني بتوسل:

- الله يخليك عمو گول شي!.

غرزت عيني بقوة في قسماتها الجميلة وقلت:

- يمكن حتى يشوفكم!.

شهقت ثم رددت بصوت خافت:

- يا بويه.. يا بويه!.

وأوشكت بالتداعي جوار الباب فأحاطها أخوك بذراعيه.

ابتعدت في الظلام.

كان طيفك يطوف حولي وكنا نسمع معاً بوضوح نائحاً ينوح
بصوت مذبوح:

- وينك يا عراق.. وينك يا وطني!.

* * *

- وقع ما كنت أخشاه.

قلتُ مع نفسي. وسقط الهاتف الجوال من يدي وتبعثر على الرصيف.

عبرت صوب الرصيف المقابل. سرْتُ متوتراً وسط الزحام، ثم طفقت أرتجف وخيال المشهد المروع يجعلني أكاد أنهار على الرصيف، تماسكتُ بعناء ونقلْتُ خطوي الواهن مقترباً من ساحة كهرمانة متجهاً نحو "الكرادة داخل" حيث شقته، لا لم تكن شقته فهذا التعبير ليس غير دقيقٍ فحسب بل مجافٍ لواقع الأمر، فهو لا يملك شيئاً، فبعد وفاة والديه باع بيتهم الكائن في محلة "الإسكان" في كربلاء، وانتقل إلى بغداد مكان عمله كسائق حفارة ويعيل أخاً وأختين طالبة في المرحلة المتوسطة والثانوية وأختاً ثالثة مطلقة مع ولديها، أستاذ بيتاً بمنطقة "الصحة" في مدينة الحرية، يعود لعائلة هُجرت إلى إيران بحجة التبعية في أواخر سبعينيات القرن الماضي. آواه حتى الاحتلال 2003، إذ عادت العائلة وطردته من البيت فوراً، على الرغم من أنه كان يدفع الإيجار الشهري بانتظام لأخت المُهَجَّر الساكنة في المنطقة نفسها، فوجد نفسه وعائلته قد تضخمت بثلاث بنات وولد وزوجة، بلا مأوى، فسارع إلى احتلال الطابق الأرضي من شقة رئاسية من شقق تقع على (أبو نؤاس) وتطل على نهر دجلة وكأنها سور أمني عبر النهر يقابل ما سمي بالمنطقة الخضراء بعد الاحتلال.

- ربي.. كسر ركبي!.

رددتها نائحاً ووجهه الجميل يحجب عني الظهيرة، الناس،
الرصيف، الشمس والعالم. اضطربت ساقي فرحتُ أرتطم
بالمارة. وبغتهً فقدت ساقيّ فهويت على الرصيف. هرع إليّ
المارة. ساعدوني على النهوض، وأسندوني حتى مقهى صغير
قريب في زقاقٍ جانبي، أرخيتُ ظهري إلى مسندٍ مقعد خشبي
بأند القوي، حملتُ حولي زائغ النظرات فوجدتني في نفس
مقهانا الذي كنا نجلس فيها البارحة وفي كل مساء لتنفرج على
الصبايا الجميلات، كان معجباً بكاء صاحب المقهى الذي طوره
من مقهى صغير إلى مقهى أحتل الرصيف والرصيف المقابل.
حكى لي قصته فقد جرح جرحاً بليغاً بتفجير سيارة مفخخة على
الجانب الآخر من الشارع الرئيسي، لكنه نجا وواصل الحياة
بعنفوانٍ ليحول المقهى إلى إطلالةٍ على نهر الصبايا المتدفق
مساء كل يوم حسب تعبيره. كان يطمئنني.. أنا القادم من بلد آمن
في شمال القارة الأوروبية قائلاً: عشتُ وأعيش في بغداد منذ أن
غادرت، عشت فيها الحرب مع إيران وما تلتها من حروب
وحصار إلى الاحتلال، فالحرب الطائفية خلال العامين
المنصرمين، وكل يوم أتجول في بغداد، لكنني مازلت حياً..
حبيبي الموت جزء منا، أنت عايش في بلد يحدث فيه الموت
لضرورة أما لدينا فالموت مثل الماء قد تنفجر في هذه اللحظة
تلك السيارة، ويشير إلى سيارة متوقفة إلى جانب الرصيف،
ويشدني إلى جنبه فأحس بجسده ينبض حباً، وهو يقول ضاحكاً:

- لا تخاف نموت سوه مثل ما كتب صديقك الشاعر!.

بيتسم لخاطر فكرته بسمته الخفيفة ويضيف:

- وهذي أحلى موته سوه يا صديقي ورفيقي ولو أنت تتحسس من كلمة رفيق.. غيرتكَ أوريا!.

لم يكف عن الإشارة إلى سخرיתי من السياسة في العراق بعد عنف التجربة ومعيشي في دولة لم تدخل حرباً منذ أكثر من قرن وبنت شبه مدينة فاضلة تحترم الإنسان بينما وجدت الإنسان في مدينتنا التي كنا نظن أنها فاضلة "موسكو" مسحوقاً يلهث خلف لقمة الخبز، مذلاً، مُهاناً!.

وجدتُ صعوبةً بجعله يفهم تلك المعادلة!.

كان واقعياً ومنطقياً برغم قلة كلامه إذ أن كلماته تذهب إلى غرضها ومكانها المضبوط، هذا ما لمستّه حينما دخل في حوارٍ مع صديق لي يكتب القصة القصيرة جداً وهذه قصة الحوار:

قبل أربع سنوات من هذا اليوم الكالح، قصدنا إتحاد الأدباء في ساحة الأندلس، أمام قاعة المشرب صافحني بحرارة شخص لم أتعرف عليه بل أراه للمرة الأولى معرّفاً نفسه:

- الروائي علي مقداد!.

احتفظ بكفي اليمنى بين أصابعه وأضاف ما فسرّ سر معرفته بي:

- تعرف؟!.. خلف محمود

وخلف أعرفه منذ صباي إذ كنت أتابع بشغف ما ينشره من قصص قصيرة في الصحافة العراقية، ثم التقينا بعد أن رست بنا أقدار المنفى في "كوبنهاجن" حينما قدمته في أمسية أدبية، كتبت وقرأت تحليلاً لمجموعة قصصية كان قد أصدرها ذلك العام، وقضي في بيتي ليلة حدثني فيها عن الكثير من التفاصيل

المتعلقة بالنخبة الثقافية اليسارية التي عمل في صفوفها كشيوعي قيادي، ومدى زيف العديد من تلك الشخصيات التي كانت ومازالت تدعي اليسارية والنضال، وبقينا نتراسل في المناسبات، ودأب على بعث ما يصدره من كتب طوال تسعينيات القرن الماضي. سألته:

- عندك تلفونه!.

- قبل نص ساعة كان هنا، راح أتصل بيه!.

طلبه وناولني جواله. ابتهج حال سماعه صوتي وسألني عن مكاني فأخبرته فقال:

- دقائق وأكون يمك!.

جاء في سيارة حديثة وبصحبه شاب وسيم قدمه لنا قائلاً:

- ابن أخي.. مقالول!.

أخذنا ركناً في بار الضيوف بعيداً عن قاعة الأدباء المكتظة. عرفتهما ببعض، ورحنا في حديث يتعلق بشخصيات اليسار العراقي التي عايشناها هو في الخارج وأنا في الجبل، وعندما علم أن "حسين" مازال يعمل في صفوف الحزب الشيوعي سأله وفي نبرته سخرية:

- أنت مقتنع بجد بالعمل الحزبي؟!.

-!.

- أخي عقولهم مغلقة، أكثر من خمسين سنة قضيتها من عمري أعمل بحماس خفت وتشردت وجعت لأكتشف عبث

عمري، ما ينفعون عقول تعبانة ما تشوف!، والعمل معهم بلا نتيجة!.

عندها خرج "حسين" من صمته:

- خلي نفسك بمكاني، مواطن عراقي لدي وعي ونشاط سياسي في ظروف مثل ظروف العراق؛ احتلال أمريكي، تيارات دينية طائفية تريد العودة بالمجتمع إلى قرون مظلمة! لا توجد حركة أو حزب غير الشيوعيين من يريد حياة أفضل للعراقيين حياة مثل اللي أني أحلم بها، وتجربتي بالعمل معهم تشير إلى العكس وجدتهم أناساً صادقين، يعملون بجد وتفانٍ ضد الفساد والطائفية وتقسيم العراق، وأقدر أنهم أنظف من جميع القوى السياسية، فإذا ما عملت بصفوفهم ويا من أعمل وما معنى وجودي. أستاذ أني أريد إشاعة الثقافة والنور وما أريد أقف على الرصيف أفرج أش لون ينهبون الوطن.. إذا بقيت أراقب فقط معناه أني ميت!.. مو صحيح يا أستاذي!.

كان وضوحه قد أخرج "خلف" وجعله يلزم الصمت ويرمقه بنظرات عميقة وكأنه يتأمل نفسه، بعد إعلان رأيه الصريح اختلفت لهجة صديقي الكاتب فكف عن السخرية وصار يتحدث بخشية واحترام، و "حسين" لا يدري بأن "خلف" وقّع عقد عملٍ مع المحتل الأمريكي وقدم حال سقوط بغداد ليساهم في بناء وزارة الثقافة العراقية وبرر ذلك بدوافع وطنية عندما هاجمه العديد من المثقفين العراقيين الذين لديهم موقف من الاحتلال، وكان التبرير واهياً فلا وزارة الثقافة بنيت ولا العراق. وحقيقة الأمر؛ أنه باع تاريخه النضالي اليساري مقابل حجم الراتب الشهري المغربي الذي جعله ثرياً بحيث أخبرني في الجلسة

نفسها أنه اشترى بيتاً ضخماً في منطقة "الأعظمية" والشاب الذي أتى به وذهب في مشوارٍ كلفه بإعادة بنائه بتصميم غربي فيه مسبح مغلق، ودعاني كي أقيم عنده في زيارتي القادمة للعراق.

عقب الجلسة تلك وحواره مع "خلف"، تحاشيت الدخول معه في نقاشٍ، عن جدوى عملٍ حزبي وجدّ فيه معادلاً موضوعياً لوجوده الاجتماعي، فهو كما أخبرني، يجد لذةً في العمل السياسي العلني ويحمد المصادفات التي أبقتة حياً، ليرى ذهاب الدكتاتور وينشط علناً وهو في الخمسينات من عمره.

لكنه ظلّ يذكرني بين الحين والحين بالضيّق الذي يبدو على قسماتي كلما نعتني بالرفيق عامداً، وكنت أذهب إلى أقصى ما يعنيه كلامه من أبعاد فأتخيل لحظة عبورنا إلى الأبدية في شارع ما وسط بغداد، فأرتجف من هول اللحظة الخاطفة وأبتهج فرط محبته، وأعلق ضاحكاً:

- نموت سوه كصديقين بلا رفيق بلا بطيخ!.

فنهدر ضاحكين في زحام الشارع والمساء، وننحدر نمسح بعيوننا المذهولة وجوه الفتيات الجميلات الحالطات على الرصيف، ننحدر في بحر الناس كطفلين ضائعين حالمين.

أجلس على الكرسي الواطئ خائر القوى، مهدود المفاصل، عسير الأنفاس حتى أنني بدأت ألهث مختنقاً، وحببي القريب البعيد صار مستحيلاً.

أجلس في لهب الظهيرة قرب موقد الشاي، النار تضطرم فيّ فأتقلب على صدى صوت ابنه "أمير" المنكسر من بين نشيجه وهو يخبرني عبر الهاتف. تمسّكتُ بقوائم الكرسي. أطبقتُ

أجفاني، سابحاً بالنضح الغزير من قمة رأسي حتى أخص
قدمي. حاولت النهوض لكن جسدي خانني. هرع إلي صاحب
المقهى الشاب وقال:

- أنتَ تعبَانُ عمي لا تتحركُ.. ارتاح.. ارتاح

وابتعد، ليجلب قنينة ماءٍ من البراد الصغير القائم جوار
الموقد. فتحها وملاً لي كأساً:

- اشرب الدنيا ما تسوة!..

- !...!

وكان جملة أسقطتني في باطن صحراء فسارعتُ إلى
ارتشاف ما في الكأس من ماء.

- صح أش تسوّه الدنيا بعده؟!.

* * *

سمعتُ صوتاً يناديني بخفوت. كنت ساقطاً في نوم عميق، فلم
أنم ليل البارحة إلا مع نداء "سيد محمد" جارنا، نائب الضابط
الورع، من مكبر الصوت المعلق على عامود خشبي على سطح
داره وهو يدعو الصّيام للنهوض كي يتسحروا، أسهرني كتاب
المفكر الفرنسي "هنري برغستون" وهو يجوب الكون من
البذرة إلى أبعد نجمة، تكرر النداء بصوتٍ ارتفعت نبرته قليلاً،
باعدتُ أجفاني وكأنني أخرج من جبٍ، فتخيلتُ ملامح أبي
قريبةً وهو ينحني نحوي ويردد:

- بويه إگعد.. وقتي ضيق!.

صوته يشي بحنانٍ قديمٍ غريزي، بدا قادماً من طفولتي

البعيدة. كانت قسماته قوية نشطة رغم شربه الليلي. البيت ساكن. أجبت بخفوت:

- صار بويه!.

وأسدلتُ أجفاني سامعاً خطواته الحذرة المبتعدة وهو يتجه نحو المطبخ ليعد الفطور، كان ذلك في سحر يومٍ من خريف 1974 وقتها كنتُ في سنتي الجامعية الأخيرة، أعود من بغداد إلى المدينة في عطلة نهاية الأسبوع وفي العطل الرسمية. شدّني البعد والتأمل إليها، فأول مرة أفارق الديوانية والمحلة والعائلة، فمع بدء خفوتِ تمردي الصاخب على كل شيء، شعرتُ بالأسف لبُعدي عن أقرب الناس إليّ، لا ليس أقرب بل طلعتُ من جسديهما فرعاً، عزوتُ ذلك إلى ظروف الحياة، عنفها، فقرها، طبيعة ونمط وتقاليد البيئة العراقية، عدد الأبناء غير المعقول، فنحن عشرة؛ ست بنات وأربعة أولاد كنا نتكدس شتاءً في غرفةٍ من حجرٍ وننتشر صيفاً في ساحة البيتِ الفسيحة، لا وقتَ لديهما للكلام معنا، فهو في الدكانِ يعمل من الصباح حتى المساء، وهي في شؤون العشرة الصاخبين في ضيق المكان، فعدتُ أقضي وقتاً أطول مع أمي في البيت. والبارحة طلبتُ من أبي مصاحبته إلى مكان عمله في ورشة نجارة شركة "سكابانيوس اليونانية" التي كانت تقوم بحفر قنوات بزلٍ لاستصلاح الأراضي الزراعية من الحلة وحتى الناصرية، وكان مقرها في مدخل المدينة الشمالي على الطريق القديم الذاهب نحو العاصمة. نهضتُ وأديتُ طقوس الصباح. تناولنا فطورنا. بيض مسلوق، وجبن، وخبز حار جلبته من فرن "حاج جاسم" الكائن عند مدخلِ شارعنا. تخطينا عتبة الدار، فرشقتنا نسيمات خفيفة. لم يطرّ الفجر بعد. سحبنا دراجتينا الهوائيتين إلى

حافة الرصيف، ركبناها وسرنا من حي العصري إلى شارع
سينما الثورة في صوب المدينة الصغير، مخترقين مركز
المدينة. كان الصمت والفضة وحفيف أقدامنا وهي تدوس على
دواسة الدراجة الهوائية تجعلني أطوف في هوام اللحظة حالماً،
شاعراً بغبطة لم يزل طعمها غضاً في روحي وجسدي وأنا
أكتب الآن. كنا نخترق الأمكنة بذكرياتها. مررنا على محلّه
القديم خلف بناية البريد حيث قضيت طفولتي في ذلك الشارع
المكتظّ بالباعة والحدادين والتنورجية وبائعي الخمور،
والحلاقين. أحسست، ونحن نخوض في فضاء الفجر على تراب
قصتنا، بأننا نصل إلى أقصى السعادة بهذه المصاحبة وكأننا
ننبثق من جديد كعلاقة مع انبثاق الفجر، في يومٍ بدا غير عادي،
خضنا بصمتٍ مغمورين بمزيج الفضة وبقايا العتمة، كنت
مخدراً برائحته التي رسخت في شمي منذ الطفولة، مزيج فريد
من نشارة الخشب والعرق العراقي الصرف. وحمدتُ ربي على
يقظتي الباكّة بالتفكير بجوهر علاقة الابن بالأب، كانت تلك
المسافة من أسعد المسافات التي قطعتها بصحبته كل عمري.
كانت مرةً وحيدة، لم نكررها، فالحياة أخذتنا إلى مناحٍ لا مجال
فيها للتأمل، فقد تحولت إلى مجرد ركضٍ لاهثٍ للحفاظ على
الكيونة الفيزيكية فقط وكأننا في غابة. ركنا دراجتينا على
رصيف شارع فرعي يجاور قاعة سينما الثورة. وصعدنا حافلة
الشركة. قدمني أبي بفخرٍ إلى زملائه العمال:

- هذا أكبر أبنائي.. طالب بالجامعة!

ضجت الحافلة بالترحيب، والتعليقات الداعرة التي وشت
بمدى ما يكنزه أبي من روح مرحة خفيفة تختفي ما أن يحلّ في
البيت. سمعتُ خلال المسافة القصيرة نواذره، ولمستُ خفة

روحه وكيف يخلق النكتة والتعليق في مزاحه مع رفاق العمل. ترجّلنا في فسحة واسعة مرتبة، وضوء السماء سطع بفضته وأضاء الأشياء، لم أدرك وقتها كم جميلة هي لحظة شروع الإنسان بالعمل الجسدي التي تعني الحفر في الحياة وتوطيد تلك العلاقة الخفية بين جسد وروح الإنسان والمحيط، فقد كنت مدلهاً بالقراءة والأحلام، فأحيل كل شيء إلى الكتب!

تفرّق الجمع كلاً إلى مكان عمله. تبعث أبي الذي يقصرني قامه نحو سقيفة كبيرة مفتوحة، أشار نحوها قائلاً:

- ورشة النجارة!

وقبل أن ندخلها أقبل شاب جميل نحونا مبتسماً، فتوقف والدي ضاحكاً وقال بصوت عالٍ:

- هذا "حسين" من جماعتكم!

"والجماعة" شفرة سرية يفهما كل يساري عراقي، وهي أيضاً مفتاح يجعلك تثق بالمشار إليه، فتبوح برأيك دون خوف، والبوح وقتها يتعلق بالموقف من سلطة البعث تحديداً! ضجاً معاً في ضحكٍ صاخبٍ على تعليقاتهما حول مواقف وأشياء مبهمة بالنسبة لي، تعليقات بلغة العمال الصريحة الواضحة والتي تضيع لشدة سطوعها عليّ أنا المدله بالخط والجمل الفلسفية والقيم العليا التي كنت وقتها أجدها هي الحقيقة قريبة ودانية لكن لا يراها البشر وهذا ما ضيع عليّ بهجة ذلك الضحك العاصف الخاطف الذي وجدته آنذاك ساذجاً وأنا أتأمل "حسين" بوجهه المدور المصبوب صباً بدقة خالقٍ تأنى طويلاً في رسم قسماته المتناغمة. عيانان واسعتان عميقتان تسبر غورك، عيانان فيهما من نظرة الصقر الشدة، ومن عين العاشق الرقة، أنيق الملابس

رغم أنه ذاهبٌ إلى العمل، كما علّق أبي وهو يعرفني عليه وسط صخب تعليقاتهم وضحكهم، بلا شوارب، أطلق شعره حتى غطى أذنيه، نحيفاً رشيقاً، متوسط القامة، فبدا وكأنه لعبةً جميلةً في ذلك الفجر الذي سيعصف في حياتي:

- أي فجر ذاك.. إلى أين أفضى بنا وأنا في توالي العمر!..
أي فجر صاحب بضحكة أبي وضحكة "حسين" وذهولي!.

* * *

في صبيحة مشمسة من أصبح تلك الأيام المسكونة بالرعب توجهت نحو كراج بغداد سيراً على الأقدام حالماً بلقاء "حسين" الذي انتقل إلى بغداد، كنتُ أمل ذلك بعد أن أنجز مهمتي الثقيلة، تحاشيت الشوارع الرئيسية سالكاً أزقة فرعية من منطقة "أهل الشط" إلى أزقة "الجديدة" الضيقة القديمة فالجسر الحديدي، فشارع الصيدليات، فالشارع المؤدي إلى محطة الحافلات. لم يشغلني شيء سوى النجاح في تسليم بضاعتي الخطرة، وثائق مسروقة عبأتها في جيوبي لو أمسكوها معي لكانت نهايتي، من المفترض أن ألتقي بـ "علي عبد الباقي" ابن عمتي "نعيمه" المتخفي ذلك الوقت عن الأنظار (سيلقى القبض عليه ويعدم بعد ثلاث سنين من ذلك التاريخ وتضيع جثته إلى الأبد)، لتسليمه تلك الوثائق، كان ذلك يوم الجمعة المصادف 6 - 6 - 1980. لم أُنّب ولم أكف بالرغم من اعتقالي أكثر من أربع مرات وتعذيبي فلقاً؛ ذلك الضرب المبرح على باطن القدمين المربوطتين إلى خشبة وحبالٍ يمسكها شخص لا تراه وأنت معصوب العينين مقلوباً رأسك يتدلى يمسح البلاط وعندما تخدر قدمك من شدة

الضرب يفْلُونك ويجبرونك على الركض فتحس وكأنك تسير على إبر، وهم يعلمون جيداً بأن ليس لدي أي صلة بتنظيم سري بعد ما ظهر أن غالبية محلية الحزب الشيوعي في الديوانية متعاونة سراً مع الأمن، وفي المرة الأخيرة أجبروني على التوقيع على المادة "200" التي تحكم بالإعدام على كل من ينشط في حزب غير حزب البعث. برغم كل ذلك لم أستطع الكف عن اللقاء سراً بمجموعة من شباب المدينة، طلبة جامعة، وإعدادية، وعمال اختفوا في العاصمة بغداد، وتقديم ما بوسعي من مساعدات مادية ومعنوية، وفي المرة الأخيرة شكوا لي انحسار أمانة الاختفاء وترجوني تدبير وثائق تساعدكم على التنقل بين المدن ونزول الفنادق وتأجير الغرف. لم أوفر جهداً، فاتحْتُ العديد ممن أثق بهم من الأصدقاء، فكان من أسّر له بالأمر يهرب الدم من وجهه ويتلعثم بالكلام ويعتذر هارباً وكأنه في حضرة شيطان، فأغلب من فاتحتهم ذاق مذلة وعذاب الاعتقال، ولا أدري لِمَ لَمْ أدرك وقتها هول أن تُطالب أحداً بوثائقه الشخصية كي يستخدمها سياسي مطلوب، لَمْ يتجاوب معي سوى "هاتف حسين" كان زميل دراسة قديم بمرحلة الإعدادية وموظف معي في دائرة آل بدير الزراعية (سيلتحق بعد هذا التاريخ بسنوات أربع إلى الثوار في الجبل، ويلقى عليه القبض في وشاية مندرس ويعدم في سجن أبي غريب عام 1987). قَلْبْتُ الأمر طويلاً، فجذبني مشهد خزنتهُ ذاكرتي، رأيته في دائرة تجنيد الديوانية حينما ساقوني جندياً قبل خمسة أشهر لخدمة الاحتياط، فبينما كنتُ أستفسر من نائب ضابطٍ يجلس خلف منضدة صغيرة عن مكان وحدتي العسكرية، تركني

وأشار إلى شابٍ بالبحث عن دفتره في صندوقٍ من الكارتون
مركون قرب الباب قائلاً:

- دَوْرٌ عليه هناك!

أدركت أن الصندوق يحوي دفاتر الطلبة المؤجلين حتى
إكمال دراستهم. فكرت بالسرقة بعد أن تعسّر الحصول على
وثائق من متبرعين، قصدتُ دائرة التجنيد مرتين وحاولت لكنني
لم أنجح؛ ففي المرة الأولى وجدت الغرفة خالية من المراجعين
الذين يوفرّون لي مهمة إشغال الموظفين، وفي الثانية كنت
أنحني على الصندوق وأهم بتعبئة كيس جلبته معي فسمعت
أحدهم يسألني، التفت فوجدته جندياً يبدو أن دخل لتوه إلى
الغرفة المكتظة:

- هل لديك دفتر في الصندوق؟.

ارتبكْتُ وخفق قلبي بشدة. تماسكت حابساً رجفتي وأجبت:

- لا أبحث عن دفتر أخي فهو مريض!

فأخبرني بعدم جواز تسليم الدفتر لغير صاحبه. قصدتُ
"وصفي" صديقيّ الجريء، له أخو مختلفٍ أيضاً، وشرحت
الأمر. هزّ رأسه ولم ينبس بكلمة، وفي اليوم التالي جاءني بأكثر
من عشرين دفترأً، ذلك يعني أن عشرين مناضلاً سيتخلص من
احتمال القبض عليه مدة سنة على الأقل تترقد موزعة في جيوبي
وأنا أقترّب من سيارات بغداد. كنتُ أتخيل فرحتهم حينما
يجدونها بين أيديهم، وأتخيل مدى مشاعرهم التي ستتقد نحوِي،
(ولم أحسب حساب ذلك اليوم الذي قبض فيه على أحدهم "سلام
رءوف" طالب سادس ثانوي يحمل دفترأً من تلك الدفاتر التي

سرقناها، فيطالبونني بالاختفاء وأنا على وشك الزواج، لكن ذاك الشخص صَمَدَ وأنكرَ معرفته بقضية دفتر خدمته المسروق وأدعى بأن أحدهم سلمه له ممن كان مختفياً وقتها، وسلام وجدوه مقتولاً بظروفٍ غامضةٍ على سطح بيتهم في "حي العروبة" بالديوانية بعد أشهر من إطلاق سراحه). ليس دهشتهم فحسب بل دهشة "حسين" الذي أضطر هو الآخر إلى ترك عمله ومغادرة المدينة ليعمل في بغداد تاركاً فراغاً هائلاً في يومي بعدما تعودنا على بعض، فقد كنا نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع في مقهى "قدوري" وسط المدينة فعرفته على "سعد" وكان قد مرّ على عودته من بيروت قرابة سنتين، وعلى "أحمد" الذي كان وقتها يعمل في استعلامات مقر محلية الديوانية. وفي إحدى العطل أخبرني "حسين" بأنه سيذهب إلى بغداد يوم غد موعد تقديمه إلى "محكمة الثورة"، إذ سبق وأن حكى لي قصته والمشكلة التي سيقدم إلى المحاكمة بسببها؛ كان قد تعين في مديرية الطرق والجسور، فوجد أن الأجور قليلة جداً لا تتناسب مع طبيعة العمل ووقته فطالب وزملاؤه زيادة، فجوبهوا بالرفض من قبل النقابات الحكومية فنظموا إضراباً عن العمل، فألقي القبض عليهم وعذبوا وفصلوا من العمل وقدمت أوراق قضيتهم إلى محكمة الثورة، سلمني مفتاح غرفته بالفندق، وطلب مني الاحتفاظ بملابسه وأوراقه وأشياءه فيما لو حكم عليه. لم يرجع من بغداد فاصطحبتُ بعد ثلاثة أيام "أحمد" إلى فندق "الثورة" في جانب المدينة الصغير، صعدنا السلالم إلى غرفة الإدارة، فرافقنا موظف الاستعلامات إلى غرفته المطلّة بنافذتها العريضة على شارع سينما الثورة الضاحج بمحلات الباعة

والمطاعم. لملمنا حاجياته. كنتُ حزيناً وعطره يعوم في فضاء الغرفة، متضوئاً من ملابسه، مالئاً أنفاسي، بينما صدى صوته الناعم يتردد في حفيف حركتي وأنا أدس أغراضه في جوف حقيبةٍ جلديةٍ.

لم أستطع زيارته طوال فترة سجنه لعام كامل في سجن "أبو غريب" فقد كان ذلك ضرباً من المستحيل فوقتها كنت جندياً مكلفاً وتحوم حولي الشبهات وقتها منعت "السلطة" النشاط السياسي في المؤسسة العسكرية لغير حزب البعث، دأب على كتابة رسائل تصلني بيد من يزوره، رسائل يصف فيها أحواله في السجن وكيف يشطب الثانية والدقيقة والساعة واليوم حالماً بالشارع وجلسة شرب معي، سطور قليلة تقطر ودأً وشوقاً يحملها سعد أو أحمد بالتناوب كلما ذهباً إلى مواجهته نصف الشهرية. كانوا يقصّون عليّ أحواله، فأقصها بدوري لوالدي الذي لم يكفّ عن السؤال عنه منذ غيابه عن العمل، وحينما أكملت مدة خدمتي أكمل هو مدة سجنه فعدنا إلى الديوانية وعدنا نلتقي كل يوم، لا يفرقنا إلا وقت العمل حيث عملتُ موظفاً في دائرة زراعية نائية. صار تلازمنا يغيط "أحمد" و "سعد" المتزوجين. كنت أقول لهما حينما ينهضان في المقهى:

- الله وياكم!.

- يعني ما توصلنا!.

كنت أرافقهم كلاً إلى باب بيته قبل ظهور "حسين" بحياتي.

أقول هازلاً:

- لا.. أنتم ينتظركم فراش وجسد حار دعونا نسهر أني و
"حسين"!!

نسهر مبحرين في شؤون الحياة ومشاغلها فاكنتشفت أنه مدله
بالتصوير ولديه محاولات بالرسم. أراني العديد من تخطيطاته
بالأسود والأبيض أغلبها نساء عاريات في أوضاع مختلفة
لقطتها عين فنان حساس حاذق. ومن ناحيتي تفننت في توفير
طقوس شرب الخمر. ففي رمضان تغلق النوادي أبوابها، فننتيم
ونلقى إلى الشارع. كان لا يطيق الشرب في غرفة الفندق بعد
تجربة السجن. فاقترحت السكر في الشارع. فالتفت نحوي
محملقاً بعينيهِ الواسعتين ثم قال:

- أش لون؟ أووين؟!!

- لا تسأل خل ينزل الظلام وما عليك!!

في ذلك العام 1979 جاء رمضان في لب الشتاء. ابتعنا
قنينتي عرق وفستق من بارٍ يبيع سفري. قلت له وأنا أسحب
معطفه الأسود الثقيل مظهرأ جيبها الداخلي:

- ضعها هنا!!

وفعلت مثله

رمقني بعينين باسمتين فيهما دهشة وتساؤل:

- وبعدين؟!!

قالها مبتسماً فأجبتة:

- هيا بنا!!

ابتعدنا عن مركز المدينة إلى شارع "الإسكان" العريض

المؤدي إلى معمل الإطارات. ومن حافة سجن "حي العصري" الشهير بدأنا نسير بخطواتٍ بطيئةٍ على رصيف الشارع، واضعينَ بستانَ النخيل على يميننا والبيوت المعتمة على يسارنا، وبالعكس في رواحنا ومجئنا، بينما نرتشف العرق خالصاً من فم القنينة، مخففين طعمه الحاد بحبة فستق مملح، نقص على بعضنا مغامراتنا مع النساء، كنْتُ كعادتي أسوي الحبة قبة مضيفاً على كل قصة عابرة ما يجعلها تكتظ باللمس والسر والإثارة. وكان شحيح الكلام، أنتزع مغامراته انتزاعاً. حسدته على عمله كمصورٍ في أستوديو بكربلاء لامساً بمخياتي الجامحة حشد النساء اللواتي يدخلن غرفة التصوير. أشكالهن، أطوالهن، أجسامهن، ملابسهن، حركاتهن، أصابعه المقتربة من أفخاذهن، ألمس وأتخيل وأمتلئ غيظاً حينما يتوقف عند حدود نزع الثوب ضامراً المشاهد الأكثر إثارة. كنا نهرب من الرعب الرابض في ليلتنا وعلى عتبة الفجر وبحر أيامنا القادمة. لا أتذكر الآن بالضبط بما كنا نحكي به حول ما ينتظرنا من هولٍ بعد حديث النساء، لكن ما أتذكره فقط بوضوح حديثنا عن النساء بعزم محاربٍ قديمٍ شرسٍ محاصرٍ يقاتل وهو يتأرجح على حافة هاويةٍ سحيقةٍ والمرأة قشته، كنْتُ واقعاً في حب "ناهده" الصبية في الخامس الثانوي زميلة أختي الصغيرة في المدرسة، سمعتُ صوتها وأنا ألوذ في غرفتي المعتمة، فأخرجني إلى فسحة ضوء نفسي، وجعلني أنهض من سريري، وأفتح بابها المفضي إلى الصالة، فباغتني وجهها الفاتن ورقبتها الطويلة، وهي تحرق بعيني بجرأة، فوقعتُ في الحب من أول نظرة، بادرتها بالتحية، فجاءت إلى غرفتي، لتتحدث عن الكتب حديثاً أدركتُ ما خلفه

لنسقط بعدها في الجنون، فالتقي يومياً لندوب، على سريري في
عتمة غرفتي وتحت أدراج الكتب.

كنا نتدفأ بالنساء وقصص الحب فأحكي له عن صغیرتي
الفاتنة وجحیم القبل الذي نتصور فيه ظهر كل يوم فتبرق البهجة
في قسماته التي يضيئها مصباح يتدلى من عامود طويل يتوسط
الشارع، كنا نرطب لحظاتها بالسكر وأخيلة النساء لنغفل قليلاً
عما يثقل صحنونا ونومنا. نغفل عن خاطر خطاهم لحظة القبض
علينا.

وقتها كنت خارجاً للتو من اعتقالٍ رابع، وفاقداً أحبة كان
يوميّ يثور بهم.

- وأنت "حسين" ما تحب؟!.

تلمع عيناه، ويلوذ بالصمت، ألح، فيقول:

- بعدین أحبي لك!.

- يعني أكو!.

أقول في صوت عالٍ قبل عبّ رشفة أخرى وألحّ، فيخبرني
بأنها "وفاء" بنت خالته طالبة خامس ثانوي أيضاً، لكن المشكلة
أن أختها التي تكبرها بسنة متعلقة به أيضاً، هو يحس ذلك
بالعيون والوجه دون كلام، لكنه يحب الصغرى التي سيتزوجها
لتصبح رفيقة عمره.

ركبت الحافلة المتوجهة إلى بغداد، انتخبث مقعداً جوار
النافذة، الدفاتر المسروقة تثقل لحظتي، عظامي ترتعد بين الحين
والحين من خاطر اكتشاف أمري في نقطة تفتيش، لم أكن جباناً،
لكنه الخوف الغريزي الذي ينتاب الجسد لحظة الخطر، توترت

طوال الطريق وشرطي عسكري صعدَ بعد دقيقةٍ من جلوسي يحمل عصاه، ورشاشته تتأرجح على كتفه، أتجه نحوَي تماماً وجلس على المقعد في الجانب الآخر، يفصل بيننا الممر الضيق، قبل أن تتحرك الحافلة صعدَ رجل مخابراتٍ وهو شاب أنيق أعرفه ابن المطهرجي الفلسطيني "سعادة" لبثَ واقفاً قرب السائق لحظات يحدق نحوَي قبل أن يجلس على المقعد المجاور له، وظلَّ يتلفت بين الفينة والفينة نحوَي، فكنت أتصنع الغفلة واللامبالاة، بينما دمي تجمَّدَ في عروقي، تجمد فعلاً وليس مجازاً، قلت مع نفسي:

- سيطبقون عليّ ولن أرى حسيناً إلى الأبد!.

أبادَ الخاطر قواي، فعدتُ أحدق بعينين كليتين إلى ذراعيّ الساقطتين في حضني كشيئين هشين لا علاقة لهما بجسدي. سقطتُ في دوامة الوهن حتى وصلنا مدينة "الحلة". توقفتُ الحافلة على الطريق الخارجي المؤدي إلى بغداد، وهم الشرطي العسكري بالقيام، فانكمش جسدي وذراعه أثناء نهوضه اقتربتُ مني. أغمضتُ عينيّ متمنياً التلاشي، ولم أفتحها إلا حينما تحركت الحافلة، فلم أجدَ لا ابن الفلسطيني ولا الشرطي العسكري، فسقطتُ على الفور في نومٍ مثل ميتٍ، ولم أرجع إلى الحياة إلا على ضجيج الركاب وهم يترجلون من الحافلة المتوقفة داخل كراج "العلوي" في بغداد.

بين حوارٍ وأزقة باب الشيخ وحي الأكراد تخلصت من الدفاتر بتسليمها لـ "علي"، الذي سألني عن وجهتي، فأخبرته بأن لدي موعداً مع صديقٍ، فأوصاني بالحدَر الشديد لأن الحملة بلغت ذروتها، وحذرنِي من ارتياد البارات لأنها المصيدة الأهم التي يقع فيها اليساري وأردف ضاحكاً:

- يعني مثل الجامع والحسينية للمتدينين!.

جئته خفيفاً. كنا قد تواعدنا تحت نصب الحرية في ساحة التحرير، فاجأني قائلاً:

- سنلتقي بصديق مختلف أيضاً!.

أمام مكتبة النهضة جعلنا نتفحص الكتب المعروضة المنشورة على مدخلها. كان الوقت غروباً والاكتظاظ على أشده. قدرتُ أن مواعده في مكانٍ قريب. وفعلاً بعد دقائق معدودة أقبل شابان عانق الأول "حسين" بشوق وعرفت لاحقاً بأنه "ميثم جواد" كان متوسط القامة، أنيقاً، يرتدي بنطلون جينز، وقميصاً أبيض مبقعاً بورودٍ حمراء صغيرة تنتشر في تناغمٍ على صفحة البياض الناصع، يضع نظارة طبية عريضة تمنح ملامحه الوسيمة رزانة مبكرة، صافحني شاداً كفي بين أصابعه القوية، يصحبه شابٌ أقصر قامته، أسمر، قميصه لاهث البياض مفتوح على صدر كثيف الشعر، يدعى "أحمد" تصافحت معه أيضاً. ومشينا باتجاه ساحة النصر. من خلال الحديث تبين أنهما مختفيان وأن مسؤولهما أُلقي عليه القبض قبل أسبوعين. فأبدت مخاوفي ناقلاً تحذيرات "علي" لكن "ميثم" خفف من حذري معلقاً:

- بغداد كبيرة جداً، من غير المعقول تسيطر السلطة على كل شيء فيها!.

كنا نتصبّب عرقاً. عبرنا ساحة النصر وسينما بابل. كان المساء قد هبط فأضاءت مصابيح الشارع الأرضية والوجوه. بغتةً هاجمني هاجسٌ يلح؛ ثمة من يتعقبنا، ففي دوار نصب "الجندي المجهول" القديم، وكنا نتداول في أي بار نجلس توقفنا، فلاحظتُ شخصاً طويلاً القامة سميناً، يرتدي بذلة سوداء وربطة

عنق. تسمّر مرتبكاً، واستدار عائداً وكأنه بوغت بعيني المصوبتين نحوه وتوقفنا المفاجئ. لم أخف خشيتي، قلت لهم ذلك. لكن الرجل غاب في زحمة الشارع عائداً من حيث أتى. صعدنا باتجاه "أبو نؤاس" وقصدنا بار فندقٍ يواجه "دجلة" منقادين لـ "حسين" ملك البارات، دلفنا من خلال بابٍ جانبي إلى ممرٍ مسفلتٍ طويلٍ انتهى بنا إلى حديقة واسعة مكتظة بالرواد والضجيج، جلسنا حول أول مائدة تحت شجرة تتدلى من أغصانها مصابيح يسقط ضوءها من بين الأغصان على سطح المنضدة والكراسي الأربعة المحيطة، مع أول كأس عرق سرت النشوة ونشط العقل وذهبت الخشية، فانشغلنا بحوارٍ عويص حول الأفق القادم، طرحنا سؤالاً عن جدوى أن يختفي المناضل وهو لا يحمل سوى صحيفة بحروفها الصغيرة وأوراق وكتابات لا تغني شيئاً، كنت وقتها متحمساً لفكرة الكفاح المسلح، وأجد به وسيلة وحيدة للسيطرة على السلطة وإقامة نظام اشتراكي عادل.

لا أتذكر كم عيبنا من الكؤوس، وكان "أحمد" قد غادرنا قبل ساعة، فبقينا نحن الثلاثة نتحاور، ناسين الرواد والمخاوف والقصة، وكأننا نحلق في الهواء حتى أن "حسين" تعب من الشرب والكلام فغفا على كرسيه. قمنا نترنج. لم نفلح بإيقاظه لكنه تمكن من الوقوف دون أن يفتح عينيه، سندتة بذراعي وخطونا نحو الممر الضيق، قلتُ لـ "ميثم":

- سناخذ تاكسي وتبات معنا الليلة!.

ما أن قطعنا نصف الممر حتى أنقض علينا من باب جانبي مفتوح على بناية الفندق، جمع من الرجال. لووا أذرعنا خلف ظهرنا وسحبونا إلى الشارع سحباً. أيقنت هذه المرة بوقعتي واعتقدتها الأخيرة، وأحدهم يهمس بأذني بفحيح:

- كُتلنا الجوع أولاد الكعبة!.

قلت مع نفسي:

- كانوا في انتظارنا إذن!.

لفحتني أنفاسهم، كانوا أنيقي الملابس وجوههم تلتصق بوجهي أو تكاد، جرّونا جرّاً إلى زقاق جانبي يقف في ركنه شرطي مرور في كابينه خشبية حارساً لمكتب دائرته. وبغته دوت في نفسي جملة تشبه صرخة فاجعة:

- لقد انتهيت!.

لم أقاوم. انصعت ببسرٍ مع خطواتهم المسرعة المقتربة من سيارات ثلاث يقف أمام أبوابها المفتوحة ثلاثة رجال. عندما صرنا قرب أول سيارة، جمعت كل ما بيّ من قوة ونجحت في دفعهم بعيداً عن جسدي، لم ألحق، أنقض عليّ أربعة منهم، فأستغل "ميثم" ارتباكهم، كانوا قد أدخلوه الحوض الخلفي، فخرج من باب السيارة الأخرى، وركض باتجاه شارع أبو نؤاس، فسدّ عليه شرطي المرور الطريق في اللحظة التي هوى فيها أحدهم بمقبض مسدس على وجهي. تصنّعت الإغماء. حملوني حتى الباب المفتوح وألقوني في الحوض الخلفي، جلس أحدهم جوارى. خاطبه السائق:

- شدّ عيونه!.

- سيدي نهيته بالضربة.. لمن نوصل!.

كنتُ أحاول معرفة وجهتهم بقياس المسافة بين المكان الذي قبضوا علينا فيه، والمكان الذي يقصدونه، لم تمر سوى دقائق معدودة حتى رأيت عارضة خشبية ترتفع وصوت قدم تضرب

الأرض مؤدية التحية العسكرية، فقدرت أنها "مديرية الأمن العامة" الكائنة في شارع النضال؛ مكانٌ نُسجتْ حوله أساطير مفزعة عن عمليات تعذيب وقتل تجري به سرّاً:

- إذن دَخَلتَ العالم السفلي مع أعزّ صديق!.

همدتُ بلا حراكٍ، على مقعدِ السيارةِ الخفي، متصنعاً فقدانَ الوعي ومستسلماً تماماً لكفّي شابٍ قويتين تمسكان بذراعيّ.

كما هو شأني، حينما أجدني في مصيبةٍ تجلّدتُ، وبدأتُ أعد نفسي، لمواجهةِ الوضع الجديد، هذه المرة ليس أمامي سوى الصمود بعد أن وقّعت في الاعتقال الأخير تعهداً بعدم العمل بالسياسة، لكن ماذا عن صديقي هل سيتمكن هو الآخر من الصمود؟! دونَ ذلك سيكون مقتلنا شنيعاً.

قبل أن يسحبني من جوف السيارة وَضَعَ قطعة قماش سوداء على عينيّ، وقيّدَ يديّ بجامعةٍ حديديةٍ ليس خلف ظهري كما يجري هذه الأيام بل إلى الأمام مما سمح لي بحركة نسبية، دفعتني خطواتٍ عن السيارة، فوقفت مثل غريق أعوم في الفراغ وجلبة سيارات أخرى توقفت، أعقبها صوت أبواب تفتح وتغلق بصخب، ثم ذراع تطبق على زندي وتعتّني فخطوت معها مسافة أمتار قليلة.

- أوْگف هنا منيوك!

قالها محرراً ذراعيّ من كفيه القويتين، أرهفتُ سمعي متابعاً خطواته المبتعدة حتى خفتت تماماً فساد سكون لثوانٍ معدودة أعقبه جلبة باب حديدي فُتِحَ بأزيزٍ ویدٌ سحبنتي بعنفٍ. فكدتُ أسقط على وجهي. ثم بعد خطوات قليلة انحدرنا على ممرٍ بدا وكأنه يغور بباطن الأرض يهب من عمقه هواء بارد جعل

جسدي يقشعر، فرحتُ أرتجف بشدة قال ساخرًا:

- ها خفت!.

- !....

ليس أمامي سوى الصمت، صمت حتى لحظة التحقيق فقط
والجواب على قدر السؤال بالضبط؛ هذا الدرس تعلمته من
تجارب اعتقالتي السابقة. تعثرتُ بشيءٍ فنهزني ضاحكاً بسخرية:

- أعمى.. مو درج ما تشوف!.

أحصيتُ ست درجات، رفعتُ قدمي لأصعد السابعة فهبطت
على أرضٍ مستوية، أختل توازني مما جعل الشرطي يضحك
مكرراً شتائمهِ البذيئة المبتدئة جملة

- أعمى ولك أنت!

أمرني بالجلوس، فهبطت على بلاطٍ باردٍ على الرغم من أننا
في عزِّ الصيف.

- أين حسين وهيثم؟!.

تساءلت مع نفسي، إذ سادَ سكونٌ تامٌّ عقبَ جلوسي، وسمعت
أحدهم يقول:

- سيدي.. نأخذهم للحفلة!.

فردّ عليه صوتٌ شديد النعومة:

- سكارى ما راح يحسون بالضرب!.. خليهم للصبح..

وسمعت صوت "ميثم" يطلب سيجارة من سجانه فقال له:

- أكو تدخين هنا.. راح ندخنك ألك يا إباحي يا ملحد يا كلب!.

قلت مع نفسي:

- إذن أنهما إلى جوارِي.

خَفْتُ وحشتي قليلاً. وما أن أرحت ظهري للجدار البارد حتى شعرتُ بهم يقيدون يديَّ إلى شيءٍ باردٍ صلبٍ. بعدها سكن كل شيء.

من أين يأتي النوم وما ينتظرنا غداً خبرناه أنا وحسين جيداً أما "ميثم" فيبدو أنه أول اعتقال له وإلا لما شحذ سيجارة من الجراد، مددتُ ساقِيَّ وقربتُ وجهي من كفيَّ والشيء الصلب، أزحتُ طرفَ قطعةِ القماش إلى أعلى قليلاً باليد الحرة فوق بصري على يديَّ الأخرى مربوطةً إلى قنينة غاز مليئةً وجواري يهمد "حسين" دون حراك وكأنه ميت. لم أجد "ميثم" ولم يقع بصري عليه إلا عام 2010 أي بعد ثلاثين عاماً حينما دعيت إلى "كربلاء" لإقامة ندوة أدبية فرأيتُهُ مبتسماً بنفس ملامح شكله تلك الليلة الليلاء يطلُّ بنظرةٍ ثابتةٍ من صورته الفوتوغرافية المعلقة على حائط غرفةٍ وسط صور حشد من شهداء شيوعي كربلاء بمقر "الحزب الشيوعي".

كُنَّا لصق جدار ممرٍ عرضه ثلاثة أمتار خالٍ تماماً فقد انقطعت حركة الحراس منذ أكثر من ساعة، كورتُ جسدي بشكل جانبي كوضع الجنين معانقاً البلاط مما مكنني من رؤية أبواب غرف الممر المغلقة والممتد من مكاني قرابة سبعة أمتار ينكسر بعدها نحو اليسار مشكلاً زاويةً قائمةً، لمحت في أعلاها قرب السقف الخفيض عين كاميرا تتحرك مارةً على الموضع الذي أجلسونا فيه في طريقها نحو عمق الممر، ثم تعود ببطء لتمسحنا ثانية في طريقها لرصد الممر الآخر. حسين على

هموده بحيث لم أستطع سماع صوت أنفاسه على الرغم من شدة السكون، وحده صوت حركة الكاميرا مسموعاً، كنتُ أركز كل طاقتي الفكرية لإيجاد وسيلة تجعل إفادتنا تتطابق في التحقيق سواء في جهنم التعذيب، فإذا تمكّنا من عبورها سيحاولون إيقاعنا في جلسات التحقيق عن طريق أسئلة تتعلق بتفاصيل صغيرة.

الثواني تمرّ مثل البرق وأنا مضغوطٌ بين الكاميرا وصمت حسين، وهول يوم غدٍ، أحاولُ تكثيف قصة علاقتنا بكلماتٍ قليلةٍ أسرّها له في وقتِ دورة الكاميرا بعيداً عنا.

تابعناها حتى عبرتنا في طريقها نحو الممر الآخر. همستُ قرب أذنه القريبة:

- تعارفنا في الديوانية، التقينا صدفه اليوم، ما أعرف صاحبك!.

وصمتُ والعين الزجاجية المعلقة سقطت علينا. انتظرتُ حتى رجعت من عمق الممر وعبرتنا، فأضفت جملة أخرى بصوتٍ شديد الخفوت:

- ما نحجي بالسياسة، بنات وشرب وكرة قدم!.

-!

لم يحرك ساكناً وكأنه لم يسمعي. لا أدري، كيف انقضى الوقت، لا أدري إذا كنت قد نمت أم لا. كنتُ في ليلٍ أظلمٍ وسكونٍ ورأيتُ نفسي في أمكنةٍ موحشةٍ عارياً أرتجف برداً، وحببيتي الصبية المطحونة سماراً صارت نائيةً بعيدة لكن ملمس جسدها اللدن الأسمر الغض طرياً أحسه بلحمي، ثم رأيتُ أمي

بوجهها الحزين توشك على البكاء وهي تنحني نحوي، وأبي
بوجهه الصارم يعيد على مسمعي حكمته القديمة بعد إطلاق
سراحي من أول اعتقال عام 1970:

- ولدي الموت حق.. فلا تمت ذليلاً!

ثم رأيت "حسين" يسحب عارياً وهو يصرخ، وثبت المشهد
الأخير فأصبح الصراخ متصلاً متصاعداً فأيقنت أنني لم أكن
أحلم بل أسمعهُ وهو يستنجد صارخاً بأن لا علاقة له بالسياسة
ومسؤول عن أخوته القُصُر. صراخه مزق أحشائي، وكان أشدَّ
عليَّ من لحظات تعذيبي التي تلتَه.

ظلوا يعذبوننا أكثر من عشرين يوماً على فترات متقاربة،
فلقة، ضرب عشوائي، أسمعونا موسيقى تثير الرعب، صعقونا
بالكهرباء في أماكن حساسة، يجري كل ذلك دون أن نرى شيئاً،
فقطعة القماش أسقطتنا في عالمٍ سفلي مثل بئرٍ فيها دوامة، ليس
له علاقة بالعالم الذي في الأعلى. أصررتُ على أقوالي طوال
جلسات التعذيب، وكنتُ لا أكف عن إزاحة قطعة القماش قليلاً
إلى الأعلى، فوجدتُ أنهم نقلونا إلى غرفةٍ صغيرةٍ كأنها مدخل،
وكنا نرقد جوار بعض، "حسين" ثابتٌ على صمته وهموده،
وعلى الجدار المقابل لم تزل صورة للرئيس "أحمد حسن البكر"
الذي أزاحه صدام العام الفائت معلقةً وهو يبتسم بوجهه البليد
لعين الكاميرا، كفوا عن أخذنا إلى غرف التعذيب، فسقطنا في
رتابة الأيام والصمت والعمتة، نستمع كل يوم إلى معزوفة
العذاب التي تنطلق من غرفٍ مجاورةٍ، صراخ مخلوط بشتائم
بذيئة، صراخ رجال ونساء وأطفال نتخيلهم يتضورون ألماً،
وقليلاً.. قليلاً أصبحت أشياء العالم حُلماً قديماً رأيناه مرة في
طفولة بعيدة، وحببتي صارت طيفاً يعاشر حلمي ويقطتي. في

تلك اللحظات أسفتُ جداً على عودتي من بيروت، ولو كان بوسعي لعضضت على أصابعي ندماً، لكن الذي فات فات، لعل وعسى يطلقون سراحنا، سأترك كل شيء وأتزوج وأعيش بعيداً عن تداخلات السياسة وهذه المذلة، مذلة ما هذه المفردة المسالمة الواهية، فالأمر كابوسٌ أصبح الاستيقاظ منه شبه مستحيل وأنا مربوط إلى قنينة غاز جوار صديقي منذ ما لا أدري كم من الأيام! داخلني شعور بأنهم نسونا منشغلين بأعداد المعتقلين المتزايدة والذين نسمع وقع أقدامهم وصراخهم وهم يعذبون، كنتُ مسروراً لصمود صديقي، فأخر حفلةٍ بقيت الأسئلة أثناء التعذيب نفسها وكان ذلك من عوامل مقاومتي وثباتي، لم يبقَ أماناً سوى عبور التحقيق حينما يحررون المحضر.

يوماً بعد آخر احتشد المدخل الذي نحن فيه بالعديد من المعتقلين، ومن خلال حركتي وأسئلتي عرفت أن جلهم مشتبه بهم، اعتقلوا مع مطلوبين غالبيتهم من اليسار، مما فتح لي كوة ضوءٍ جعلتني أحلم بروية الشارع مرة أخرى.

أيقظني صوت فيه أنوثة يردد أسمى متسائلاً، فأجبتُه وأنا بين النوم والصحو بنعم، ساعدني على النهوض وقادني بصمت، صعد بي سلالاً، سار بي مسافاتٍ ثم هبط على سلالٍ أخرى إلى أن أوقفني بحركةٍ من كفه الممسكة بساعدي الأيمن، سمعته يقرع باباً قرعاً خفيفاً ثلاث مرات، فأتى صوت غليظ، واثق:

- ادخل!.

سحبني أمتاراً في عمق الغرفة وأجلسني على بساطٍ وثير. أحسست بأن المكان واسع، وضوء ساطع اخترق عصابة عيني فبان من خلال نسيجها أو تخايل لي هيكل منضدةٍ واسعةٍ عليها

مصباح قراءة قوي يضيء جلستني. أمر الصوت نفسه الشرطي بالانتظار خارج الغرفة. قدرت أن هذا المكان هو غير غرفة التعذيب الضاجة والتي يحسها المرء ضيقة خانقة كأنها البرزخ. سقطت في صمتٍ امتد، فانتابنتي رعشة خفيفة هزّت جسدي لأعشار الثانية توارت وعادت تطوف في جلدي المقشعر، ولو امتد الصمت أكثر لرحت أرتعش، لكن المحقق بدأ بأسئلته التقليدية عن اسمي وعمري وعلمي قبل أن يأتي إلى الأسئلة الحارة عن قصة علاقتي بالمعتقلين. تماسكت وأنا أجيب فقد حررت من خلال الأسئلة بأنهم لم يدققوا بتاريخي حتى لحظة التحقيق، لم أحمّد عن القصة التي رتبتهّا مع "حسين"، كوني لا أعرف سواه والتقينا صدفة، ورويداً.. رويداً بدأ الغضب يعتري المحقق، فقد صار يلقي أسئلته بنبرة عصبية، وكلما تصاعد سخطه وثقت من قوة قصتي ومن براعة صوغي إلى أن وصل إلى سؤال كان يعتقدّه الأهم، فبعد أن لزم صمتاً طويلاً نسبياً قال:

- زين صدقنا كلامك، لكن شنو اتجاه صاحبك السياسي؟!.
- لم أتلکأ ثانية واحدة إذ قلت وكأني أحدث غريباً في مقهى:
- ما أدري.. ما نحجي بالسياسة، بس بالنساء وكرة القدم والعرق!.
- سمعتُ خطباً على المنضدة، وأزيز كرسي يزاح، فانكمشتُ ووقع خطوته تقترب مني. ثم أحسسته ينحني عليّ ويصرخ بحقدٍ أملس سام وبلهجة أرياف تكريت.
- أنعل روح "فهد" بقبرو!.
- وأنهال علي ركلاً عنيفاً جعلتني أتكور ملتماً على نفسي مثل

جنين أن على السجادة إلى أن كَلَّتْ قدماه فداس على رأسي
وفركه بحذائه لاعناً فهد، وسلام عادل، وكل شيوعي ساقطاً!

برغم شعوري بالانسحاق مثل حشرةٍ أحسستُ بنشوةٍ غامضةٍ
انتشرت في أعماقي لهزيمته وهو يطالب مني بصوتٍ خفٍّ
غضبه بالتوقيع على الورقة التي من المفترض أنه سجل أقوالي
عليها إذ أدركت أن إفادتي تطابقت مع إفادة حسين. وقَعْتُ
ورجع بي الشرطي، ساد السكون فتلصصتُ من طرفِ قطعة
القماش متأكداً من خلوهِ الغرفة وهمست له:

- سنخرج قريباً!

- !....

ورحْتُ أتأملُه كان يضع ذراعيه المقيدتين بين ساقيه
المضمومتين، محني الرقبة كأنه يحدق بالسجادة عبر كمامة
عينيه المحكمتين والتي لم يحاول قط إزاحتها مرةً واحدةً كما
سيخبرني لاحقاً.

تأملته، وتمنيت عناقهُ، سيخبرني في جلسة على نهر دجلة في
قابل الأيام بأنه كان يود عناقِي أيضاً لصوني السر. وتخيلتهم
يطلقون سراحنا معاً، فنهرع إلى أول بار يصادفنا لنحتفي
بخلاصنا من موتٍ أكيد في عالمٍ جحيمٍ سفلي، لكن الأمر جرى
بطريقةٍ كانت مرعبة بالنسبة لي، ففي اليوم التالي لم أجد حسيناً
جوارِي بل بقيت أياماً إلى أن أخذوني يوماً مع معتقل آخر في
سيارة لا ندري أين تقصد، لم نكن مقيدين، وبعد أن قطعت
السيارة مسافةً أمرونا بإزاحة قطعة القماش عن عيوننا. فتعرفتُ
على الشارع عبر زجاج النافذة، كنا نقترُب من ساحة الطيران

في طريقنا إلى ساحة التحرير. كان الوقت مساءً والشوارع مكتظة بالمارة، همستُ مع نفسي:

- ما أجمل الحياة يا إلهي!.

حركت حذقتي ببطء شاملاً حيز المركبة. فوجدت شاباً أنيقاً بربطة عنق يجلس لصقي من اليمين والمعتقل الآخر من اليسار، بينما شغل شابٌ صغير السن المقعد المجاور للسائق، كُنْتُ أتوقع حالماً بال لحظة التي سيطلبون فيها منا النزول من العربة والذهاب وأتوعد مع نفسي:

- أخذُ تكسي لبيتِ حسينٍ أولُ ما يفكوني!.

لكن حينما عبرت السيارة ساحة "الميدان" ومرت أمام الباب الرئيسي لوزارة الدفاع، لتستدير يساراً نحو الشارع المؤدي إلى جسر "الصرافية"، ثم إلى اليسار أيضاً لتتجه نحو باب جانبي للوزارة يقف إلى جانبيها جنود مسلحون يُست. إذ سأدخل تجربة جحيمة أخرى في زنازين الاستخبارات العسكرية.

* * *

ضاقت بي السبيل!.

أبي يداري قلقه في الدخول والخروج من غرفتي، يشرع بالقول لكنه قبل أن تتحرك شفتاه يخطو خارجاً، أتابع قامته القصيرة من الخلف بلباسه الداخلي الطويل وفانلته الداخلية البيضاء، وهو يجتاز الباحة الداخلية ويدخل المطبخ ليعود ثانية بعد ثوانٍ ويسألني:

- ابني أنت متأكد من مكانك الجديد!.

أجيبه بنعم، فيضيف بصوتٍ فيه رعشة:

- يعني أمين!.

يسمع جوابي ويخطو دائراً بأرجاء البيت. أسمعه يحدث أُمِّي الجالسة بمواجهة باب الصالة كعادتها كل غروب تسهم شاردة بعينيهما الحزینتین نحو نخلة الحديقة وباب البيت، مبدئاً قلقه من قراري.

ضاقَت بي السُّبُلُ!.

لم يعد لدي مكان آمن في مدينتي التجأ إليه، إذ استنفدت كل الأمكنة الممكنة، بيوت الأقرباء، الأصدقاء، أُرسي عمتي التي أخفنتني شهوراً وعانيت فيها تجربة مرّه فقررت اللجوء إلى بيت أهلي وهو أخطر الأمكنة التي من الممكن أن تُفتش في أية لحظة فيما لو انكشف أمری من الجبهة، إذ لم تبعث وحدثي العسكرية إلى مدينتي كتاب هروبي، فقد كنا تشكياً جديداً ضيفاً على وحدة مدفعية من فرقة أخرى، وهربت في إجازة في شدة الهجوم الإيراني الشهير على شرق البصرة منتصف تموز 1982 فقد عدت إلى بيتي المستأجر وقلت لزوجتي:

- خلص ما أرجع للجبهة إلى الأبد!.

- وأش لون بعدین؟!.

- ما أدري!.. ما أدري، لكن ما أريد أموت بهذي الحرب!.

وبقيت مختفياً لمدة شهر في البيت، إلى أن وجدت من يوصلني إلى الثوار في الجبل فالتحقت تاركاً زوجتي وابني في الشهر التالي، ولما لم تكتب وحدثي العسكري إلى دوائر الأمن فقد أشيع في مدينتي الديوانية كوني مفقوداً. لذا ارتدت زوجتي

السواد حداداً، وبقي الأمر هكذا. لهذا كان من أشدّ مخاطر اختفائي في بيت أهلي لمحيّ من أي طفلة أو جار أو أي واحد فسيشاع على الفور كوني لست مفقودا وسأنكشف وتكون الكارثة.

كان أبي ليس غير مكترثٍ لخطورة وجودي فحسب، بل كان سعيداً بقربي وأحاديثنا المتشعبة حول كل شيء، الحياة والناس والتاريخ والسلطة والمستقبل والنضال بينما كانت أُمّي مضطّرة لقبول الوضع وأسمعها تقول مع نفسها بعد أن يتعبها التفكير في النتائج المهولة عندما تتخيلهم يقبضون عليّ في البيت، فالعديد من العائلات أُعِدِمَتْ بالكامل لإخفائها هاربين فكيف بوضعي وهي تعرف أنني عدتُ من الثوار المسلحين في الجبل:

- أش يريد يصير خلي يصير.. أبنته لو أحنه ما نحمله منو يحمله!.

ما ضيق عليّ السبيل وأسدل ستاراً أسود على كل شيء هو نفسي. فرغم أن زوجتي انتقلت مع ابننا من بيت أهلها، وعدنا نبات ليلياً في فراش واحد إلا أن مباهج الليل المفروش بدفء الجسد الناعم الذي حُرِمْتُ منه ما يزيد على السنة أصبح يقض مضجعي، صرت أتخيلهم ينقضون عليّ وينتزعونني من جنة الفراش إلى جهنم الأقبية، فأنشل رعباً ويصيبني الوهن فأدفعها بعيداً عني قبيل وصولي الذروة وأنكمش في طرف الفراش مخبئاً وجهي بين ذراعيّ الملتفتين حول ساقيّ هارباً من عينيها المتسائلتين المستغربتين، وتطور الأمر بحيث بثّ أفقد أعصابي وتصيبني هستريا حينما أكون وحيداً، ومن هنا قررتُ ترك البيت والزوجة والمدينة وأول من فكرت به هو "حسين" إذ صار الأقرب، والمطلع على تفاصيل قصتي كلها، فعقب

خروجنا من المعتقل تشابكت علاقتنا وتعمقت فعدنا نلتقي بانتظام، كان مجرد التطلع بعيني بعض يبعث في نفسي البهجة والراحة، أمسى الوقت ينقضي مثل لمح البصر، وبقي حب المرأة شاغلنا، كنت أروى له تفاصيل عنائي في مواجهة القيم والتقاليد الاجتماعية العراقية المعادية لمشروع الحب، وكيف نجحنا بفضلها إذ كانت جريئة قوية واجهت الجميع بحبها فأذعنوا خوف الفضيحة.

قضينا أياماً من شهر عسلنا في بيته. هو كذلك عندما تزوج بعدي بأشهر ترك فندقاً سياحياً سافر إليّ ليقضي شهر عسله في بيتي المستأجر في الديوانية. ودأبنا على التزاور والمحبة إلى أن حلت في بيته ليلة 23 - 8 - 1982 لأخبره في الصباح همساً بأنني في طريقي إلى الثوار في الجبال، ففتح عينيه دهشة وودعني لأغيب ستة أشهر قضيتها أجوب أرياف السليمانية مع ثوار ملتحين بقملمهم وملابسهم الرثة وأسلحتهم القديمة، وهناك أخذتني حماسة الثورة والحلم والشوق للأحباب، فاقترحت على القادة التسلل إلى المدن لخوض العمل السري ورحت أحلم بموافقتهم وأسرح في خيال شخصية المناضل المتخفي ورؤية الأحباب زوجتي وطفلي وحسين. فدأبت على كتابة الرسالة تلو الأخرى لهم إلى أن اقتنعوا وقرروا السماح بذلك. أتذكر حتى الآن بهجتي في اللحظة التي أسرّ لي مسؤول السرية ونحن في جامع قرية ومن خلف قامته أرى الثلج يتساقط بكثافة من النافذة الصغيرة المطلة على الوادي العميق والغابة البيضاء الكثيفة:

- حضر نفسك رفيق، مع الفجر تكون جاهزاً!

لم أُنم ليلتها. كنتُ فرحاً فرحاً سأستغرب له وأندم عليه لاحقاً، وأنا أعاني من ظروف الاختفاء المدمرة، في تلك الليلة السعيدة

النادرة ظللت يقظاً أحلم باللحظة التي سأقرع فيها الباب فيفتحها صديقي وأراه، سأخبره عن تفاصيل حياة الثوار اليومية ومشقتها، الكائن، الجوع، المسير الطويل، تسلق جبال وعره، استجداء الخبز، الطائرات المروحية التي تباغتنا وتقتل العديد منا أحياناً عن وعن. أتخيل ذلك متسائلاً:

- هل سأنجح حقاً في الوصول؟!.

لا أدري متى سقطت في النوم فأخر ما رأيته من فتحة باب الجامع فضة خفيفة سرت في الوادي، حلت بعدها في عالم آخر، رأيت نفسي طفلاً، ألعب في الشارع، وألهو ببراعة زمن لم تكن فيه حروب، تعبت فجلست في ظل جدار وغفوت ليوطني همس خافت، باعدت أجفاني فتخايل لي وجه ينحني عليّ موشى بالضباب، فركت عيني فاتضحت قسماً رفيقي الذي أبلغني أن أكون جاهزاً، كان يكرر نداء إيقاظي وخلفه في عمق قاعة الجامع أصطف المصلون من فلاحي القرية ثلاثة صفوف يرددون:

- الله حي.. الله حي. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

ويتميلون بجذعهم الأعلى يميناً وشمالاً مع الإيقاع الرتيب. وإلى جانبي تبعثرت أجساد المقاتلين كملايس رثة ببنادقهم العتيقة وحقائبهم القماش وهم يتوسدون سجادة المسجد قرب مدفأة الخشب. الفضة الخفيفة ملأت الباب والنوافذ.

- الرفيقان بانتظارك!.

نهضت. عدلت ملبسي. خطوت نحو الباب والمصلون بدأوا بترديد:

(أشهدُ ألاَّ إلهَ إلاَّ الله..)

أشهدُ أنَّ محمداً رسولَ الله)

أسكرني إيقاع التردد، فجعلتُ أمشي وكأنني في حلمٍ، لبست
حدائي، وعبرتُ العتبةَ بصحبةِ الرفيق الذي أيقظني، سَرَتْ في
جسدي رعشةٌ لا أدري مبعثها؛ هل من دفقِ الهواءِ البارد أم من
الخطرِ الكامن في بحرِ ذاكِ النهار؟!.

نزلنا على سلم ضيقٍ من الحجر، فالجامع شُيد على مرتفع
وسط الوادي الضيق يطلُّ على بيوتِ القريةِ المنتشرة أسفل
السفح.

جوار نبع الماء المتدفق بخير مسموع، شاهدتُ رجلين،
فعرفتُ أنهما المقصودان. سلَّمتُ بندقيتي وعانقتُ الرفيقَ الذي
أيقظني مودعاً، تحركنا باتجاه عمقِ الوادي، لم أنطق إلا عند
الضرورة، ومع هبوط الضوء بفضته الناصعة قبيل شروق
الشمس تبينت لي قسمات الوجهين الغريبيين، الأول شابٌ وسيماً
يصغرني بسنواتٍ، قوي الملامح، يرمقني بودٍ وتساءل ويتكلم
العربية بلهجةٍ قريبةٍ من لهجةِ مدينتي. أما الآخر فهو قصير
القامة نحيف ينطق العربية وبها لكنة، أخبرني بأنه مكلفٌ
بإدخالنا مدينة "السليمانية" بسلام. مع حلولِ الظهيرة وصلنا
قريةً تقع على هضبةٍ تطلُّ على شارعٍ مبلطٍ ضيقٍ يصعد ليضيع
خلف جبل بعيد قال الدليل إنه يصلُ قسبة "ماوات" المحاذية
للحدود الإيرانية. تناولنا وجبةَ الغداء في بيتٍ عند طرفها، خبز،
ورز، ولبن.

من المنتظر أن أكون في بغداد عند المساء فيما لو سارت
الأمر بشكلٍ طبيعي، تأخرنا قليلاً فالساعة جاوزت الواحدة

والنصف بعد الظهر، والطريق إلى بغداد يغلق عند الرابعة عصراً خوفاً من الثوار. كنتُ والدليل الكردي قلقين بينما كان الشاب الوسيم متماسكاً، لا تفارق فمه وطرف عينيه البسمة طوال الوقت، ويتفرس بعينين قويتين في الوجوه والجدران ونساء القرية. وأخيراً جاءت حافلة صغيرة مكتظة بالفلاحين، فأبدلنا بدلاتنا الكردية بملابس المدينة على عجلٍ، تحدث الدليل مع سائقها وركبنا في حوضها الخلفي على مقاعدها المتقابلة، خرجت من الوادي والسلسلة الجبلية لتدخل سهلاً فسيحاً، ثم صعدتُ إلى طريقٍ مبلطٍ عريض يربط المدينة بـ "سيد صادق" كان مزدحماً بالعربات العسكرية وقوافل الدبابات فالمعارك محتدمة على الحدود القريبة، لم يكن التفتيش شديداً وبعد اجتياز سيطرة المدينة دخلتُ الحافلة كراج "بغداد" وتوقفتُ. وأشار لنا السائق نحو سيارة وحيدة:

- ألحقا هذي آخر سيارة!.

هيبنا نعدو، وجدنا مكانين شاغرين. جلسنا متجاورين في الصف ما قبل الخلفي، وتحركت بنا. أربع ساعات يا إلهي، وسأكون مع "حسين" وجهاً لوجه، أربع ساعات وسأكون على مسافة ساعتين من مدينتي حيث زوجتي وابني، كم حلمتُ بلمسها ولمسه، كم غرثُ فيها بالحلم وغارثُ فيَّ لأستيقظ في وحشة ليل القرى على بللٍ وخيبة. عادتُ حلماً بعيداً.. بعيداً، لكن في تلك اللحظة لا يفصلني عنها وعن "حسين" سوى ساعاتٍ أربع فقط، فيما لو مررتنا نقاط التفتيش الكثيرة وخصوصاً سيطرة "كركوك" التي يُقال إنها الأصعب، ففيها يقف أصناف الأمن جميعاً؛ رجال المخابرات والاستخبارات والأمن والشرطة العسكرية، همسوا بأذني في الجبل:

- إذا عبرت منها قلّ وصلت!.

قبيل دخول كركوك بمسافة تربو على خمسة كيلومترات دخلت الحافلة في مجمع كبير من باب حديدية ضخمة وسارت قرابة كيلومتر لتتوقف في ساحة انتشر فيها رجالٌ مسلحون بثياب مدنية وجوههم تقدح شرراً. فتح أحدهم باب السيارة وصعد يتفرس في وجوهنا وجهاً وجهاً قبل أن يطلب وثائقنا بصوتٍ غليظٍ يرشح قسوةً، جمّعها الراكب الجالس على مقربة من وقفته. كانت وثيقتي نموذج إجازة شهرية فارغ موقع وعليه شعار الجيش العراقي ممن يسرقه رفاق لنا يخدمون في قلم الوحدات العسكرية، عبّأته مثبتاً تاريخ يعود إلى ثلاثة أيام خلت بعد ما هيات قصة فيما لو سألت، فعلت ذلك لأنني لم أكن أعرف أن غالبية الجنود يعودون من مناطق الشمال بثياب مدنية لضمان سلامتهم من نقاط التفتيش الطائرة التي يقيمها الثوار بين الطرق الرئيسية بصورة مباغته. كنتُ أجلس كمن يسير على الصراط المستقيم، فإذا شكوا بيّ سوف أعتقل فور نزولي من الحافلة دون الحاجة إلى الاستجواب. فقد كنت أرتدي حذاء ثلج من البلاستيك صناعة إيرانية، وأشد بنطالي الجينز العريض بحبلٍ مبروم يُشدُّ به السروال الكردي. وهذا وحده كافٍ لتضييعي. كان يقلب بالأوراق والوثائق وينادي بالاسم الكامل ويتفحص الشخص بعيني صقر ويسلمه وثيقته، توترتُ وهو ينطق باسمي كاملاً متسائلاً عن يكون صاحب الوثيقة، أجبته فخرج صوتي تلقائياً غير مبالي فيما كنت على وشك الانهيار من الداخل

- نعم؟!.

- وين كنت صار لك ثلاثة أيام؟!.

- كنت في "سيد صادق" أدور على أخوي. ما رجع بإجازة من شهرين!.

كانت تلك الجبهة مشتعلة منذ ما يقارب الأسبوع.

- وين وحدتك؟!

- قاطع البصرة!

تفحصني بعمق. تأرجح مصيري معلقاً بما ينطق، أطال التحديق والتفكير لثوانٍ ولا أثقل منها، تيبسَ الدم في عروقي فشعرت بجسدي يجف حتى خفتُ أن أتكسر فيما لو لمسني أحد، كانت أطول وأمرّ وأثقل ثوانٍ مرّت في عمري، وعيناه تنتقلان بحركات سريعة وقلقة، بين ورقة الإجازة ووجهي المتصنع عدم الاكتراث، مدّ يده نحوي بالورقة، كدثُ أطيّر فرحاً والحافلة تحركت وأصبحت على الشارع العام. رفيقي الشاب الجميل بوجهه الأسمر نظر نحوي جانباً بعينيه العسليتين وتبسم نشوةً، ثم ناولني سيجارة "سومر" طويلة، وقَرَّبَ فمه من إذني هامساً:

- بَطْلُ والله بَطْلُ!.. دَخْنُ!.

وأشعلها لي، سحبْتُ نفساً وسرحتُ أهدق في الظلام الذي بدأ يهبط على البيوت ومبتدأ الهضاب والحقول ونحن نغادر كركوك متوجهين نحو بغداد. اتكأْتُ على مسندِ الكرسي ورحتُ في حلم يقظة مستمتعاً بـ "يوسف عمر" يملأ فضاء الحافلة ويجعلني أشم شارع الرشيد وبغداد ووجه الأسمر الحسن الذي كحله الله:

"آه يا أسمر اللون

حياتي الأسمراني

حبيبي وعيونه سود

هم الكحله رباني

داهمني النعاس. فطقت أنود في جلستي متتبعا نثار أضواء
بعيدة تركض في الظلام الذي حلّ إلى أن سقطت في نوم عميق،
عميق لم استيقظ إلا والشاب يهزني من كتفي قائلاً:

- وصلنا!.

باعدتُ أجفاني، فوجدتني وسط ضجيج بغداد، قرب كراج
النهضة والركاب يترجلون من السيارة، كنتُ غير مصدقٍ
وصولي. غادرتُ الكرسي ونزلت إلى الرصيف نشيطاً.

قال رفيقي الأسمر:

- أسمع راح أبول.. ونحتفل في "بار" بسلامة وصولنا!.

فركتُ عينيّ وتابعته وهو يتجه صوب فتحة سياج قديم تسع
جسد إنسان، كدت أصرخ فرط بهجتي ببغداد والزحام ووجوه
الناس ومجرى الحياة الضاجة التي فارقتها ستة أشهر وكأنها
ستة أعوام، كدت أصرخ ورفيقي المجهول يتوارى خلف السياج
القديم. أوقفتُ أول سيارة أجرة وقلت له:

- إلى "حي الصحة" بمدينة الحرية!.

متخيلاً خيبة رفيقي الحالم بشرب كأس السلامة معي. سيأخذ
حلمه المغدور معه إلى الأبد وأنا أسأل عنه عند عودتي بعد أكثر
من سنتين إلى صفوف الثوار، سأواجه بالصمت لكن بعد سبع
سنوات وأنا في منفاهي الدنمركي سيخبرني رفيق كبير السن
عمن كان ذلك الشاب قال؛ اسمه "قيود" من مدينة "القاسم"
الواقعة بمنتصف المسافة بين الديوانية والحلة، ابن "كاظم
الjasم" قيادي شيوعي فلاحى قتله البعثيون تحت التعذيب في

كي يموه على نقاط التفتيش رغم أن لديّ نموذج إجازة شهرية مزور.

ما أن حلّ الظلام حتى انتزعتُ جسدي نزعاً من بين ذراعيّ زوجتي، أبي، وأمي، أتذكر بوضوح، وجه ابني الضاحك الذي لا يفقه شيئاً مما يجري حوله، كان ابن سنتين. انفردتُ بزوجتي قرب الباب وهمستُ لها بالمكان الذي سألجأ إليه فهي صلة الوصل بيني وبين الثوار، انتهزت لحظة خلا فيها الشارع، فقفزت نحو باب السيارة المفتوح ودسست نفسي على المقاعد الخلفية وسط الأولاد. عبرنا كل نقاط التفتيش بيسرٍ. وفي ساحة "عدن" ودعتهم ونزلت. قطعت مسافة الألف متر حتى وصلت الزقاق المؤدي إليهم. قرعت الباب ففتحه "حسين" بنفسه هذه المرة. تعانقنا. وفي المدخل المعتم وقبل دخولنا باحة البيت الواسعة قلت له متوجساً لا سيما بعد تجارب تنقلي بين بيوت الأقارب:

- أكرر أبقى هنا فترة!.

أوقفني ورمقني بعينين غاضبتين وقال:

- ما معنى هذا الكلام.. أسكت.. عيب..!

يبدو أنه كان يتوقع ذلك وتهياً له وهياً عائلته أيضاً، فقادني مباشرة إلى غرفة صغيرة لها باب وسط الدرج المؤدي إلى سطح البيت، فتح الباب فوجدتها مرتبة للسكن. فراش عند الزاوية، طاولة صغيرة جواره عليها مصباح قراءة، أدراج معلقة إلى الجدار فيها كتب. لها نافذتان صغيرتان؛ الأولى تطل على باحة البيت والثانية على السطح الذي يستدير حول سياج خشبي مربع يطل على الباحة أيضاً:

- هذه الغرفة معزولة تحميك من عيون الجيران!.

وسحبني من ذراعي مضيفاً:

- أكيد جوعان!..

ونزلنا إلى باحة البيت

* * *

دخلتُ غرفتي العلية واجمة في عصر خميس. أنزلتُ طفلنا فركض نحوي وعانقني، إذ بدأ يتعرف عليّ زيارةً بعد أخرى. حملته بين ذراعي. قبلته وأقتربتُ من وقفته جوار الباب، كانت شاردة النظرات بطيئة الحركة، وطبعتُ قلةً على شفيتها المتيبستين الميتينتين.

- ثمة شيء ما!.

قلتُ مع نفسي متوجساً، ورحتُ أخمن؛ هل انكشف وضعنا؟! هل هي مراقبة، أم سمعت شيئاً جديداً عني، كأن تكون وحدتي العسكرية أبلغتُ مديرية الأمن في مدينتي، فأصبحتُ هي هدفاً مكشوفاً كونها زوجة جندي هارب، أو شيئاً من هذا القبيل وإلا ما سبب وجومها وخمودها والريب المحتل ملامحها وهي التي كانت غير مبالية، شجاعة، تقتم المواقف والأحداث بجسارٍ. أمسكتها من ذراعها اللينة المستسلمة وأجلستها جوارى على الفراش المكون قرب الجدار، بينما انشغل طفلنا يلعب بأشياء الغرفة. سألتها:

- ماذا بك؟!.

- تأكدت؛ أني حامل!.

جمدتُ منتصباً بنصفي الأعلى. ثمة رعشة ألمت بظهري. اختنقتُ الكلمات في حلقي، وغالبتُ الرعشة التي تحولت إلى عاصفة جعلتني أرتجف لثوانٍ معدودة لاعناً نفسي وشدة شهوتها، فطوال الأشهر السبعة التي أمضيتها في بيت "حسين" كانت تزورني في عطلة نهاية الأسبوع، وما أن تدخل الغرفة حتى نروح في عناق وتقبيل، إلى أن نخوض ببعض، وكنت لا أبه بتحذيراتها وأمارس الحب كاملاً بعنف ولهفة إلى انقطعت عاداتها الشهرية. ظننتُ أن الأمر مجرد تأخير يتعلق بطبيعة تكوينها الجسدي. لكن بدأت تشك في الزيارتين السابقتين. وأخبرتني بقلقها فاقترحت عليها مراجعة طبيبة نسائية، من أقرباء أبيها.

أردفت بعد فاصلة صمت:

- قلت لها بأنك موجود ومختفي وألتقي بك!.

إذن وقعنا في مشكلة عويصة. فليس أمامنا سوى حلين، أما أن نعلن عن وجودي للجميع، فتتكشف كل القصة وتتعرض للاعتقال كونها تخفي زوجاً هارباً من الجبهات، هذا إذا لم وهذه المصيبة لا تقل عن الأولى. تكتشف السلطات نشاطنا السياسي، أو يظهر حملها فيسخط المجتمع عليها كونها زانية وأكملت:

- رفضت تسوي لي إجهاض!.

سألتها:

- ما اقترحت شيء؟!.

- اعتذرت وقالت إنها تفهم وضعي، لكنها لا تعمل عملية إجهاض أبداً، ونصحتني بمحاولة جعل الجنين يسقط بتناول كمية كبيرة من الأسبرين والحركة العنيفة، فعلتُ ذلك بلا فائدة، رجعت إليها وترجيبتها؛ خلصيني من هذي الورطة، فكتبت لي عنوان طبيبة هنا في "بغداد" بساحة النصر تسوي عمليات إجهاض لمسؤولين كبار في الدولة مقابل مبالغ كبيرة.

قلت لها:

- ما عندنا غير هذا الحل؟!.

لزمْتُ صمتاً عاجزاً، أهرُبُ بناظري إلى سماءِ النافذةِ العاليةِ شاعراً بالذنب.

فأنا بلا وثيقة تسمح لي بالخروج إلى الشارع. ولا مال لدي. تفحصتني بعينيها النجلاوين وقالت:

- بعث سلسلة زواجنا الذهب، لكن من يروح ويأي للعيادة!.

قبلت عينيها وجبينها وقلت لها وأنا أمسح شعرها الطويل بأصابعي:

- هذي محلولة "حسين" وزوجته!

في المساء نفسه ذهب "حسين" وحيداً، وحجزَ موعداً مدعياً أنه زوجها.

في الخميس التالي ذهب الثلاثة وتركوني مع ولدي وابنتهم، بقيت أَعْدُ الثواني والدقائق، واجف القلب، يهزني القلق هزاً، والدقائق تمر ثقيلةً مرّةً إلى أن حلَّ الظلام فجعلتُ ألعن نفسي وشهوتي وأردد بصمت:

- سافل، سافل لماذا تستهتر بمصير حبيبتك لماذا؟!.

أردد شتائمي التي صارت بذينة جدا وأدور في أرجاء البيت. أصعد إلى السطح. أنزل. أدخل غرفتي العلية. أخرج. حتى أنني وددت التخلص من القصة كلها، فقد ضقت ذرعاً بوضعي البشري ووجدتني لا أطيق نفسي وابني واختفائي والحياة كلها، تشنج جسدي كمسموم وولدي الصغير بين ذراعي يبتسم ويلف ذراعاً حول رقبتني وفي الأخرى يضرب بكفه الصغير صدري ويميل برقبته محدقاً في عيني مردداً:

- بابا، بابا!.

كنتُ مع الطفلين في الغرفة العلية عندما سمعتُ بابَ البيت يُفتح، سارعت إلى نزول السلالم ثلاثاً.. ثلاثاً. ومن منتصف السلم رأيتهم يظهران من إطار المدخل إلى باحة البيت. كانت قسماتها شديدة الشحوب تتلوى ألماً. تستند إلى ذراعي "حسين" وزوجته. أنزلتُ الطفلين وحملتُها على كتفي إلى غرفة الضيوف. وضعتها على فراشٍ وغطيتها. كانت لا تستطيع الكلام، وتحاول كتم صراخ الألم بأطباق فمها بشدة مما يجعل قسماتها تحتقن وتزرق، قضينا ليلةً في الجحيم، ظلتُ تنزف حتى الفجر، أحطنا بها نحن الثلاثة بوجوهٍ شاحبةٍ لا نعرف ماذا تفعل، نضع قطع قماش مبللة على جبهتها الملهبة، ونستعجل النهار علّنا نجد حلاً. وما أن نزل الضوء في باحة البيت وتعالى ضجيج المارة خلف النافذة حتى قالت بعناء:

- رجعوني إلى أهلي!.

أوصلها "حسين" إلى محطة الحافلات، أركبها سيارة أجرة

إلى الديوانية وعاد منهكاً، شاحب القسمات أطال النظر في وجهي قبل أن يقول:

- مجنون أنت.. وصلت حافة الموت!..

بقينا قلقين ولما انقطعت أخبارها قرابة ثلاثة أسابيع، سافر إلى الديوانية فعلاقته كانت طيبة بأهلها وعاد في اليوم التالي. صعد إلى غرفتي مبتهجاً، ليخبرني بأنها بخير، فالطبيبة قريبتنا أدخلتها المستشفى فوراً وأجرت لها عملية تنظيف الرحم، ولم يعلم أحد في الأمر سواها.

ضحك مضيفاً:

- القضية تعدت هذه المرة.. أحبس شهوتك.. أنت في وضع، مثل اللي يمشي على الصراط المستقيم. أقل زلة تضيع ونضيع!..

كان يأتي من العمل عصراً. يلقي تحية عابرة ويأمرهم بأعداد الغداء، ليستدير يساراً نحو السلم. أسمع وقع خطواته تطأ درجاته، يفتح الباب بوجه باسم ويجلس إلى جانبي منتظرين قدوم صينية الطعام التي تحملها "ربيعة" أخته الصغيرة. كان بيته من أكثر الأمكنة التي أخفتني متعة، كان وجوده جوارى كل يوم يمنحني عزماء، وقوة وأنا في حصارٍ شديدٍ، قاحل، إذ أن الصلات تقطعت مع الثوار، فبتُّ شبه ضائع، لا غرض لوجودي سوى التواري ومحولة تفادي إلقاء القبض عليّ، قلت له:

- بعد ما أطيق الاختفاء، أحس تحولت جرد مذعور في حفرة

-!

- راح انفجر!..

تملى وجهي طويلاً بعينيهِ الواسعتين الجاحظتين الجميلتين اللتين لهما القدرة على القول حتى صارتا وسيلته في التعامل يستخدمها مثل لسان، فيستطيع أن يفهم المقابل بأنه يدرك كل شيء دون حاجةٍ إلى الكلام، ثم قال:

- اسمع، تحتاج تطلع حتى تشوف البشر وتشم الهواء!.

بعد أيام، دبرت "ناهده" دفترَ خدمة عسكرية لطالبٍ مؤجل عن السوق سرقتُهُ صديقتها من أخيها، أخرجته من حقيبتها الجلدية مبتهجةً. وأتم حسين البهجة حينما قال:

- سأرتبه لك!.

سأكتشف قدرته المذهلة على التزوير ودقة شغله. بقيتُ أتابع بعينيَّ المذهولتين انهماكه، وهو ينزع صورة ذاك الشاب، ليضع صورتني بأصابع مرهفة، تتحرك ببطءٍ وصبرٍ، مجرباً أشكالَ الدوائر المطابقة لختم التجنيد العراقي الدائري وقتها، راقبته بدهشة وهو يعمل بدأب لأكثر من أربع ساعات، الأحبار، الدوائر، يحك أطراف الأشياء إلى أن عثر على دائرة بحجم دائرة الختم بالضبط وكان غلاف مسحوق تجميل ممن يضعنه النساء كأساس، عندها انفرجتُ قسماته التي كانت جديةً متجهمةً وقتَ انهماكه بالعمل. رفعَ رأسه ورمقني بعينين في طرفيهما بسمه ولفظ كلماته ببطءٍ يريح القلب والأعصاب:

- غدا أنشوف فلم يوسف شاهين "حدوته مصرية" بسيما بابل!.

بفضله استنشقتُ هواءَ الشارع ووجوه الناس في غروب ذلك اليوم الجميل، غير وجلٍ من اعتراض نقطة تفتيش، فالدفتري في جيبِي أتلسمه وأنظر بين الفينة والفينة إلى وجهه المتماسك وكأنه

لا يرافق هارباً من الجبهات فحسب بل متسرباً من بين ثوار يرفعون السلاح بوجه سلطة زمن حربها. كان يسير غير آبه ببشاعة مصيرنا لو وقعنا بأيديهم:

- كم أعاننتني شجاعته في سيرة حياتي؟!.

في عتمة صالة سينما "بابل" احتسنا البيرة سراً واستمتعنا بـ "شاهين" وهو يحاور ذاته في الطفولة والشباب والنضج.

لم نترك مكاناً لم نزره، جزراً سياحية شمال بغداد وسط دجلة، بارات، أمكنة، معارض رسم، أشياء مبهرة رغم الحرب المشتعلة على الجبهات، لم أجد كل ذلك حينما عدت بعد الاحتلال 2003 لا سينما، لا أمكنة سياحية، لا بهجة.

منحتني أنامله الدقيقة وهي تضبط دفتر الخدمة الذي أبرزته لعشرات نقاط التفتيش الطيارة التي دقت بالدفتري دون أن تشك به. منحتني أصابعه الكريمة الهواء ووجوه البشر وعبق الأمكنة وسيل جريان الحياة مما جعلني أترن قليلاً، لكن في الوقت نفسه شعرت أن الناس تعيش حياتها، ومشغولة بيومها، وبعيدة تماماً عن التفكير بنا سواء كنا نقاتل كجنود في جبهات الحرب أو نقاتل كثوار في أماكن نائية بشعاب جبال وعرة، أو نخفي في الجحور كما هو حالي. لم أفصح له عن هذه المشاعر والأفكار التي أربكتني تماماً ضاغطة على معنى وجودي وسبب وضعي البشري كمخفف، ذلك جعلني أتمنى أن نجد صله ما، كي أعود لأضيق بين جبال وقرى وثوار يجوبون الأمكنة حالمين ويائسين في الوقت نفسه.. ذاك أكثر جدوى وأخف على أحبتي النائيين بوجودي الفادح وسطهم.

كان أي تأخير يربكنا، ونبقى أنا وزوجته وأخواته وأخوه

نحملق في وجوه بعضٍ كلما تأخر عن موعد عودته اليومي من عمله حيث تمسي الدقائق رصاصاً، والساعة سنةً، هذا ما حصل في ليلة من ليالي الربيع، إذ جاوزت الساعة منتصف الليل ولم يظهر. لم ننم ليلتها. ولا أدري إلى أي مكان أنتقل، فوقتها لم أضع مكاناً احتياطاً بعد. وقبيل أذان الفجر سمعتُ صريرَ الباب وهو يفتح، فأطلت من أعلى السلم فرأيتَه يدخل الباحة ويؤشر بيديه قائلاً:

- ثم.. غدا أحكي لك!.

هممتُ بدخول غرفتي. قُبيل عبور العتبة العالية رأيتُ زوجته تهرع نحوه ملهوفة وتعانقه بينما أذان الفجر انتشر في سكون السحر، أويت إلى فراشي متشوقاً لمعرفة قصة تأخره، مقدراً أنها مغامرة من مغامراته مع النساء التي يحكي لي طرفاً منها بين الحين والحين رغم شدة كتمانها.

ما أن هبط جوارِي على فراشي المبسوط لصق الجدار حتى حاصرته بأسئلتِي عن المكان الذي كان فيه ليل البارحة، فرمقني بنظرة من تحت دون أن يرفع رأسه مغالباً ابتسامة تكاد تنطلق لتتحول إلى ضحكة عريضة. قلت له بلغتي الداعرة المعروفة:

- ها كَحَبْتُ؟!.

انفجر ضاحكاً فعرفت أنني أصبت الهدف:

- أحكِ لي!.

قلتها بلهجة أمره وسكتُ متلهفاً لسماع قصة غزوته الليلة الماضية. كان يعمل في مدينة "الثورة" المكتظة. وحكى لي طرفاً من يومه وعلاقاته بأولاد المحلة والنساء، فهو كائن

اجتماعي يكسر الحاجز حتى مع سائق تكسي يركب معه أول مرة إذ يتحدث معه وكأنه نشأ معه منذ الطفولة، والخصلة هذه وجدتھا لم تزل فيه عند عودتي بعد فراقٍ انقلب فيه العراق رأساً على عقب.

راح يرفع رأسه بين دقيقة وأخرى، فيواجه عيني المنتظرين المتشوقتين للأسرار إلى أن تتحنح وبدأ القول وفي صوته رجفة خجل:

- أخبرتك عن المرأة الجميلة اللي تلاحقني كل يوم وأنا بالشغل، أشوفها من كابينة الحفارة مختبئة وره الباب ولابسة ملابس مثيرة ومكشوفة.

يطلق حسرة عميقة حارة ويكمل:

- عليها جسم يخبل مرصوص رص ومصبوب صب، قالب من الجمال والإثارة، باستراحة الغداء وما أن أنزل من الكابينة حتى تطلع من البيت وتقرب مني وتبدي تحكي وتحكي وتفتح العبادة عن لحم محمّص بالشمس ومدهون بزيت الزيتون وتطلب مني مساعدتها في شأن ما، ويوم بعد آخر بدأت تشكو من حياتها ووحدتها بالليالي، فزوجها نائب ضابط بالجبهة يزورها سبعة أيام بالشهر، ولمن تشتعل المعارك يطول شهرين لو ثلاثة، ويوميا الظهر تجيب صينية بها أنواع وأشكال.

لم يصف شكلها، لكن أعرف ذوقه، فرحتُ أتخيل شكلها، سخونة جسدها المتضور بنيران الشهوة، وحدها على فراشها البارد، تخيلتها تنتفض مثل سمكة أخرجت من الماء، تنتفض متقلبةً، مسهدةً، حالمةً به، عارياً معها في السرير، فصاحبي به فتنة ووسامة وفحولة طافحة تثير شهوة النساء، كل النساء

صغيرة وكبيرة، جميلة أو قبيحة، قصيرة أو طويلة، متزوجة أو مراهقة، فكيف بها وهي امرأة مهجورة، زوجها أخذته الحرب، فقيرة، تستأجر نزلاً مشتركاً مع أخرى مهجورة أيضاً، فزوجها هو الآخر عسكري مطوّع يخدم في الجبهة. قلتُ له:

- أعرف هذي القصة!.

أخبرني سابقاً بأنه شديد الحذر في مكان عمله، فقد أشاد علاقات مع شباب المحلة المصطفين وقتها مع اليسار العراقي. أردفتُ:

- ماذا استجد؟!.

صمت لثوانٍ وقال:

- اقترحت عليّ المبيت عندها!.

- وافقت!.

- طبعاً وافقت، لا تضحك، إني مجنون بالنساء. وداعتك زهدت بكل شيء بكل شيء ما عداهنّ، وما تدري كم تعذبت ودخلت بصراع ويه نفسي إلى أن قررت أغامر.

كنت أستمع محدقاً في عينيه مباشرة وجبهته بدأت تنضح قليلاً إذ كان يتحاشى سرد مثل هذه التفاصيل ولا يميل إليها بالعكس مني تماماً. وكان يصمت بين جملة وأخرى وكأنه يزن الكلام ويمحصه قبل القول:

- أسمع بالأخير نهرتني نفسي؛ حرام عليك، الله ما يقبل تترك امرأة تشتهيك وتريدك وتظل تتعذب الليل كله بفراشها البارد!.

اختنقت بضحكتي. وهو يوجه لومه لي، ويعزو سبب إقدامه

على مغامرته إليّ، متجاهلاً عن عمد كونه خبير غرف التصوير والمباهج الجسدية التي أدمنها، أضاف

- تتذكر مرة سمعتني كلام زوربا اليوناني وكنت تكرره كلما التقينا حتى حفظته كون الله يمسخ كل الذنوب إلا ذنب ترك أرملة أو امرأة وحيدة في فراشها لليلة. وأتذكر أول مرة سمعتني بها لما كنا نتمشى ونشرب عرق سادة برمضان بذاك الشارع العريض بالديوانية.

انفجرتُ بضحكةٍ عاصفةٍ، وهو يردد:

- أسكت أنت السبب. أسكت لا تضحك داعر، لا تضحك، عملتُ بنصيحتك فوقعت ليل البارحة وچا رحت بيه!.

طابت لي القصة وتشوقتُ لمعرفة تفاصيلها، لكن صاحبي ضنينٌ. كلامه ذهبٌ يبخل به. قلت له:

- بلا مقدمات أش صار البارحة وأحنه هنا بالبيت متنا من الخوف عليك وما نمناه للصبح!.

طلبت منه العودة عند حلول الظلام، وقالت سأترك باب البيت مردوداً ما عليك سوى دفعه والدخول، فأنا رتبْتُ كل شيء. وهذا ما فعلهُ. عاد مع حلول الليل وتوغله متسللاً في العتمة الدسمة فمصاييح الشارع شاحبة خرساء لا تضيء إلا ما حولها إلى مساحات قليلة، تَلَفَّتْ منتشياً يميناً وشمالاً قبل أن يدفع الباب ويدخل. كانت الساعة الحادية عشرة، وكان قد قضى الوقت بين انتهاء عمله والموعد في حانة "سرجون" على أبي نؤاس نادماً أصدقاء من بقايا اليسار الناجي، وأقبل نحوها مخدراً بأحلام الثورة والسكر التي تتجلى في مثل هذه السهرات وتلك الظروف، كان في ذروة من مشاعر الثورة على العالم والقيم،

غير أبه بشيء، وجدها خلف الباب مزوقة ترتدي ثوب نوم أحمر يكشف عن كنوزها المدفونة. سحبته من يديه.

كنتُ أتخيلك، خجولاً، مقداماً، أسلمتَ قيادك لها، هي النمرة العراقية المتشبهة المغلوبة على أمرها بعد أن سلبت منها الحرب زوجها ولا تعرف في أية لحظة تسمع بمقتله، كنت أتخيل المشهد فأنت شحيح، باب البيت تخيلته خشبياً، بدون مدخل، يفضي إلى باحة صغيرة، تخيلت غرفة إلى اليمين تسكن فيها زوجة النائب ضابط المسكين التي تشتتنيك وإلى اليسار غرفة جارتها المستأجرة. تخيلت المكان وترتيبه بينما كنت تقص عليّ باختصار وبقليل من الجمل، شكل الباحة مصابيحها النارية، أرضية الباحة الترابية. فرأيتك وسط امرأتين فازتا بك لليلة تحمق راغباً بهنّ. كنت أذهب بالمشهد من ضيق وكثافة كلماتك إلى وساعة مخيلتي الداعرة قلت:

- گالت صاحبتی الی رتبت الموعد:

(طگ "یعنی ضاجع بالشعبية العراقية" هذي بالأول حتى تسكت. واللیل كله إنه אני ویاك یحبیب).

والجارة تخيلتها أقل جمالاً وجرأة من صاحبتك بدأت تتلوى وتتغنج موشكة البلوغ قبل الوطء. كنت في غمرة الوهج والاكتشاف ذاك، صحيح أن لدي الكثير من التجارب مع بنات وعاهرات لكنني لم أمرّ بتجربة تقاسمي من قبل اثنتان، وبينما كنت سارحاً متخيلاً المباهج التي تنتظرك في الدقائق التالية ضجّ الباب الخارجي بقرع مجنون جعل ذات الرداء الأحمر تنتفض والأخرى تهرب إلى غرفتها. ولما لم يكف القرع، نهضت لتفتح الباب. لم تتحرك من الغرفة أمرتك بذلك. فبقيت جامدا تخيلتُ

جمودك كجمود ليالينا في المعتقل، كدت تصير حجراً، لكنك
توجست من اللحظة القادمة وصوت صفعات مصحوبة بأصوات
رجال يشتمون مرددين بقهر:

- ليش كعبة؟! أش بيه زوجج؟! شاب جميل وقوي يحبج..
ليش .. ليش؟ بس.. نسوان.. كحاب ما تتأمنن!.

نهضت، ولبست حذاءك، قطعت المسافة حتى بلغت عتبة باب
الغرفة. كنت مذهولاً لم تدرك للوهلة الأولى ما يجري. وما أن
اجتزت إطار الباب المفتوح حتى أخرستك المفاجأة فجميع
الوجوه المحتشدة في باحة البيت تعرفها ولديك علاقة بها. ركلها
أحدهم في بطنها ركلة فسقطت على بلاط الباحة معلقة آهة ألم
حاولت كتمها بينما الراكل يقول بصوتٍ حرص أن لا يكون
مسموعاً من الجيران:

- حسابك بعدين!.

أحاطوا بك وسحبوك من يديك خارج البيت. كانوا أصدقاء
زوجها الغائب، استسلمت إلى مصيرك وقلت مع نفسك:

- أستأهل؛ كل ما يفعلونه بي!.

كنت تسيرُ وسطهم صامتاً، منتظراً فماذا تقول؟! ماذا؟!.

وسط ساحة كرة قدم متربة مظلمة أوقفوك وطلبوا من أحدهم
كان طويل القامة ضخم الجثة الإمساك بيدك بينما ابتعد الباقيون
مسافة وسمعتهم يتحاورون بصخب وبعد أكثر من نصف ساعة
اقتربوا وقال لك أحدهم:

- أحنه مراقبين الوضع منذ شهرين، ونعرف الذنب ذنبها!،
راح نوصلك لأن عرفناك ولد زين بس المنطقة بعد ما تقبلك.

تبرع واحدٌ منهم لتوصيلك بسيارته، لكنك رفضت خوفاً، ولم تصدق أنهم أطلقوا سراحك إلا بعد ركوب سيارة الأجرة. أمسك أحدهم مقبض بابها وقبل أن يطبقها انحنى نحوك قائلاً:
- ما أدوسُ شارعنا مرةً أخرى!.

لم يمضِ سوى أيام معدودة على حادث تأخره حتى دعوه لخدمة الاحتياط، فتعقد الأمر برمته. الأشهر الثلاثة الأولى قضاهما في معسكر الرشيد في بغداد، أي كان يعود مساءً متسللاً من سياج المعسكر، لكنه هرب ما أن نُقِلَ إلى جبهة الحرب المشتعلة، فمكثنا في البيت لا نكاد نخرج وليس لدينا أي بارقة أو هدف، ومما زاد من تعقيد الوضع هو فقدانه لعمله إذ كان معيل العائلة الوحيد، أما راتب زوجته التي تعمل عاملة في معمل خياطة حكومي، فقد كان متواضعاً بالكاد يكفي لتسديد الإيجار ومصاريفها الشخصية كما أسر لي. توترت العلاقات في البيت، خصام متكرر مع الزوجة، عوز، ضغط مصاريف أخوته الطالبة؛ تكاليف الملابس والدراسة، و.. و، أمسى متوتر الأعصاب، سريع الإثارة في كل حوار يثار مع زوجته، بينما يكون مسترخياً عندما يحلُ في غرفتي العلية واجداً بقربي فسحة راحته الوحيدة التي يتحرر فيها من ضغط العائلة النفسي. عند ذاك بدأت أفكر بتغيير مكاني لكن إلى أين؟! والبيوت الممكنة في مدينتي استنفدت ولا مجال أبداً للعودة إليها، أخبرت "ناهده" في آخر زيارة لها بعد أن عقلتُ أشواقِي وشدة شهوتي وأصبحت شديد الحذر كي لا تتكرر ورطة حملها.

ما جعلني أقرر تغيير مكاني ومغادرة حبيبي "حسين" مهما كان الثمن هو مساء خميس من أخماس تلك الأيام العصيبة. ففي ذلك الخميس بقينا وحدنا في البيت إذ خرج الجميع زوجتي

وزوجته وأخوته في نزهة تسوق في سوق الكاظمية تاركين ابني وابنته معنا، وبينما كنا نلاعبهم في ساحة البيت، سمعنا ضجةً وصخباً وسحب أقسام بنادق وصياح أصوات رجالية غليظة، فجمدنا كصخرتين للحظات قبل أن نسارع إلى شباك الغرفة القريبة المظلمة المطل على الزقاق، ومن حافة الستارة رأينا مشهداً مرعباً. عشرات المسلحين شاهرين بنادقهم، بعضهم يلتصق بجدار البيت المقابل، وبعضهم يتكأ على شباك غرفتنا، وأربعة منهم يهوون بعنف على باب البيت الخشبي المقابل بأعقاب بنادقهم، بينما طُوقَ الشارع بسيارات مدنية وعسكرية تسقط أضواءها القوية كاشفة امتداد الشارع العرضي والزقاق المقابل المنتهي بسكة القطار الصاعد نحو الموصل. أخذنا نرتعد هلعاً. أصابنا الشلل فجمدنا نحقق بعيون بعضٍ دون حراك، فمن المستحيل الهرب عبر سطوح الجيران الملاصقة، وترك طفلينا وحدهم في البيت، بقينا هكذا نبرك في وسط الذهول والشلل نعمن في الحملقة المستجدة في عيون بعضٍ إلى أن سمعنا طلقة مفردة تبعها سيل متقطع من الرمي، فهرعنا إلى تجويفٍ داخل الغرفة، تحت سلم السطح أعده حسين كمخبأ في حالة الطوارئ مسدلاً فتحته الناصية بستارة قماش ثم خزانة ملابس. أزحنا الخزانة وقرصنا في عتمة التجويف فتعالت دقات قلوبنا المجنونين، وضجيج الرصاص ووقع أحذية العسكر الثقيلة صار أقوى، وبينما كنا نحاول إعادة الخزانة كي تغطي مساحة التجويف المخلص دلف طفلانا صارخين بفرح:

- تيبيبيببي!

التبست مشاعرنا، فاختلط الرعب بفرح طفلينا اللاهيين معنا. هزّ ذراعه ساخراً من المخبأ الذي كان يظن به النجاة في ساعة

كهذه، سحبنا طفلينا إلى صدرينا داخل التجويف لكنهما لم يكفا
عن الصخب والصياح والضحك، مما جعلنا نستسلم للحياة في
لحظة جنونها لطفلينا ونظهر من خلف الخزانة، واثقين من قرب
ختام القصة كلها وغير أبهين بالمصير، وبغته سكن كل شيء،
فخالسنا النظر من النافذة وجدنا الشارع خاوياً. والهدوء يعم كل
شيء، وكأن شيئاً لم يكن، في اليوم التالي عرفنا أننا لم نكن
المقصودين بل المقصود كان هارباً من الجبهات في بيتٍ مقابل.
قررت الانتقال إلى مكانٍ آخر، مهما يكن الثمن.

فجر اليوم التالي حزمت حقيبتى الصغيرة.

خرجت من غرفتي إلى الفسحة الصغيرة الفاصلة بين استدارة
الدرج المؤدي إلى السطح. وجدته واقفاً على آخر درجة في
السلم يحملق بذهول. علقت حقيبتى على كتفي. هبطت السلالم.
صرتُ إلى جواره في الباحة. أمسكني من كتفي وسألني:
- لكن إلى أين؟!

- وجدتُ مكاناً آخر!.

ازدادتُ شدة قبضته على كتفي. أحسسته يتشبث بيّ غير قادرٍ
على مواصلة الكلام فهو يعرف بأن قراري لا رجعة فيه
والوضع لم يعد يحتمل المزيد. لم يحلّ قبضته وكأن روحه
تركزت في أصابعه المتوسلة. قال بصوت خافت متكسّر:

- دير بالك على نفسك!.

دمعتُ عيناه. وخنقته العبرة وهو يردف بصوتٍ تحشرج:

- لا تقطع أخبارك!

خلف الباب الخارجي الخشبي العريض شدني إلى صدره
شداً. نشجنا بصمتٍ في عمق فجر ذلك اليوم وزقزقة عصافير
تتزاخم على شجرة سدر قريبة. فللتُ بعناء ذراعيه وعبرت
العتبة قاصداً بيت أختي الكبيرة الساكنة في مدينة الدكتاتور
"تكريت".

من مخبأي تتبعْتُ أخباره. زوّر وثائق وبقي يتحرك ويعمل
في بغداد إلى أن ألقى القبض عليه، فأودع في سجن وحدته
العسكرية أشهراً عدة ليطلق سراحه في عفو عام.

لم أره بعد ذلك إلا مرةً واحدةً، حينما رَتَبْتُ زوجتي أمر
التحاقنا بالثوار، فقضينا ليلة "بغداد" الأخيرة في بيته مع الرفيق
المكلف بإيصالنا، ومع خيوط الفجر الأولى قللنا أذرعنا بعد
عناقٍ طويل لأفارقة قرابة عشرين عاماً.

* * *

كنتُ أجلس وحيداً على المقعدِ الأمامي جوار السائق، غير آبهٍ
بالحوار المشتعل بين الركاب الثلاثة في الحوض الخلفي حول
الوضع المضطرب، أتأمل الأفق الساطع وغابات النخيل
السابحة بالذهب المنسكب من السماء رائياً قسماته يافعةً تحنو
على صمتي وانتظاري، صاداً كل محاولاتهم لإشراكي بالحوار
بهزة رأسٍ وتمتمة دون أن أفتح فمي مع بسمة تطفو في عيني،
مكتفياً بالتطلع في قسماتهم الخشنة الملوحة بشمس الجنوب،
والمتعبة كأنها جذوع نخيلٍ مقطوعة وأنفاسهم المتقطعة وهم
يحاولون فهم الفوضى التي قامت مع الاحتلال مبددين فرحاً
بالخلاص من كابوس الدكتاتور وزمرته لكنهم متوجسون من
غياب النظام وبوادر ظهور الميليشيات المسلحة وعمليات

التفجير التي نشطت للتو في الأماكن العامة والجوامع والحسينيات والأسواق، في إرهاب أول للصراع الطائفي والقتل على الهوية الذي سيستفحل في الأشهر القادمة، كنت أستمع صابراً ومستقبل العراق يتأرجح في الحوار بين من يقول بأنه سيكون زاهراً وجنة مستشهداً باليابان وألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية وكيف تطورتا بعد الاحتلال الأمريكي، وآخر يراه مجهولاً وثالث يصفه بالجحيم القادم، لم أشأ الإفصاح عن وجهة نظري المخيبة لهم وأنا عابر أجيء شهراً أو عدة أشهر وأعود إلى مستقري الأمن في الدنمرك، لم أشأ فأمریکا طوال تاريخها لم تبني بلداً لا سيما متخلفاً، هذا ما فعلته في أمريكا اللاتينية وهي تحارب المد الماركسي اليساري في ستينيات القرن العشرين، فقد ساندت حكامها الطغاة ثم أقامت ديمقراطيات كرسست سلطة الأغنياء وعممت الفقر والجوع، أما اليابان وألمانيا فشعباهما كانا أصلاً جاهزين للتطور ثقافةً وبنيةً، عدا ذلك كنت تعباً من موضوع السياسة التي قضيتُ جلَّ عمري في العمل فيها فشبعْتُ عذاباً وألقتني غريباً في بلدٍ باردٍ بعيدٍ قبلني رحمةً ليس إلا. أستمع إلى الحوار الذي لم يبرد طوال أكثر من ساعتين هي المسافة بين الديوانية وبغداد لا همَّ عندي سوى العثور على "حسين" فقد تركته في لجة العراق وحروبه وحصاره حتى الاحتلال وفشلت كل محاولاتني في إعادة الصلة به. وكدت أنجح مرة واحدة.. كان ذلك في عام 2001 حينما نزلت إلى الشام لمواساة أختي الصغيرة التي دُهِسَ ابنها الأصغر وعمره خمس سنوات فمات أمام ناظريها في الشارع بدمشق.

أخبرني "أبو حالب" حالما رأيته أدخل مقهى "الروضة" بدمشق بأن شخصاً سأل عني وحينما وصفه بدقته المعهودة

أرفقها باسمه كدت أجن، ورجوته كي يجد مكانه. في اليوم التالي أخبرني بأن أخباره انقطعت فجأة قبل أسبوع فقد خرج من البيت الذي كان يسكنه في محلة "ركن الدين" ولم يعد، وبعد شهر أخبرني همساً بأن المخابرات السورية ألقت القبض عليه بتهمة تهريب الآثار من العراق لبيعها هنا في الشام. فقلت مع نفسي:

- مستحيل!.

فهو لدي في مقام القديس برغم نزواته الصغيرة المتعلقة بالنساء، لم أعلق بشيء وتشاغلت عن عيني "أبو حالب" المحملقتين في وجهي بالنظر إلى رواد المقهى وشمس الظهيرة الساطعة في فسحتها الداخلية المكشوفة.

- اليوم سأستبين الأمر حال اللقاء به!.

قلت مع نفسي ذلك وأبنية مدخل بغداد بانّت في الأفق صغيرة بحجم حبوب الحنطة. الجدل تشعبَ شاملاً أصغر الأشياء، من تفاصيل متاعب العيش اليومي إلى تدخل الدول الأخرى بشأن العراق، بينما كنتُ محتدماً بعالمي السري الحميم، غير مصدقٍ بأنّي سوف ألمسه، أرى عينيّه، بسمته تقاسيمه الجميلة، وأضمه إلى صدري، ونذهب نتسكع دون هدف في الأمكنة التي كنا نتنزه فيها قبل أكثر من عشرين عاماً.

مضى على الاحتلال أكثر من سبعة أشهر، لم أجده في بيتهم القديم، أخبرني الجيران ومن سكن محلهم بأنهم انتقلوا قبل عدة أشهر، بقيت في الغروب الفضّي الشاحب واقفاً حائراً أكثر من ربع ساعة إلى أن تذكرت بأن أخته الأصغر منه تزوجت جارتها الساكن في البيت المقابل. هرعْتُ نحو الباب. قرعته. لم تكن في

البيت. لكن شاب في الخامسة عشرة قال إنه ابنها، تطوع كي يدلني على بيت خاله. استأجرنا سيارة صغيرة بينما المساء بدأ بالهبوط فأعتمدت الطرقات وبدأت تخلو من المارة والمركبات. اكتمل هبوط المساء وعلى ضوء مصابيح المركبات لاحظت انتشاراً كثيفاً لمسلحي المليشيات المختلفة في الشوارع الحساسة وسط بغداد حيث يسكن صديقي، واجهنا عناءً ومشقةً شديديتين في نقاط التفتيش المتقاربة إذ كانت تدقق في كل شيء. أفلحنا أخيراً والليل ادلهم في الوصول إلى شقتهم المطلة على دجلة. وقفتُ جانباً جوار السياج بينما قرع الصبي الباب الحديدي. كان التيار الكهربائي مقطوعاً والعنمة ماحقة. قفز قلبي طرباً حينما سمعتُ صوته الصادح في أرجاء صمتي طوال تلك السنين يسأل:

- منو؟!.

- أني خالو.

فتح الباب، لم يرني للوهلة الأولى، اقتربتُ منه هاتفاً باسمه، التفتَ مذهولاً، سمعت أنفاسه تتعالى في الصمت والظلام قبل أن يصرخ صراخاً مجنوناً مردهداً اسمي ويقفز نحوي مفتوح الذراعين ليسكن إلى صدري ضاماً رأسه تحت أبطي وكأنه يستغيث، صرخنا وتعانقنا، شددنا جسدنا شداً وكأننا نبغي الاندماج في كتلة واحدة، تلمسنا الأنف والفم، العيون الرموش، الجبهة والذقن، الشعر وكتلة الرأس بأصابعنا، ثم سحبني نحو مدخل البيت وحديقته الصغيرة.

على ضوء الشموع التفتُ حولنا العائلة، ابنته الكبيرة "فيروز" التي صرخت بنا هي وابني "كفاح"

وجهي بعض غير مصدقين نجاتنا من لجة العراق، قضينا ذاك النهار ندور كما كنا نفعل قبل عشرين عاما على الأرصفة من ساحة الجندي المجهول القديم حتى أزقة باب الشيخ، نعبُ العطر القديم المستيقظ في روحنا من رسم الشوارع القديمة، متجاهلين أكوام النفايات والبنائيات المحروقة والجدران المثقبة بالقذائف وأثار الرصاص. كان قليل الكلام، يوجز.. ويوجز. فأستحثه، حدثني عن السجون التي حلَّ ضيفاً فيها، عن الحصار والجوع، قال:

- مرّ بك يوم ترجع للبيت فارغ اليدين وزوجتك وأطفالك ينتظرون منك الخبز حتى ما يموتون جوع؟!.

برغم عنف التجربة التي خضتها لم يمر بي يوم كهذا أبداً، صحيح أنني جعتُ ونمتُ على التراب أنا وزوجتي وواجهت الموت عن قرب لكن لم أجدني محاصراً بعيون حبيبة جائعة تنتظر مني خبزاً!.

-!

أفحمني السؤال فلزمت الصمت منتظراً البقية.

- فعلت المستحيل، سويت أشياء من الصعب البوح بها حتى أجيّب الخبز والمصروف، ونجحت.. فكل أخواتي وأخواني كملوا تعليمهم وأبنائي راح يكملون لكنني تعبان يا صديقي تعبان!.

سألته:

- شنو الأشياء اللي ما تقدر تتطق بها؟!.

فهم مغزى سؤالي:

- لا.. لا.. لا تظن بي سوء، فأنت خير من يعرفني.. لو فعلت
لاحتقرت نفسي، وما قدرت أعيش لكن كل ما فعلته وقت
الحصار هو تهريب لوحات لرسامين عراقيين جياع من
أصدقائي لبيعها في سوريا والأردن، لكن قبضوا عليّ بدمشق
وشفت نجوم الظهر، نفس حزب البعث اللي هنا، نفس التعذيب
اللي ذقناه هنا سوه.

أختصر لي كلامه الواضح الكثير من الأسئلة التي شغلتنني
منذ دمشق وخبر اعتقاله.

علّقت ضاحكاً:

- لم يبق سجنًا يعتب عليك!.

تبسم لدعابتي رابتاً على ظهري بباطن كفه الصغيرة، ثم
سحبني لنواصل السير، مررنا على الأمكنة القديمة الواحد تلو
الآخر وكان أقربها حديقة بار الفندق الذي خطفونا من ممره في
السادس من حزيران 1980، أعدنا رسم تفاصيل مشهد خطفنا
على الأرض بالضبط. جينا أزقة "البتاوين" وبيوتها الخربة،
المتهاوية، بعضها كان مهجوراً والآخر يسكنه أغراب، نساء
مشبهات، عصابات تهريب وسرقة، دعارة، عرب من السودان
ومصر يمتهنون كل شيء وسط نفايات متراكمة تزكم الأنوف
بروائحها العفنة، صعدنا نحو شارع أبو نؤاس، ومن تحت جسر
الجمهورية دخلنا شارع الرشيد الذي شاخ وأقفلت محلاته، وعاد
فارغاً تتكدس على أرصفته القمامة والأوساخ. رأينا جثثاً لم تزل
تنزف وسط صراخ رجال بأرديتهم الرثة ولحاهم الكثة ووجوه
قدّتها الشمس فجعلتها كالصخر الأسمر، لم يدعني أقف، سحبني

إلى فرع يؤدي إلى شارع الجمهورية، وعند مدخل زقاق جانبي سقط رجلان برصاص كثيف جعلنا نرتمي أرضاً فرأينا القتلة المسلحين يولون الأدبار بخطى وثقة، رحّت أرتجف من مشاهد القتل بدم بارد، أنهم يقتلون ويخطون بهدوء وثقة وكأنهم يكملون نزهتهم، صرت شديد الوجل أتصور أن أحدهم سيوجه نحوي فوهة بندقيته ويردني، تضطرب خطواتي بينما كان متماسكاً وكأن الأمر لا يعنيه، خاطبني قائلاً:

- لا تخف لكل قتيل سبب، تعودنا على هذا المنظر اليومي!.

- ما فهمت!.

- يعني؛ لو ثار، لو انتقام، لو خلاف على سرقات، للقتل ذريعة، ومثل ما تشوف الدولة غائبة!.

تسكعنا دون هدف وجعلنا ندور في الأزقة الضيقة لأحياء بغداد القديمة ما بين شارع الجمهورية والرشيد.

قلت له:

- أريد أزور كل الأمكنة المقدسة!.

رمقني بسخرية. أصريت، فزرنا ضريح "عبد القادر الكيلاني" في شارع الكفاح، وقبر "الحنبلي" في جامع صغير بزقاق من أزقة الحيدرخانه القريبة من ساحة الميدان، وقبر "الحلاج"، و "زبيدة" زوجة هارون الرشيد، ووكيل من وكلاء المهدي المنتظر الأربعة في مقامٍ شيد من جديد في شارع النهر، ظللنا سقف سوق السراي وأسكرتنا رائحة الكتب التي لم يزل باعنها يفتحون أبوابهم برغم ما يحيط بهم من قتل وفوضى، عبرنا سوق هرج الرث وساحة الميدان الرثة إلى باب المعظم.

كان باب وزارة الدفاع مهدماً لا جندي فيه تحولت بنايته إلى شبه خرائب، قلتُ له:

- تعال لأريك أين أخذوني بعد إطلاق سراحك في الثمانين!

دخلنا ذلك المكان الذي كان رهيباً مفزعاً وقتها، فوجدنا عائلات فقيرة احتلت الزنازين والأبنية المحيطة وسط أكوام القمامة والذباب، أخبرته عن قصص من أتذكر من تلك الوجوه التي ضاعت حيث كنا نتكسّد في غرفة طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة أكثر من مئة معتقل بجلود مسلوخة ووجوه خائفة، قوية، شاردة، كان ذلك قبيل الحرب مع إيران حيث جرى تصفية الجيش من المناوئين، عشرات الوجوه، عشرات الأنفاس والأرواح والأحلام والأصوات والقصص والهموم التي عاشرتها أشهراً قبيل إطلاق سراحي لعدم ثبوت الأدلة.

لم نعد إلى البيت إلا حينما حلّ الظلام، لنشرب خلصةً في حديقة الشقة الخلفية، واضعين قنينة العرق العصري والكأسين، خلف المبردة على ناصية خشبية، خشيةً من عائلته التي غاصت في تشيعها، بينما غاص هو في شيوعيته في معادلة بدت لي عند عودتي وإطلاعي على أحوال رفاقي القدامى عامة معكوسة، فهم في وادٍ والناس في وادٍ وأولها عائلاتهم، وهذا كان محور حواراتنا المتشعبة، فالحصار والقمع والحروب زمن الدكتاتور خلّفت الناس ورجعت بهم بقوة إلى الدين والخرافة. على الرغم من ذلك كان يعتقد بأنهم سيحققون الوطن الحر والشعب السعيد وبينون عالم المساواة الجديد وينفعل حينما يشتد الجدل بيننا وأذكره بغربته داخل عائلته، التي تستنكر بصمتٍ كل ما يقول

حول المستقبل الزاهر وحلمه الطبقي القديم، وتتجه نحو طائفاتها بشدة.

* * *

أخذني العصف من أعماقي وأنا في طريقي إلى بيته قادماً من الديوانية، قلت له في التلفون:

- مسافة الطريق وأني يمك!.

لم آبه بتوسلات أخوتي وأخواتي خوفاً عليّ من خطورة الطريق إلى بغداد، فقد اجتاح العنف الطائفي العراق عقب تفجير قبة الإمامين العسكريين في مدينة سامراء. أصبح القتل على الهوية والهجّة والاسم. وكثّر المفقودون فمن يخرج من بيته يقرأ الفاتحة غير متيقن من أنه سيعود في المساء. كان صوته واهناً مرتجفاً وهو يخبرني بأن ابنته الكبيرة "فيروز" لم ترجع من الكلية منذ عصر البارحة، ولا يعرفون لها مكاناً. قلت مع نفسي:

- كمّل الغرگان غطه!.

كنت أشعر بمدى شدة مقاومته للظروف حوله، غربته وسط أولاده وزوجته، وانحسار فكرة البلد الديمقراطي، وخفوت حماسته للعمل السياسي مع الشيوعيين بعد أن تكشف له ما خبرته في تجربة الجبل من انطباعات تتعلق بجمودهم وذهنية تتطابق مع ذهنية العقل الديني وأحزابه في الممارسة العلنية، تلك الإشكالية التي جعلته يشعر بالوحدة على الرغم من وسع علاقته بندماء شرب قدامى، كان لا يسترخي ولا يستريح إلا بمقدمي وقضاء شهر أو أكثر معه في البيت وحانات وشوارع

بغداد، يستعيد فيها توازنه حتى وسط الأسرة، برغم تعلقي الشديد بالشرب وإفراطي به أحياناً كنت لا أملّ من تكرار رجائي له كي يخفف من الشرب قليلاً. كان يصمت وينظر نحوي ساخراً، لا يتفوه بكلمة واحدة ويصبّ في كأسه المزيد من العرق الذي بات يشربه صرفاً، فأعاود الرجاء. كنت خائفاً من تدهور وضعه الصحي فهو قليل الأكل أو زاهد فيه، إلى أن قال لي:

- ما تترك هذا الموال، أي من علمني كسر "الخمارية" غيرك!.

وكسر "الخمارية" يعني "احتساء كأس عرق على الريق في الصباح" يزيل أثر سكر الليلة السابقة من صداع وإنهاك ويستعيد الشارب مجد نشوة البارحة، لم أتذكر هذا التفصيل، فذكرني بذلك اليوم البعيد حينما استيقظ صباحاً والصداع يكاد يفلق رأسه، كنا قد حللنا أنا وزوجتي ضيوفاً عليه في شهر عسلنا، فنصحته بالطريقة، فاستفهم عن ماهيتها فشرحت له ماذا أعني بالكسر ضاحكاً ناقلاً خبرة أصدقائي الشعراء الشعبيين الذين تتلمذت على أيديهم بشؤون السكر والعريضة، فاستنكر الفكرة وأمتعض وجهه من مجرد تخيل شرب كأس عرق على الريق، وخرج إلى باحة البيت، لكنه عاد بعد دقائق وقرع باب غرفتنا ثانية، وقال لنجربها ففعلنا فأصابته النشوة وربت على ظهري شاكراً مردداً:

- شيطان.. ملعون يا صديق السوء والعرق!.

قلت له:

- ذاك زمن غير هذا، والعمر مرّ وبعد الجسم ما يتحمل!.

- ...!.

لبث واقفاً، أطل النظر نحوي، ثم جلس على كرسيه وهزّ ذراعه حول محورها بحركة شديدة البطء معبراً عن سخريته، وأجاب بجمليّ مكثفة طويلة واضحة يبخل بها عادةً على ما حوله:

- ماذا اختلف في الوضع. صارَ أكثر سوءاً، لقد هرمنّا والعراق يكاد يتبدد، بلد محتل، صراع طائفي قومي، قتل على الهوية، سيارات مفخخة لا تدري متى تنفجر عليك، كذب، رشوة، سرقة، لا كهرباء، لا ماء صالح، لا فرص عمل، ماذا بقي لنا من العمر؟! .. صبّ.. صبّ
- لكن صحتك!.

تبتسم بسخرية قائلاً:

- خيلنه من نظرية الصحة اللي جبتها من الدنمرك ودوختني بها !.

-!.

يتعثر لدي الكلام ويضيع. تعبر الدقيقة دون أن أجد شيئاً أو أحرك ساكناً فيقوم بصبّ كأسين بلامحّ منتشية تبرق، ناظراً بوله إلى العرق الذي له لون الماء وقوامه لحظة تدفقه من عنق القنينة الضيق إلى فوهة الكأس المدورة العريضة، ثم يرفع كأسه قائلاً:

- أرفع كأسك ما بقي بالعمر شيء يسوى!.

مثل مسحورٍ أمدّ يدي، وألف أصابعي حول زجاج الكأس،

أرفعه ليمس حافة كأسه المنتظر في فجوة الفراغ الفاصل بيننا.
نعبه خالصة دون خلط في ليل بغداد الذي يبدأ بالسكون.

أصبح العرق سلوته بوجودي وبدوني!، فبدأ وضعه العائلي
والعام يسيء جداً سنة بعد أخرى فقد بدأ يشرب ليل نهار ويروح
في غيبوبة سكر تستمر أياماً، حتى أن زوجته طلبت مني مراراً
حينما أتصل تلفونيا من الدنمرك بضرورة البقاء لديهم أياماً أكثر
عند زيارتي القادمة كي أخفف قليلاً من وحدته ولعلي أجعله
يخفف من الشرب فإنه لا ينصت لأحدٍ سواي.

لكنني كنت مدركاً أن الأمر لا يتعلق بوجودي فقط لكن بكل
تاريخه المهلك المعذب ونضاله من أجل البقاء حياً شريفاً وتفانيه
من أجل أخوته وأبنائه فقد تمكن من الوصول بأختيه، وأخيه إلى
بناء بيوت عامرة برغم الجوع والحصار والهروب والسجن
وكل شيء. والآن تضيع ابنته:

- إلهي أين عدالتك؟! ولم؟!.

صرختُ وأنا أمدّ ذراعيَّ نحو السماء حال نزولي من سيارة
الأجرة مقابل مستشفى "عبد المجيد" الأهلية وسط ضجيج المارة
على رصيف الكرادة. في الزقاق المؤدي إلى شقتهم صرت
أهذي وأتضرع بنحيب:

- يا الله لا تضيعها منه وهو بهذا الوضع؟!.. لا.. لا ربي..
رحمتك.. ربي عفوك. خلّص صديقي المسكين، بقدرتك يا أرحم
الراحمين!.

تلكأت جوار الباب، أحاول دفن ألمي عميقاً والكف عن
النشيج والتضرع. فكفكت دموعي براحتي. أخذت أنفاساً عميقة
متواصلة حتى أهدئ رجفة أوصالي:

- كن قوياً يا هذا!!

نهزت نفسي. شددت قامتي. ورفعت سبابتي المرتجفة وضغطت على زر الجرس، فسمعت صوت خطوات تقترب، ثم الدرفة تنسحب للداخل، ليظهر بوجه أحسنه جفّ وصغر بغتة. خطا نحوي باند القوى فحضنته بحنان شاداً جسده الذي نحل إلى صدري، ومن خلف كتفه رأيت زوجته وأولادهم بوجوههم الشاحبة الشاردة وعيونهم المحتقة المكددة بعناقنا وكأنني هبطت من السماء منقذاً. كان يتصنع التماسك وأنا كذلك، هدأت من روعه قائلاً:

- أول شيء نبدي نبحث، يجوز حدث لها حادث عارض بسيارة لو طارئ صحي مثلاً ونقلوها للمستشفى أو عند صديقة لها، أو.. أو.

عددت احتمالات مختلفة، الكثير منها لم يخطر على باله، إذ شنته غيابها وجعله مشوش الذهن، كان الوقت يقترب من منتصف النهار فهبنا على الفور إذ وجدته جاهزاً. لنبدأ البحث في أمل مخلوط باليأس من جهتي فقد كنت متيقناً من ضياعها مع نفسي، فهي ورعة، متدينة، بل عميقة الإيمان، ذكية، ناصعة التفكير، بدت في تلك الأيام وكأنها ترى أبعد مما نرى، فكانت تسخر من فرح العراقيين بقدم المحتل الأمريكي وتتوقع وقوع المزيد من الخراب والقتل وضياع الهوية العراقية. كانت جريئة، تطرح أفكارها بوضوح وبهدوء ودراية بدت غريبة على سنها. هذا ما سمعته منها في أول زيارتي للعراق وكان الوضع هادئاً نسبياً، وبدا والدها مبتهجاً وهو يشكل منظمة مجتمع مدني لإقامة مشاريع تساعد على الارتقاء بوضع الأسر المدقعة الفقر. سألتها:

- عمي ليش أنت متشائمة لهذا الحد؟!..

أجابت بوضوح:

- العراقي خربته الحروب والعوز صار يكذب ويرتشي!..

.. -

لم أعلق بشيء إذ أحسست بأنها تفكر لتضيف شيئاً كنت تواقاً لمعرفة فانتظرت صمتها الذي طال قليلاً وكأنها تستصعب القول الذي تود النطق به. حثنتها بهزة من رأسي فأضافت بصوتٍ مترددٍ:

- العفو عمي، أنت ما عشت هذي السنوات هنا حتى تشوف العراق أش صار به والعراقي أش لون صار!..

لم أفحمها وأقول لها وأبوك، خشيت من ذلك، كنا نجلس في حديقة الشقة الصغيرة وقت الغروب وأصوات الطائرات الأمريكية تجوب بضجيجها سماء بغداد، والمنطقة الخضراء التي تقع عبر "دجلة" المتدفق على بعد ثلاثين متراً.

حدقتُ في عينيها الواسعتين المتناغمتين مع قسماتها الساكنة المسترخية برغم عنف الموضوع، فرأيت وجهها كأنه وجه قديسة من القديسات المحفورة على جدران الكنائس القديمة، التفتُ إلى عيني "حسين" اللامعتين المنتظرتين.

ما زلت أحاول ترتيب إجابة ما فباغتتنا بسؤالٍ كنت أخشى طرحه في الأيام الأولى بسبب نشوة الناس بزوال الدكتاتور وأملها بالآتي:

- إنسان بهذا الوضع يبني؟!..

وقتها كنت في أول زيارة فشعرت أن هنالك الكثير الذي لم أفهمه جرى في غيابي، فتحولتُ إلى مستمع وهي تدخل في جدلٍ عويصٍ مع أبيها، ظل يتذكره ويكرر أراءها بإعجاب في السنوات الثلاث التالية، حيث أكتشف أن كل الذي يعمل معهم في المنظمة التي ساهم بتأسيسها برغم يسارية موقفهم يسرقون ويبررون فعلهم أخلاقياً، فانسحب، والأوضاع بدأت تتدهور منذ الانتخابات الأولى لتصل إلى هذه الدوامة التي لم تهدأ ونحن في طريقنا إلى أقرب مستشفى للسؤال عن فلذة كبده. كان شارداً لكنه يبدو للناظر متماسكاً قوياً كجذع شجرةٍ معمرة، بينما كنتُ أتأمل جريان الحياة، الناس تجلس في المقاهي تحتسي الشاي وتثرثر، يشتررون الجرائد التي أصبحت بلا عدد من الأكشاك المنتشرة على الأرصفة، يتناولون الكباب واللحم المشوي في المطاعم المتجاورة، نصاعة الذهب المنهمر من شمس السماء المتسلقة في سمتها، وجوه المارة المهمومة لكنها تمارس يومها وكأن لا فظائع تقع هنا وهناك تحدث بين ساعة وأخرى، الكلُ منشغلٌ في شأنه، وكان أكثر ما يغيظني شدة كثافة النخيل بقامته الفارعة في الشوارع وحدائق البيوت فتبدو بغداد من على جسر كأنها غابة من النخيل، كثافة نخل، ودفق ماء دجلة، ودفق دم العراقيين المجزرين الذين يعثر عليهم في البساتين والأرصفة وأماكن جمع القمامة، في البيوت، وعلى الطرق العامة الرابطة بين المدن، دم العراقيين الذي لم ينقطع منذ القدم. لم تبق مستشفى واحدة في بغداد لم نزرها ونسأل عنها. كانوا يدونون المعلومات والصفات ويبحثون السجلات دون جدوى، درنا على بيوت أقربائه ومعارفه، دون جدوى، في تلك الأيام قتلوا صديقي "أحمد" فأختلط دمه بالكتب التي يكتظ بها دكانه الذي بنوه

بحديقة المنزل في مدينة الشعب، أضنانا البحث وكنا نتوقع بعد أسبوع من الدوران أن يتصل بنا الخاطف أو من ينوب عنه ليطلب فدية كما يحدث مع المئات، إذ أصبح الخطف مهنة رابحة في تلك الأيام، نهرع كلما رنّ الهاتف، ونعّب العرق صافياً دون أن نبلغ السكر، فمن أين لنا الوصول إلى ساحله وكل أعصابنا متقدة ومشدودة في انتظار بداً أبدياً بعد مرور شهرين تماماً.

* * *

لم أكن أعرف الشخص الذي أقترح عليّ الذهاب إلى الطب العدلي في مدينة الطب. كنا نجلس حول طاولة أكثر من عشرين شخصاً في زحمة بارٍ ودخان وضجيج، وكنت أتأرجح لا من السكر بل من الإجهاد والجدار الأصم الذي أراه قائماً أمام وجهي أينما حللت معه في دورانا المجنون فكيف به يا رب السماوات؟!، كيف بصديقي التعبان؟!، أتأرجح على حافة الغفوة حينما ربّت شخصٌ على كتفي ربتاً خفيفاً، التفتُ رافعاً رأسي، كان يقف خلفي ويؤشر بأصابع أربع مصفوفة كي أتبعه، نزلنا السلالم إلى الطابق الأرضي وقرب منصة الحانة نصحني بذلك وأخبرني بأنهم فتحوا غرفة خاصة تعرض على شاشات آلاف الصور لحثث مجهولة الهوية، فقد جاوز عدد المفقودين خمسين ألفاً في بغداد وحدها كما ينشر ويشاع، قال جملته الأخيرة متردداً، وأضاف بأنه يحبُّ صديقي جداً، وقريب له جداً منذ أكثر من عشرة أعوام و "حسين" تحدثَ له عني كثيراً وأنا في المنفى قبل الاحتلال حتى يكاد يعرفني بالتفصيل، وختم كلامه قائلاً:

- ما عدنا شجاعة، ونعرف مدى تعلقه بها!.

-!

أغرقنا الضجيج وسقطتُ في حيرتي، معنى ذلك أنني أكلفُ بأخباره عن موتها وأنا أشعر بكل حواسي شدةً أمله رغم ضعفه في لمسها حية بين يديه فأية مهمة ثقيلة أخرى يثقلني بها هذا الشخص المجهول:

- نترجاك!.

قالها أيضاً بصيغة الجمع هذا يعني أن هنالك من كلفه بمفاتحتي، تلاشى صخب الحانة بينما كنت أمعن في التفرس في ملامحه القوية المتماسكة وبشرة وجهه الكالحة، والمحقرة بآثار جدري قديم فبدت مثل جذع نخلة هرمة. أردف وكأنه حزر ما يدور في رأسي:

- الكل متفق على كونك الوحيد الذي يستطيع مواجهته، فالأمر طال.. ومرّت سنة!.

سألتُ "حسين" عنه عقب جلستنا. كان مهندساً زراعياً يعمل في وزارة الزراعة، قضى سنيناً من عمره في سجون وأقبية الدكتاتور، فُصلَ من وظيفته زمنَ الحصار وذاق الأمرين، وعقب الاحتلال عاد إلى وظيفته وكافح ليصبح رئيساً للجنة المفصولين السياسيين في الوزارة ويقدم الكثير لمن أصابهم الحيف في ترتيب قضية عودتهم للوظائف. دأبنا على اللقاء عند كشك في ساحة الأندلس يعود لصديقنا "أبو ميثاق" الشيوعي الذي أخذت ساقه اليمنى الحرب العراقية الإيرانية، لكنه يبكر كل صباح ليفتح باب الكشك الخشبي وينظم الصحف والمجلات والكتب والسجائر رغم أنه يعبّ قنينة عرق كاملة في الليلة

السابقة. سيشارك المهندس التعبان في مظاهرات ساحة التحرير المطالبة بالكشف عن الفساد وتوفير الخدمات صباح كل جمعة والتي قمعتها السلطات بالنار والحديد، وكان من ضحايا كاتم الصوت، إذ ترصدوه وهو يخرج صباحا على جسر في الزعفرانية وأردوه قتيلاً. أخبرني "حسين" بصوت حزين عبر الهاتف وأنا في الدنمرك قبل زيارتي الأخيرة معلقاً:

- قد يقتلونني أيضاً في أية لحظة!.

كان صديقي هو الآخر، يبكر إلى ساحة التحرير رغم حواجز الشرطة والجيش والمخابرات والاستخبارات وميليشيات الأحزاب الدينية الحاكمة المتخفية.

طغت ضجة أعماقي على ضجيج الحانة، وزال تعبي فنشطتُ وكأنني نهضت للتو من نومٍ عميق، شددتُ قامتي وحملتُ في قسماته القوية، في بشرةٍ وجهه التي تجسمت قريبةً بشقوقها وتجاعيدها فبدتُ كأرضٍ لم تسقَ منذ زمن بعيد، كنتُ أريد قولَ شيءٍ، فأصمتني بحضنه كان أطول مني قامةً فالصق رأسي بعنقه، وسمعتَه يقول بنبرة رجولية خافتة:

- لا تخيب ظننا.. أرجوك!

أصابني الأرق، فسهرت أتقلب في فراشي، أفكر طوال الليل في الأمر، باحثاً عن طريقة تخفف من وقع فكرة موتها وتجعله يتقبل فكرة البحث عنها بين الجثث. اقترحت الخروج في نزهة إلى "أبو نؤاس" وهناك جلسنا على مصطبة قبالة المنطقة الخضراء التي كانت حصن الدكتاتور والآن حصن الحكام الجدد والمحمية بقوات الاحتلال. الحقائق خاوية في تلك الساعة المبكرة من الصباح، والطائرات المروحية الأمريكية تحوم

ضاجةً فوقنا، لم أتمكن من فتح الموضوع. وجدته مفاجئاً ليس له فقط بل لي أيضاً، فأنا من داخلي هش لا بل شديد الهشاشة، أنفجر باكياً عند أبسط المواقف التي تمس الآخرين والتي تبدو عابرةً. قلتُ مع نفسي:

- الثالث ضروري!.

وأضفتُ:

- لنمر على "قاسم"!

وهو صديق مشترك لديه محل حدادة في شارع مجاور لساحة الطيران. غادرنا المصطبة وسلطنا الممر المبلط الصاعد نحو حافة الرصيف. الشارع مكتظ بالجنود، ورجال الشركات الأمنية بأجسادهم المتينة ونظراتهم الوقحة وهم يقفون في مداخل البنايات ومنعطفات الشوارع الجانبية في أبو نؤاس. لم نكسر الصمت طوال الطريق ونحن نعبر أزقة البتاوين الرثة، فساحة التحرير هابطين على سلالم طويلة من تحت جدارية "جواد سليم" مخترقين غابة من المسلحين المنتشرين تحتها وحولها وخلفها، قطعنا ساحة الطيران، وخلف بائعي الخضار والزيتون والرصيف العريض المفروش بباعة الحاجيات الرخيصة دلفنا إلى شارع واسع ضاح بأصواتٍ مطارق الحدادة وأجهزة اللحم والقص وصياح العاملين المنشغلين بشأنهم وكأن لاشيء يحدث.

فكرة "جريان الحياة" وتدفعها في شوارع بغداد المزدحمة اللاهثة التي ترتكب فيها الفظائع تعاودني بين ساعة وأخرى، تزعجني، وتتركني حائراً أمام لغز الحياة وعنفوانها ورغم الفظائع المرتكبة والقتل اليومي الذي عاد لا يعني الكثير لسكانها المنهكين بتفاصيل اليوم العملية.

رتَّبَ كراسي حديدية صغيرة مركونة خلف ألواح الحديد وسط فسحة الدكان الضيقة المكتظة بقطع غيار قديمة، منحوتات مصبوبة من الحديد بعضها لصاحب المحل والأخرى لصديقنا النحات "سماري بن مسلم".

لم يجلس "حسين" استدار نحو الرصيف قائلاً:

- دقائق وأعود..

وتوجه نحو مرافق صحية قريبة، انتهزت الفرصة لاتفاق مع "قاسم" على مكاشفته كي تراجع مركز المفقودين الذي فُتِحَ مؤخراً، وافقتي على الفكرة وطلب مني المبادرة وقول الجملة الأولى حال عودته، كافحتُ حتى نطقْتُ فخرج صوتي حياً وكأن المتكلم ليس أنا:

- ليش ما تراجع الطب العدلي!.

كان يجلس على كرسي قصير القوائم جوارِي. التفتَ نحوي، وحقق بيّ بعينين تحجرتا على الفور بينما جسده سكن دون حراك مثل نصب رجل "سماري" المحطم المركون خلفه لصق الجدار. هربت بعيني المرتبكتين مستنجداً بـ "قاسم" الواقف جوار منضدة تناثر على سطحها الصدى قطع حديد مفككه، بملابسه الملطخة بالزيت الأسود، وأصابه الملوثة الخشنة القصيرة المدهونة بنشارة الحديد والزيت حتى بدا كأنها والكف قدت من حديد حيّ يتحرك وهو يأخذ زمام الكلام، فصرتُ في الظل والضجيج أستمعُ إلى التفاصيل التي يرويها عن غرفة خاصة بالمفقودين في مدينة الطب، فهناك وضعت شاشة عرض تقوم بعرض آلاف الصور لجثث مجهولة الهوية، مهوناً من هول لحظة العثور قائلاً:

- هي محاولة.. مو أكيد.. لكن واحد لازم يروح يشوف!.

ظلّ "حسين" ينظر بعينين لا تطرفان نحو وجه "قاسم" بقسماته الضخمة ونظراته المتعاطفة، باركاً في سكونٍ يشبه الموات حتى بعد أن سكت صديقنا الحداد. ربّت على كتفه بأصابعي. استدار برأسه نحوي ببطءٍ شديدٍ، فوقعت عيناه في عيني، كانتا مخضلتين بالدمع. مسحتُ كتفه بأصابعي. أحسسته يتوسل رأيي بعينه اللتين ابتلتا بالدمع الفائر المحبوس عند حافة الحدقتين، ناسياً أنني من فتح الموضوع، هزرت رأسي هزةً خفيفةً مشجعةً، وشبكتُ كفي بكفه، سحبتُه بحنوٍ من الكرسي، فأنهض جسده مستسلماً شاردأً، وخطا مع خطوي متأخراً بخطوتين أو ثلاث هي مسافة ذراعي الماسكة بكفه، كان يمشي كالسائر في نومه وسط الزحمة والضجيج حتى ساحة الطيران، ركبنا سيارة أجرة إلى مدينة الطب قرب باب المعظم.

لم نسأل عن مكانها، فالحركة والزحمة وصياح الناس الخارجين والداخلين من شارع ضيق خلف بناية المستشفى العالية دلّنا، وجوه ملتحية، متعبة، مغضّنة، بملابسٍ رثة تتحاور عن فضاغة ما يجري من ذبح على الهوية، سنجد جوار بابٍ واطئٍ العشرات من مختلف طوائف وأديان المجتمع العراقي، يتحاورون بغضبٍ لا عينٍ تلك الساعة التي جعلتهم يعيشون إلى يوم الاحتلال الأمريكي الذين جاء معه حديث السنة والشيعية ومذابح فاقت زمن الدكتاتور، وجوه ووجوه زوجات أذبلهنّ فقدان الأزواج، أمهات يولولن لفقدان الأبناء. أباء يتصنعون التماسك وعيونهم تلمع بالدمع، أخوة أكثر تماسكاً وحركة يشاركون بأطراف الحديث المكروه عن الأعداد المتزايدة للمفقودين، والجثث التي يعثر عليها في الحقول المحيطة ببغداد

وفي الأنهار وعلى ضفافها وقرب أكداس القمامة وعلى حافات الطرق العامة الواصلة بين جنوب وشرق وغرب وشمال بغداد، يتحدثون عن بشاعة طرق التعذيب المبتكرة قبيل الإجهاز على الضحية، وعن التمثيل بالجنث، رحت أراقب وجوه الأطفال المنصتين وهم يحدقون ببلاهة وعدم فهم فلا أحد يتوجه إليهم بالحديث، الجميع ينتظرون لحظة السماح لهم بدخول المكان الذي يحرسه رجال من الجيش والشرطة غلاظ القسمات يتعاملون بخشونة مع المراجعين، يزجرون وينظرون باحتقار لأبناء جلدتهم المنكوبين، قلت بصوتٍ منخفض مقرباً فمي من إذن حسين:

- نفس سلوك شرطة الدكتاتور!..

- هم بعينهم.. ماذا تظن!..

إتساع حجم الكارثة التي صرنا في تماسٍ مباشر معها، ساعدت في استرداد توازنه وجعلته يشارك في الأحاديث مع المنكوبين. فتعرفنا قبل أن تحين ساعة الدخول على عشرات القصص الغريبة والعجيبة، فغالبية الضحايا هم من العراقيين البسطاء غير المنضمين إلى مليشيات أحزاب الطوائف المتنازعة والمتجنبين السياسة وهذا مفهوم فهي أي السياسة ارتبطت لدى العراقي المعاصر بالعنف الذي بلغ شدته هذه الأيام. أخبرتنا "أم أحمد" وهي سيدة متوسطة العمر لازالت تحتفظ ببقايا جمال قديم، بأنها تأتي إلى غرفة المفقودين بين فترة وأخرى باحثة عن ابنها الأصغر "أياد" الذي بحث عنه في كل مكان، ولم تجده، ولا تعلم إن كان في السجن أم مختطفاً، أم مقتولاً، فقد قيل لها إن القوات الأمريكية قد اعتقلته، بينما شكّت فتاة جميلة اسمها "أمل" من تعثر حياتها وأطفالها الثلاثة

المعاقين بعد اختطاف زوجها "المحامي" من أحد مقاهي بغداد، قصص متشابهة عن فقدان يبدو لا معنى له أو مبرر لدى العراقيين لكنه لدى الساسة المتصارعين على السلطة مفهومٌ، لم يتوقف تدفق القادمين من الشارع العريض، حاولتُ عدّهم قتلاً للوقت الثقيل والقصص المفزعة المتشابهة، الوجوه وأن اختلفت أشكالها وألوان بشرتها وأعمارها لكنها متوحدة في الفرع والجزع ومرارة الانتظار. أحصيت أكثر من خمسين وأتعبني العد فلا أحد يبقى في مكانه. الجميع يريد التأكد من مصير شخصهم المفقود. لم يكن السبب وجدانياً فقط كما ظننت للوهلة الأولى إذ عرفتُ من خلال الأحاديث أن الكثير من المعاملات الرسمية كإصدار جواز سفر، أو صرف راتب التقاعد وغيرها تتعرقل دون شهادة وفاة رسمية، ودون العثور على جثة المفقود لا يمكن إصدار هذه الشهادة، لذا توجهت الأخوات والأخوان إلى هذا المكان للعثور على جثة "الفقيد" قالت أحدهن يائسة:

- ماذا نفعل؟ فليرحمه الله، لكن يتوجب علينا العيش وتربية الأطفال!.

في الحادية عشرة صباحاً فتحوا الباب فساد الصمت وتقارب الجمع محتشداً حولها، لم يتزاحم أحدٌ، كنا قريبين، فتشنا شرطي شاب متحسساً بكفيه أجسادنا من العنق حتى أسفل القدمين قبل أن يسمح لنا بعبور العتبة. صرنا في مدخلٍ فسيح عريض، رث. تنتشر على أرضيته الأتربة المتراكمة وقطع الورق الممزق وكأن المكان مهجورٌ، ومن الجدران والسقف وامتداد الممر العريض الطويل، والأبواب القديمة، ووجوه الشرطة المدنية بلحاهم القصيرة وبشرتهم السمراء اليباسة وعيونهم المرتبكة المتشككة هجمت علينا رائحة شديدة العفونة كأنها رائحة مكان

كان مليئاً بالجنث المتفسخة، لتضفي على الوجوه التي شَحَبَتْ مزيداً من الوحشة والفرع. قادنأ أحدهم مسافة عشرة أمتار ليتوقف ويفتح باباً عالياً عريضاً أصدر عند سحبه أزيزاً يشبه الأنين. في غرفة واسعة عالية السقف تكاد تكون بلا نوافذ، مضاءة بمصابيح واهنة النور توزعت مقاعد خشبية قديمة، وكراسٍ من البلاستيك البالي بلا ترتيب، على أرضيتها المغبرة والقذرة ورق ممزق وخرق مناديل يدوية مرمية بين أرجل المقاعد وتحتها وما بينها، تفصلها مسافة أمتار قليلة عن شاشة عرض كبيرة أنيقة لا تتناسب مع المكان الرث. ألمت بي مشاعر غريبة، مضطربة، حالما بدأت أقلب في الاحتمالات القادمة من القماشة العريضة البيضاء، التي بدت مثل كفٍ سيلف الحاضرين قريباً.

- ماذا لو رأينا جثتها؟!

- ماذا سأفعل؟!

طردت الأسئلة ونهرت نفسي قائلاً بحزم:

- دَغ المشاعر جانباً وكن قوياً.. قوياً كالصخرة كي تنتشل صاحبك؟!

فضلتُ أن نجلس في الصف الأخير، لا أدري لماذا؟، سَحَبْتُهُ من ذراعه صوب مقعدين في أقصى اليسار، امتلأت المقاعد الرثة وأحتشد البقية خلفنا وإلى الجانبين، تقدم شاب يرتدي ملابس الأطباء البيض خطوتين عن صف الموظفين المدنيين الواقفين جوار الشاشة، وقال بصوت عادي هادئ النبرة لا يتناسب مع هول مشاعر الحشد الذي سقط في السكون والصمت حتى صار لكلماته صدى:

- راح تظهر الصور، كل صورة ستعرض حوالي نص دقيقة، اللي يشخص جثة قريبه يخبرنا حتى نسجل رقمه ويستلمها بعد إنجاز أوراقه!.

أطفئت المصابيح عدا واحد يتدلى من السقف العالي ويضيء الفسحة الكائنة بين الشاشة والحشد الأخرس. وبدأ العرض، توالى الجثث المشوهة. كنت أختلس النظر إلى وجه صديقي التي تحجر وتأرجح على حافة هوة عميقة، بلا أدنى حركة، دون أن تطرف عيناه المتعلقتان بحشد لضحايا المفقودين الواحد بعد الآخر، جثث بعضها مشوهة القسمات، مقطعة الأوصال، وبعضها واضحة الملامح وكأنهم نيام تحمل كل صورة رقماً واضحاً في أسفلها إلى اليمين وجوارها مفردة "مجهول". خطفت نظري إلى الوجوه القريبة التي يضيئها النور الشاحب والمحملة في الشاشة، كانت تتكسر لمرأى الأجساد الفتية المشوهة والقوية السليمة الهامدة في رقدتها، بعضها مفتوح العينين ينظر صوب سماء الصورة أو يتجه صوب الحشد، أو بعينين مقلوعتين خلفتا حفرتين سوداوين، تتكسر الوجوه وتتماسك بثوانٍ فلا وقت لديها للذهاب إلى أقصى الحزن إذ تعود لتفتش في الصور المتلاحقة عمّن يخصها.

انزعجت من إحساس راودني يقول بأن قلبي أصبح قاسياً وإلا ما هذا الحياد وكأن الأمر لا يعنيني إلا بمقدار ما يُعني صديقي وابنته المفقودة.

- هل شوهتني التجربة أم لماذا؟

خطف السؤال المزعج خطفاً حينما كنت أخالس النظر إلى

الوجوه القريبة المحلقة اللامعة على ضوء الشاشة ومصباح
القاعة الوحيد المضاء.

صور الجثث رديئة التصوير هبطت بيّ بعيداً. فمنذ طفولتي
البعيدة تعودت على هذه الصور وأشكال الأجساد الراقدة أبداً في
سكونها وبهمة وجودها الذي ذهب لحظة القتل. رأيت نفسي
أنفصل عن الشاشة والوجوه جالساً في صيف 1964 في دكان
عمي "خليل" الحلاق القريب من الجسر الحديدي وسط الديوانية
أنصفح كتاباً رديء الطبع عنوانه "فضائح الفاشست
والمنحرفون" فيه صور العديد من أجساد العراقيين الأبرياء
الذين قتلهم الحرس القومي، وعندما سألت عمي عن يكون
هؤلاء قال:

- أنهم من جماعتنا شيوعيين.

صور الكتاب بالأبيض والأسود موحشة بأجسادها المشوهة
الساكنة التي تبعث في أعماق نفسي مزيداً من الغموض
والإبهام. سأكبر قليلاً وسأتعلق بالفكر الماركسي وأتعرض
لغسيل الدماغ في التعصب العائلي للشيوعية. سأستعير كتاباً من
مكتبة "الحكيم" الدينية وسط السوق وسأغضب حين أقلبها وهي
تروى بالصور ما فعلته جماهير الشيوعيين من مجازر في
الموصل وكركوك عام 1959 صور تعرض أجساد عراقيين
مجزرة ومعلقة على أغصان الأشجار. أو يسجلها جمع هائج من
الجماهير. كان ذلك في 1972 كنت طالباً في السادس الإعدادي
شديد الحماسة للفكر الماركسي حد العمى. هذه الصور ستعاشر
نضجي وشبابي وأراها بدمها ولحمها مجزرة هذه المرة بالمدافع
والطائرات في جبهة الحرب الإيرانية، ثم بين الثوار في الجبل،

وها هي الآن أراها بشكلٍ أكثر تجسيداَ على شاشة كبيرة، وخلف هذه البناية ترقد غريبة في الثلاثات الكبيرة بانتظار من يتعرف عليها، أعادتني إلى القاعة صرخة امرأة انطلقت بالعويل نادبةً ابنها الذي ظهر على الشاشة غارقاً في نومته الأبدية، فعمَّ لغطٌ وتوقف العرض وجاء رجال ثلاثة ليصحبوها إلى مكانٍ آخر، أمسكت بكف "حسين" القريبة وجدتها قطعة من الثلج لسعت أصابعي، استمر العرض والصمت والصرخات الهلعة بين الحين والحين حتى الرابعة عصراً، خرجنا بعدها منهكين. أسرعنا إلى حانة لنعب العرق صرفاً ساقطين في صمتٍ بهيم تحوم فيه أشكال جثث العراقيين المجهولة التي ملأت أنظارنا لساعاتٍ، شربنا ليلتها حتى موعد غلق الحانة، وواصلنا في حديقة الشقة حتى مطلع الفجر.

ثلاثة أشهر كاملة بثوانيتها ودقائقها وساعاتها وأيامها قضيناه معاً نذكر إلى تلك القاعة وحشد الملتاعين الفاقدين وسيل الجثث، ثم البار والعرق الصرف وشجون الحديث عما جرى في القاعة وأشكال النساء والرجال الموجهين الناديين اللاطمين الصارخين بجنون لحظة عثورهم على جثة قريبهم. موضوع ليس لدينا بعد مشوار النهار غيره ولا نستطيع تغييره برغم محاولتنا فقد سيطر علينا فشعرنا أننا نعيش في باطن مذبحة مستمرة قد يكون من ارتكبها ويرتكبها أي عراقي يصادفنا في السوق والشارع والمقهى والبار حينما يلبس قناعاً ويجهز على عراقي آخر من غير طائفته أو دينه أو يجهر برأي مخالف لما يعتقد. القتلة يرتدون أقنعة ويدعوها في الصباح وهم يمارسون أعمالهم العادية، هذا ما سوف تتكشف عنه الأحداث لاحقاً وما كنا نشعر به عقب عودتنا من تلك القاعة التي تعرض فظاعة

نفوس أبناء جلدتنا التي ارتدت إلى مرحلة وحشية من مرحلة الغرائز أكثر إبهاماً من قوانين الغابة المنظمة حسب القوي. هنا القتل مبهم غامض لا منطق فيه سوى الانتقام. انتقام العراقي من العراقي وكأن الاحتلال أيقظ الوحش الكامن في نفوس أبناء بلدنا فعادوا يقتلون بعضهم تنفيذاً لأفكارٍ مجردة أتت بها سلطة طائفية مفبركة في بلدٍ خربه دكتاتور ثم احتلال سلم مقاليد العراقي لحفنة من الساسة الفاسدين. ثلاثة أشهر كنا ندخل فيها الجحيم صباحاً ونخرج عصراً لنغوص في جحيم نفسينا والعرق والأحاديث المرّة والأسئلة. أسبوع هو كل ما تبقى على موعد رجوعي إلى الدنمرك. ودعني بعينين دامعتين يبقی الدمع فيهما محبوساً إذ لم أره ينسكب على خده مرة واحدة، ودعني عند نصب "النسر" قرب مطار "بغداد".

هدأت موجة القتل الطائفي 2005 – 2007 دون أن يسمع شيئاً عن قلدة كبده. بقيتُ أتصل به تلفونياً.. كان صوته يزداد وهنا في الأيام الأولى ليتحول رويداً.. رويداً وبمرور الأشهر والسنوات إلى صوت غاضب وهو يحدثني عن مظاهرات ساحة التحرير التي يشترك فيها كل جمعة. لم أطمئن إلى طبيعة صوته رغم محاولته المحافظة على نبرته القديمة. أقلقني صدى أنفاسه اللاهثة وكأنه يوشك على الاختناق.

في المكالمات الأخيرة قبل شهر أفصح للمرة الأولى عن تعبته منذ أن عرفته قبل أكثر من أربعين عاماً قائلاً:

- أني تعبان لازم أشوفك!.

* * *

وجدته مُهدماً يجود بروحه دون تصرّيح، هَرَمَ بَغْتَةً. غَزَتْ
التجاعيدُ وبقع البهاق وجهه، والشيب رأسه. تضخم بطنه مع
ضُمور ساقيه وذراعيه. صار بطيء الحركة سريع الغضب.
عيناه فقط احتفظتا ببريقها. زاد نهمة للشرب. وكان يرد على
لومي لإفراطه بنظرة ساخرة مصحوبة بتكشيره يلم فيها شفثيه
وكأنه يقول:

- يعني حتى أنتَ ما تفهم!.

راح يعيد على مسمعي حكاية ذلك الشاعر الصعلوك السكير
الذي كان ينام على الأرصفة متغزلاً بمعرفته اللحظة التي
سيغادر فيها الدنيا إذ سقط في ظهيرة تموز حارقة على رصيفٍ
بساحة "الميدان" وسط بغداد دافعاً بذراعيه نحو السماء أثناء
سقطته وهو يقول:

- أي خُلصْتُ!.

كلما مررنا بساحة الميدان يؤشر إلى مكان سقوط ذلك
الشاعر المجهول الذي كان يشاركه الشرب والتصعلك سنوات
الحصار، ويعيد تمثيل المشهد بكل حواسه التي تتوقد فتخرج
جملة الشاعر الأخيرة من أعماقه حارة حارقة وعيناه الواسعتان
تنفتحان على سعتهما دافعاً بذراعيه نحو سماء ظهيرة بغداد كمن
يقذف روحه نحو الزرقة والشمس، ثم ينفث حسرة ويعلق:

- أييييييييييييييييي خُلصْتُ!.

صار في الأيام الأخيرة غير قادرٍ على السير مسافاتٍ طويلةٍ،
ورفض بشدة الذهاب إلى الطبيب ساخراً من طب العراق الذي
تحول إلى استغلال وتجارة في هذه الفوضى، أخبرني بأنه توقف
عن النشاط السياسي، ولازم البيت، يخرج فقط عندما تنفد

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994 دار الكنوز الأدبية بيروت - لبنان.
2. **رؤيا الغائب** (رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق - سوريا.
3. **سرير الرمل** (قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق - سوريا.
4. **الإرسي** (رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة - مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد - العراق. النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.
5. **الحياة لحظة** (رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة - مصر
6. **في باطن الجحيم** (رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد - العراق، الترجمة الإنكليزية 2014 دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية.
7. **حياة ثقيلة** (رواية)، الطبعة الأولى 2015 دار الأدهم القاهرة - مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق - النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.
8. **إعدام رسام** (رواية)، 2016 دار الأدهم. القاهرة - مصر.
9. **طفلان ضائعان** (قصص)، الطبعة الأولى 2019 دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.
10. **كل شيء ضدي** (رواية)، 2021 دار الدراويش بلغاريا.
11. **قبلة الصباح** (قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا.
12. **دونت سبيك أسطب** (رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق.